

يَسَّيِّرُكَ  
قَطْبُ

العَدَّةُ  
الْأَجْتَمَاعِيَّةُ  
الْأَشْفِيَّةُ فِي الْأَمْرِ

دار الشروق





العَدَالَةُ الاجتماعية في الإسلام

## الطبعة الشرعية السابعة

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القامية ١٦ شارع جواد صفر هاتف: ٧٥٤٣١٤ بريقا، شروق القامة  
بكرت ١ ص.ب. ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ بكرتيا، داشروق



سَيِّدُ قُطَيْبٍ

الْعَدْلُ الْكَثْرُ  
الْاِجْتِمَاعِيَّةُ  
فِي الْاِسْلَامِ

دار الشروق







## إهؤلاء

إلى الفتية الذين كنت ألحهم بعين الخيال قادمين ؛ فوجدتهم في واقع الحياة قاعمين . . يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، مؤمنين في قرارة نفوسهم : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالي أمنية وحلمًا ، فإذا هم حقيقة وواقع ، حقيقة أعظم من الخيال ، وواقع أكبر من الآمال .

إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب كما تنبثق الحياة من ضمير العدم ، وكما ينبثق النور من خلال الظلمات .

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله . في سبيل الله . على بركة الله . أهدى هذا الكتاب .

سيد قطب

رجب سنة ١٣٧٣  
مارس سنة ١٩٥٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## الذين والمجتمع بين المسيحية والإسلام

في عالم الاقتصاد ، لا يلجأ الفرد إلى الاستدانة ، وله رصيد مذكور ، قبل أن يراجع رصيده ، فيرى إن كان فيه غناء ؛ ولا تلجأ الدولة إلى الاستيراد قبل أن تراجع خزائنها ، وتنظر في خاماتها ومقدراتها كذلك.. أفلا يقوم رصيد الروح ، وزاد الفكر ، ووراثات القلب والضمير ، كما تقوم السلع والأموال في حياة الناس ؟!

بلى ! ولكن الناس في هذا العالم الذي يطلق عليه اسم « العالم الإسلامي » ، لا تراجع رصيدها الروحي وتراثها الفكري ، قبل أن تفكر في استيراد المبادئ والخطط ، واستعارة النظم والشرائع ، من خلف السهوب ومن وراء البحار !

إن الناس تنظر قفري واقعا اجتماعيا لا يسر ؛ وتبصر قفري أوضاعا اجتماعية لا تحقق العدالة ، عندئذ تتجه بأبصارها إلى أوروبا وأمريكا وروسيا والصين ويوغوسلافيا ... وما إليها ! تستجلب منها الحلول لمشكلاتها ، كما تستورد منها السلع لمعاشها . غير أنها عند استيراد السلع تراجع أرصدها القديمة ، وتحصى موجوداتها في السوق ، وتنظر في قدرتها على الإنتاج . فأما عند استيراد المبادئ والنظم والقوانين فلا تصنع شيئا من هذا كله ؛ ولا تتخرج أن تلقى بكل تراثها الروحي ، وكل مقوماتها الفكرية ، وكل الحلول التي يمكن أن يتيحها لها النظر فيما لديها من أسس ومبادئ ونظريات ، لتستجلب المبادئ الديمقراطية ، أو الاشتراكية ، أو الشيوعية ؛ فتكل إليها حل مشكلاتها الاجتماعية ؛ مهما اختلفت أوضاعها ، وظروفها ، وتاريخها ، ومقومات حياتها المادية والفكرية والروحية ، عن ظروف القوم فيما وراء البحار ، وفيما خلف السهوب !

وهؤلاء الناس يعلنون أن دينهم هو الإسلام . ويزعمون أحيانا أنهم حماة الإسلام ودعاته !



ولكنهم يقصون هذا الدين من حياتهم العملية ، ليبقى في عزلة وجدانية ، لا يحكم الحياة ؛ ولا يصرف شؤونها ، ولا يعالج مشكلاتها .. فالدين - كما يقال - صلة ما بين العبد وربّه ؛ أما صلات الناس ، وعلاقات المجتمع ، ومشكلات الحياة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال ... فلا دخل للدين بها ، ولا دخل لها بالدين .. هذا ما يقوله الذين لا ينكرون الدين . فأما الآخرون فيقولون : لا تذكروا لنا هذا الدين ؛ فالدين إن هو إلا مخدر يستغله الرأسماليون والحكام المستبدون ، لتنويم الطبقات الكادحة ، وتخدير الجماهير المحرومة !

من أين جاء هؤلاء الناس بهذه النظريات الغريبة على طبيعة الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ؟ .. لقد استوردوها هي الأخرى - كما يستوردون كل شيء - من خلف السهوب ، ومن وراء البحار !

ذلك أن قصة العزلة بين الدين والدنيا لم تنبت في العالم الإسلامي ؛ ولم يعرفها الإسلام ؛ وقصة تخدير الدين للمشاعر لم تكن يوماً وليدة هذا الدين ، ولم تعرفها طبيعته . ولكنهم يتلقفونها تلقفاً كالبيغاء ، ويحاكونها محاكاة كالقردة ، ولا يحاولون أن يفتشوا عن أصلها ونشأتها ، ولا أن يعرفوا مصدرها وموردها .. فلننظر من أين جاءت ، وكيف جاءت هذه القولة الغريبة ؟ !

\*\*\*

لقد نشأت المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية ؛ وفي وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية ؛ واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ، ومظاهر خاوية لا روح فيها . وكان للإمبراطورية الرومانية قوانينها المشهورة التي لا تزال ينبوعاً للقوانين الأوروبية الحديثة ؛ وكان للمجتمع الروماني نظمه الوضعية ؛ ومقوماته الاجتماعية ، فلم تكن المسيحية الكنسية كما صاغها « بولس » وقدمها لأوروبا ، وفي الظروف التي كانت قائمة يومذاك ، بقادرة على أن تضع للدولة الرومانية الوطيدة ، وللمجتمع الروماني المعقد ، قوانين ونظماً ، وحدوداً للسير



على هداها في الدولة والمجتمع . بينما بنو إسرائيل الذين أرسل إليهم عيسى عليه السلام والأرض المقدسة كلها مجرد مستعمرة رومانية ! فانصرفت بحكم هذه الظروف إلى التهذيب الروحي ، والتطهير الوجداني ؛ وعنيت بهذا الجانب بقدر ما كانت معنية بتقديس الطقوس الجامدة ، والمظاهر الخاوية في شعائر اليهودية ، ورد الروح والحياة إلى الضمير الإسرائيلي . ولقد بلغت المسيحية في بعض فتراتها مستوى عاليا في التطهر الروحي ، والتجرد المادي ، والسماحة الوجدانية ، وأدت واجبها في هذا الجانب من حياة الإنسانية الروحية ، بقدر ما تستطيع تعاليم روحية مجردة من الشريعة أن ترتفع بالروح ، وأن تسمو بالوجدان ، وأن تنظف القلب والضمير ، وأن تكبت الغرائز ، وتعلو على الضرورات ، وتهدف إلى أشواق مقدسة في عالم المثال والخيال ، تاركة المجتمع للدولة تنظمه بقوانينها الأرضية في عالم الظاهر والواقع ، إذ كانت هي معنية بعالم النفس والضمير ؛ وكانت بذلك منطقية مع الصورة التي رسمتها الكنيسة للمسيحية ، ومع نشأتها في بيئة خاصة ، ومع حاجة الأمة الإسرائيلية بصفة خاصة في تلك الفترة .

ولما عبرت المسيحية في صورتها هذه البحر إلى أوروبا وجدت الرومان ورثة الحضارة الإغريقية المادية الوثنية ، كما وجدت أقواماً في أنحاء أوروبا حديثي العهد بالبربرية ، يتناحرون بمجموعهم الكثيفة على رقعة من الأرض ضيقة ، ذات طبيعة قاسية وعرة ضئيلة شحيحة ، لا يملك من يعيش فيها أن يذوق طعم الراحة فترة ، ولا أن يلقي سلاحه لحظة ، ولا أن يركن في واقع الحياة إلى نظريات المسيحية وتعلقها بملكوت السماء ، وانعزالها عن الحياة الأرضية الواقعية .

لقد رأى هؤلاء الأقوام أن الدين لا يصلح للحياة ، فقالوا : إن الدين صلة ما بين العبد والرب ، وأنه لا بأس عليهم أن يستظلوا بظله في الكنيسة ؛ وأن يستروحوا نسماته في الهيكل المقدس ؛ وأن يواجهوا صراع الحياة بعد ذلك في المجتمع بتقاليدهم البربرية ؛ وأن



بدعوا السيف يقضى بحكمه في إبان هجيتهم ، ويدعوا القانون المدني يقضى بحكمه بعد أن تحضروا . فأما الدين فقد بقي في عزلة الوجدانية هناك في القلوب والضمائر ، وفي الهيكل المقدس وكرسي الاعتراف ! ولم تتمثل المسيحية هناك قط في نظام يهيمن على الحياة كلها، ويربط ملكوت الأرض بملكوت السماء .

ومن هنا كانت تلك العزلة بين الدين والدنيا في حياة الأوربيين . بل كانت الحقيقة الواقعة التي تنطق بها طبائع الأشياء ، وهي أن أوربا لم تكن مسيحية قط في يوم من الأيام . وقد بقي الدين في عزلة عن تكييف الحياة وتنظيمها من يوم دخوله إلى يومنا هذا .

ولكن رجال الدين من القساوسة ، والكرادلة، والبابوات .. لم يكونوا يستطيعوا أن يضمنوا مصالحهم ، ولا أن يحافظوا على نفوذهم ، إذا بقيت الكنيسة في عزلة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فلا بد إذن أن تكون الكنيسة سلطة تقابل سلطة الملوك والأمراء ؛ ولا بد أن تستغل سلطانها الروحي في ميدان الحياة العامة . وجاءت عصور كان للكنيسة أملاك وجيوش وسلطان لا تقل عن أملاك الملوك وجيوشهم وسلطانهم . ووقع النزاع - كما لا بد أن يقع - بين الكنيسة والسلطة ، بين البابوات والأباطرة ؛ وكان الدهاء في الغالب في صف الكنيسة . ثم وقع الوفاق - كما لا بد أن يقع - بين هاتين السلطتين ، لالتقاء مصلحتيهما في تسخير الجماهير ، واستغلال الدهاء ، مادامت مصالح مادية واقتصادية في حقيقتها ، ومادام النزاع في أصله على السلطة الزمنية .

وكان هذا . وقيل : إن الدين مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين . لأنه هكذا كان عند الأوربيين !

\*\*\*

وبقيت الكنيسة سلطة مقدسة ، تملك رقاب الناس في الدنيا، وفي الآخرة كذلك



بقيت تبيع « صكوك الغفران » وتصدر « قرارات الحرمان » ، وظلت تتحكم في مشاعر الناس وأفكارهم على السواء ؛ ومن خلفها محاكم التفتيش ، تقتل وتحرق كل من يرفع رأسه ، أو يتهم بالزيغ والإلحاد . . . حتى جاء عصر الإحياء ، ورأت الكنيسة ما يهدد سلطانها من تفتح الأذهان والمشاعر بعد القرون المظلمة ؛ ولم يكن هينا عليها أن تفقد سلطانها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ في النماء ؛ فانطلقت تقاوم وتجاهد لتكبح الأفواه الجريئة ، وتعطيل الأفكار المتحررة من الجهل والخرافة ، التي تناقض النظريات البالية العتيقة ؛ فكان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر منذ ذلك التاريخ . ولما كانت الكنيسة لا تريد أن تكتفى بملكوت السماء ، ولا أن تقنع بالتحكم في الآخرة ، فقد اصطدمت نظرياتها عن الأرض والأفلاك والمواد بنظريات العلم القائمة على الدراسة الطليقة مما فرضته الكنيسة من مقررات ، لم تقم إلا على علم ناقص من علم البشر ، ولا علاقه لها بالدين في أصوله . . . فقد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحقرها معا ؛ وتكن في نفوسها العداوة والاشمئزاز للدين ولرجال الدين .

ومن هنا كانت الجفوة بين الدين والعلم ، وبين الكنيسة والفكر ، في حياة الأوربيين !<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ثم سارت الحياة في طريقها ؛ وآتى العلم الحديث ثمراته ، ونشأ عنه في عالم الصناعة ما يعرف بالإنتاج الكبير ؛ وتضخمت رؤوس الأموال ؛ وأصبح في ميدان العمل معسكران منفصلان : معسكر أصحاب رؤوس الأموال ، ومعسكر العمال ؛ وانفجرت الهوة بين مصلحة كل من المعسكرين ؛ وانتقلت السلطة الحقيقية من يد الدولة إلى أيدي أصحاب رؤوس

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « النضام النكد » في كتاب « المستقبل لهذا الدين » .



الأموال . ولما لم يكن بدّ للكنيسة أن تنضم للسلطة الحقيقية ، فقد انضمت إلى معسكر رأس المال !

ولا أحب أن أظلم رجال الكنيسة الأوربية جميعاً ؛ فقد يكون منهم المستنفع الذى يدرك مركز القوة فينضم إليه ؛ ويتخذ من الدين مخدراً للطبقات الكادحة ؛ يصدها عن الثورة لحقها ؛ ويخذلها عن طلب النصفة فى الدنيا ، ويمنيها العوض فى الآخرة . ولكن بعضهم لا بد أن يكون مخلصاً فى دعوة من هذا القبيل ، حسب فهمه لعقيدته المسيحية كما رسمتها الكنيسة ، فالمسيحية هذه فى جوهرها تزهد ، واحتقار للحياة الظاهرة ، وتطلع إلى ملكوت الرب ، وعالم السماء ، وانفصال كامل بين ملكوت الأرض وملكوت السماء . وعلى أية حال ، لقد وجدت الطبقات الكادحة التى تريد أن تصارع ، أن الدين لا يغذى رغبتها فى الصراع ؛ وأن الكنيسة تتخذ منه مخدراً للكادحين ؛ فأعلنت ثورتها الكاملة على الدين ؛ وقالت عنه : إنه مخدر الملايين . وسواء كان دعاة المذهب المادى مخلصين فى موقفهم من الكنيسة أم غير مخلصين ، فالحق أن الكنيسة كانت تقف فى غير صف الكادحين !

ومن هنا كان العداء الجاهر الصريح بين الشيوعية والدين <sup>(١)</sup> !

\*\*\*

ولكن نحن ! نحن الذين نسمى أنفسنا مسلمين ونسمى بأسماء المسلمين - ما بالنا وهذا كله ؟ وظروفنا التاريخية ، وطبيعة الإسلام وظروفه ليست فى شيء من هذا جميعه ! لقد نشأ الإسلام فى أرض لاسلطان لإمبراطورية ولا لملك عليها ؛ ونشأ فى مجتمع بدوى قبلىّ ليست به أوضاع أو قوانين من نوع ما كان فى الإمبراطورية الرومانية . وكان هذا

---

(١) لا ينبغي أن ننسى - مع ذلك - أن الشيوعية مؤسسة يهودية كالماسونية ، وأن أولى ركائز الخطة اليهودية فى تدمير العالم - غير اليهودى - هو سلب الدين منه وإبعاده عن هذا المقوم الأساسى للحياة !



أنسب وضع لهذا الدين فى نشأته الأولى ، ليتولى إنشاء المجتمع الذى يريد به بلا عوائق حقيقة ، ويضع له قوانينه ونظمه ؛ ويتولى فى الوقت ذاته ضميره وروحه ، كما يتولى سلوكه ومعاملاته ؛ ويجمع بين الدنيا والدين فى توجيهاته وتشريعاته . . . وقد قام على أساس توحيد عالم الأرض وعالم السماء فى نظام واحد ، يعيش فى ضمير الفرد ، كما يعيش فى واقع الجماعة ؛ ولا يفصل فيه النشاط العملى عن الوازع الدينى ؛ ولا يتعدد جوهره الموحد ، وإن اختلفت مظاهره ومسالكه .

ولم يكن الإسلام - ووظيفته الأولى هى إنشاء صورة جديدة وكاملة للحياة الإنسانية - بمستطيع أن يعزل فى الوجدان البشرى ، بعيداً عن الحياة العملية الواقعة ؛ ولم يكن مضطراً من ناحية نشأته التاريخية كذلك أن يضيق دائرة عمله لحظة واحدة خشية إمبراطورية أو سلطان ؛ فهو سيد نفسه حتى والجاهلية العربية تعارضه . فهى تعارضه بغير أوضاع اجتماعية ذات جذور راسخة وبغير نظام اجتماعى وطيد الأركان كالمجتمع الذى صادفته المسيحية فى أول عهدها . وميدان عمله هو الحياة البشرية كلها ، روحها وماديتها ، دينها ودنيوها . وقد نشأ فى أنسب بيئة ليزاول طبيعته كاملة ، ويبلور حقيقته فى صورة واقعية منذ اللحظة الأولى . والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد كان من قدر الله لهذا الدين الذى سيبقى إلى آخر الزمان أن يطبق تطبيقاً كاملاً بلا عوائق منذ مولده لتبقى منه صورة كاملة للأجيال لا غش فيها ولا شبهة .

ولن يستقيم هذا الدين فى عزلة عن المجتمع ؛ ولن يكون أهله مسلمين ، وهم لا يحكمونه فى نظامهم الاجتماعى والقانونى والمالى ؛ ولن يكون مجتمعهم إسلامياً ، وأحكام الإسلام وشرائعه منفية من قوانينهم ونظمهم ، وليس لهم من الإسلام إلا شعائر وعبادات ؛ فالإسلام هو العبودية لله وحده ، وإفراده بخصائص الألوهية ، وفى أولها « الحاكمية » ، كما سنفصل فيما بعد :



« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَاقُوا تَسْلِيمًا »<sup>(١)</sup> .. « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »<sup>(٢)</sup> .. « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ »<sup>(٣)</sup> .

ومما يجعل هذا الطريق متعيناً ، أن هذا الدين كل لا يتجزأ : عباداته ومعاملاته ، شرائعه وتوجيهاته . والشعائر التعبدية ليست منفصلة في طبيعته وأهدافه عن النظم والمعاملات ، فالصلاة وهى من أخص الشعائر التعبدية تعنى توجه الفرد وتوجه الجماعة إلى إله واحد عزيز قادر ، لاتعزو الجباه لإلا له ، وإلى قبة واحدة لازيغ عنها ولا فسوق ، كما تعنى المساواة أمام ديان واحد ، الكل له عبيد ، والكل أمامه سواء ، و « شهادة أن لا إله إلا الله » - وهى الركن الاعتقادى الأول فى هذا الدين - تعنى منهجاً كاملاً للحياة يقوم على التحرر المطلق وجدانيا وعمليا من كل عبودية لغير الله . هذا التحرر الذى هو الخطوة الأساسية لتحقيق مجتمع صالح كريم ، الكل فيه متساوون .

وعلى أية حال فلن يرتاب باحث فى هذا الدين ، فى أن فكرة المجتمع واضحة بارزة فى شعائره ونظمه على السواء ، وأنها الفكرة الأولى القوية الشائعة فى كيانه كله . فإذا شاهدنا فى بعض العصور محاولة لتضخيم الجانب « التعبدى » فى هذا الدين وعزله عن الجانب الاجتماعى ، أو عزل الجانب الاجتماعى عنه ، فتلك آفة العصر لا آفة الدين<sup>(٤)</sup> .

وليس هذا الذى نقوله عن الإسلام بدعاً نبتدعه ، ولا تأويلاً جديداً لحقيقته ، إنما

(١) سورة النساء [٦٥] . (٢) سورة الحشر [٧] . (٣) سورة المائدة [٤٤] .

(٤) التعبد فى الإسلام يشمل الشعائر والشرائع والحركة والنشاط الإنسانى كله . ولكن غلب فى التأليف الفقهية اصطلاح « العبادات » على أحكام الشعائر واصطلاح « المعاملات » على فقه الشرائع . والإسلام وحدة لا تتجزأ . راجع فصل « الشمول » فى كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .



هو الإسلام كما أبان عن وجهته ، وكما فهمه صاحبه الأول - محمد صلى الله عليه وسلم - وكما فهمه أصحابه المخلصون له ، والقريبون من منبعه الأصيل .

جاء في القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ . ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> » . وكلنا يعلم كم تستغرق الصلاة المفروضة من الزمن في اليوم ، وما بقي فللسعى والعمل ، فوقت الصلاة نسبة ضئيلة في حياة الإنسان ، وللمجتمع والحياة ما تبقى طوال الليل والنهار . وجاء في موضع آخر : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا <sup>(٢)</sup> » لأن الغالب في النهار هو المعاش لا الشعائر التعبدية .

على أن الإسلام لا يعد العبادة فيه هي مجرد إقامة الشعائر ، إنما هي الحياة كلها خاضعة لشرعة الله ، متوجها بكل نشاط فيها إلى الله . ومن ثم يعد كل خدمة اجتماعية وكل عمل من أعمال الخير فيه عبادة . قال صلى الله عليه وسلم : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار <sup>(٣)</sup> » .

والحادثان التاليتان قاطعتان في الدلالة على روح الإسلام ، كما يفهمه صاحبه رسول الله : عن أنس رضي الله عنه قال : كنا مع النبي في سفر ، ففنا الصائم ، ومنا المفطر . قال فنزلنا منزلا في يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، ففنا من يتقى الشمس بيده . قال : فسقط الصوت ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب . فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله <sup>(٤)</sup> » .

وعنه أيضاً أنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الجمعة [٩-١٠] . (٢) سورة النبأ [١٠-١١] . (٣) الشيخان والترمذي والنسائي (٤) أخرجه الستة .



يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ! قالوا : أين نحن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني <sup>(١)</sup> » .

ولم يكن ذلك من محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو أعرف بدينه ، استهانة بأمر الصوم والصلاة ؛ ولكن إدراكاً لحقيقة روح هذا الدين ، الذي يعمل للحياة وهو يعمل للعقيدة ، فيمزج العقيدة بالحياة ، ولا يقف بها في معزل وجداني في عالم الضمير . وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين رأى رجلاً يظهر التمسك والتموت ، نفقه بالدِّرَّة وقال له : « لآمت علينا ديننا أمتك الله » . أو حين شهد عنده شاهد ، فقال : اثنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل ، فآثني عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائماً في المسجد يهيمهم بالقرآن ، يخفض رأسه تارة ويرفعه أخرى ! قال : نعم ! فقال : اذهب فلست تعرفه ! وقال للرجل : اذهب فآثني بمن يعرفك !

فهذه من عمر رضي الله عنه كتلك من نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فهم صحيح لحقيقة هذا الدين ، وتصوره للعبادة والسلوك ، وفي العقيدة المستسرة في الضمير ، والعمل الواضح للعيان : « وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> » .

(١) الشيخان والنسائي .

(٢) سورة القصص [٧٧] .



« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا <sup>(١)</sup> ». « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ؛ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ <sup>(٢)</sup> » .. « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ؛ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ؛ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ - ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ؛ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ؛ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. <sup>(٣)</sup> » .. « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ .. <sup>(٤)</sup> »

فهذا هو قوام الإسلام في العمل والاعتقاد . ولا عزلة إذن بين الدين والدنيا ، ولا بين العقيدة والاجتماع ، كما كان الحال في المسيحية التي صاغتها المجامع المقدسة !

\* \* \*

والإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق ، فكل مسلم في أطراف الأرض ، وفي فجاج البحر ، يستطيع بمفرده أن يتصل بربه ، بلا كاهن ولا قسيس . والإمام المسلم لا يستمد ولايته من « الحق الإلهي » ولا من الوساطة بين الله والناس ، إنما يستمد مباشرته للسلطة من الجماعة الإسلامية ، كما يستمد السلطة ذاتها من تنفيذ الشريعة ، التي يستوى الكل في فهمها وتطبيقها متى فقهوها ، ويحكم إليها الكل على السواء .

فليس في الإسلام « رجل دين » بالمعنى المفهوم في الديانات التي لاتصح مزاولة الشعائر التعبدية فيها إلا بحضور رجل الدين . إنما في الإسلام علماء بالدين ، وليس للعالم بهذا الدين من حق خاص في رقاب المسلمين ، وليس للحاكم في رقابهم إلا تنفيذ الشريعة التي

(١) سورة الحج [٤٠] . (٢) سورة البقرة [١٩٠] . (٣) سورة البقرة [١٧٧] .

(٤) مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .



لا يبتدعها هو ، بل يفرضها الله على الجميع . أما في الآخرة ، فالكل مصيرهم إلى الله :  
« وكلهم آتية يوم القيامة فردا<sup>(١)</sup> » .

فلا صراع إذن بين علماء الدين والسلطان على رقاب العباد ، ولا أموالهم ؛ وليست هنالك مصالح اقتصادية ولا معنوية يتنازعانها ؛ وليست هنالك سلطة روحية وأخرى زمنية في الإسلام . فلا مجال للصراع عليها ، كما كان الحال بين الأباطرة والبابوات .

والإسلام لا يعادى العلم ولا يكره العلماء ؛ بل يجعل العلم المؤدى إلى معرفة الله - وكل علم صحيح يؤدى إلى هذه الغاية - فريضة مقدسة داخلة في الطاعات الدينية : « طلب العلم فريضة على كل مسلم<sup>(٢)</sup> » . « من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »<sup>(٣)</sup> .

ولم يعرف التاريخ الإسلامى تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر أو رجال العلم كما عرفتها محاكم التفتيش . والمرات القليلة النادرة التى عوقب فيها رجال على أفكارهم ، تعد شاذة في تاريخ المسلمين ، وفى الغالب كانت تتلبس بها حالات سياسية ، وتكن خلفها نزعات حزبية ، وهى على وجه العموم ليست طابعا بارزا للحياة الإسلامية ؛ وقد جاءت على أبهى أناس ينكر عليهم الإسلام أن يكونوا فهمة للإسلام .

وذلك طبعى فى دين لم يعتمد على الخوارق والمعجزات ؛ إنما قام على التأمل والنظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ

(٢) ابن ماجه .

(١) سورة مريم [٩٥] .

(٣) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .



وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ<sup>(١)</sup> . . « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ<sup>(٢)</sup> . »

وذلك طبيعي أيضاً في دين يربط التقوى بالعلم ؛ ويجعل العلم سبيلاً إلى معرفة الله وخشيته : « إنما يخشى الله من عباده العلماء<sup>(٣)</sup> » . . ويرفع منزلة العلماء على الجاهل : « قل : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٤)</sup> » . . « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب<sup>(٥)</sup> »

فلا جفوة إذن بين الدين والعلم الصحيح المؤدى إلى معرفة الله عن طريق آياته في الأنفس والآفاق . لا جفوة بين الدين وهذا العلم ، لا في طبيعة الإسلام ولا في تاريخه ، كالجفوة التي وقعت بين الكنيسة والعلماء في عصر النهضة وما تلاه .

فأما وقوف « رجال الدين<sup>(٦)</sup> » في صف السلطان وأصحاب المال وتخليدهم بالدين

(١) سورة البقرة [١٦٤] (٢) سورة الروم [١٩-٢٤] . (٣) سورة فاطر [٢٨] .

(٤) سورة الزمر [٩] . (٥) أبو داود والترمذي وابن حبان والبيهقي .

(٦) نحن نفرق بين اصطلاح رجال الدين واصطلاح « علماء الدين » . . ففي بعض العهود يحاول أصحاب السلطان أن يقيموا في الإسلام « هيئة دينية » ! يستخدمونها في تحريف الكلم عن مواضعه ، والإفناء بما يرضى أصحاب السلطان ، ويصدق أقوالهم وأفعالهم وأوضاعهم التي لا سند لها من الدين . وهي هيئات تشبه « الكليروس الكنيسة » لا يبرفها الإسلام .



للعاملين والمحرومين ، فلا نكران لوقوعه في بعض عهود التاريخ الإسلامي . ولكن روح الدين الحقيقية تنكر على هؤلاء موقفهم ؛ والدين يتوعدهم بالعذاب والنكال جزاء ما اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . ولقد حفظ التاريخ بجانب سير هؤلاء سيرا لنماذج من « علماء الدين » الذين لم تأخذهم في الحق لومة لائم ، والذين جابهوا السلطان وأصحاب المال بحق الفقراء وحق الله ؛ كما حرضوا أصحاب الحقوق على حقوقهم ، وبينوها لهم ، وتعرضوا لظلم الحكام ، وللنفي أحيانا والاضطهاد .

\* \* \*

ليس لدينا إذن سبب واحد لتنحية الإسلام عن المجتمع ، لا من طبيعته الخاصة ، ولا من ظروفه التاريخية ، كالأسباب التي لازمت المسيحية في أوروبا ؛ فعزلت الدنيا عن الدين وتركت للدين تهذيب الضمير وتطهير الوجدان ؛ بينما تركت للقوانين الوضعية تنظيم المجتمع وتسيير الحياة .

كذلك ليست لدينا أسباب حقيقية للعداوة بين الإسلام والكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية - في حدود المنهج الإسلامي والشريعة الإسلامية - كالتى لابتست العداوة بين المسيحية والشيوعية ؛ فالإسلام يفرض قواعد العدالة الاجتماعية ؛ ويضمن حقوق الفقراء في أموال الأغنياء ؛ ويضع للحكم وللمال سياسة عادلة ؛ ولا يحتاج لتخدير المشاعر ، ولا دعوة الناس لترك حقوقهم على الأرض ، وانتظارها في ملكوت السماء . بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم الشرعية ، تحت أى ضغط ، بسوء العذاب في الآخرة ؛ ويسميه « ظالمى أنفسهم » : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ! قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا <sup>(١)</sup> » . . ويحرضهم على القتال لحقهم « ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد <sup>(٢)</sup> » .

(١) سورة النساء [٩٧] . (٢) رواه النسائي .

فإذا اضطرت أوروبا لتنحية الدين عن حياتها العامة ، فلسنا بمضطرين أن نجاريها في هذا الطريق ؛ وإذا اضطرت الشيوعية أن تعادى الدين لتضمن حقوق الطبقات الكادحة - كما تزعم - فلسنا كذلك في حاجة إلى معاداة الدين !

ولكن بعض الناس - وفيهم من يزعمون أنهم مسلمون ويتسمون بأسماء المسلمين - يقولون : ومن الذى يضمن لنا أن هذا النظام الذى أقامه الإسلام في عصر تاريخي خاص ، لا يزال يحمل عناصر النمو والتجدد الكفيلة بأن تجعله صالحاً للتطبيق في عصور تاريخية أخرى ، قد تختلف مقوماتها كثيراً أو قليلاً عن مقومات العصر التاريخي الذى نشأ فيه الإسلام ؟

وهذا الكتاب بجملته هو الإجابة لهؤلاء على مثل هذا السؤال . ولكننا نقول هنا في إجمال :

إن الإسلام - وهو من صنع بارئ هذا الكون ومنشئ نواميسه ، والعالم بما يحد فيه وما يتطور - كان في علمه هذا التطور التاريخي ، وما يترتب عليه من تطور اجتماعي واقتصادي وفكري عام . وإنه لهذا وضع الخطوط الثابتة ، والمبادئ العامة ، والقواعد الشاملة التي لا تخرج أطوار الإنسان في النهاية عن حدودها ؛ وترك التطبيقات لتطور الزمان ، وبروز الحاجات ، في حدود مبادئه العامة ، وقواعده الشاملة ؛ ولم يُدَل بتفصيلات جزئية مقيدة إلا في المسائل التي لا تتغير حكمها ، والتي تؤدي أغراضها كاملة في كل بيئة ؛ والتي يريد الله تثبيتها في الحياة البشرية ، لأنها ضمان للخصائص التي يرتضيها لهذه الحياة . وإنه بهذا الشمول وبهذه المرونة ، قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجدد على مدى الأزمان .

ولقد بذل فقهاء هذا الدين جهداً ضخماً مشكوراً في التطبيق والقياس والتفريع كفل لأحكام الإسلام أن تلبى حاجات المجتمع المتجددة في ذلك الزمان ، الذى كان المجتمع فيه



محكوما بشريعة الإسلام .. ثم وقف هذا الجهد عندما تخلى المجتمع عن الإسلام بتخليه عن شريعة الإسلام ، منذ أن غلب الاستعمار الصليبي على دار الإسلام في كل مكان ! ولم يكن العلاج لتلك الحال أن ندع ديننا الشامل في عزلة تعبدية ، وننتقل إلى التشريع الفرنسي نستمده منه القانون ، أو إلى النظريات السياسية الغربية نستمدها منها نظام الحكم ، أو إلى النظريات المادية نستمدها منها نظام المجتمع ، قبل أن نبتس من صلاحية هذه الشريعة لإقامة المجتمع الحديث ! ذلك أن النمو العضوي الطبيعي لأي نظام في بيئة من البيئات ، يجعله أصح بالقياس إلى هذه البيئة - على الأقل - من كل نظام معتسف غريب على طبيعة هذه البيئة ، لم ينم فيها نموه العضوي الرتيب .. وذلك كله فضلا على ما تقتضيه منا دعوى الإسلام التي ندعيها . وهي دعوى لا تقوم إلا على أساس من العبودية لألوهية الله وحده . ولن تتحقق العبودية لألوهية الله وحده إلا في صورة واحدة : صورة الحكم بشريعة الله .

ولكنه الجهل بحقيقة هذا الدين ، وبطبيعة المجتمعات وقوانين الحياة ، والكسل العقلي والنفسى عن مراجعة الرصيد القديم ، والتقليد المضحك للاتجاه الغربى أو الشرقى في فصل الدين عن الحياة ، حيث اقتضت ذلك طبيعة نشأة الدين عندهم دون أن تقتضيها طبيعة نشأة الإسلام ، وحيث قامت هنالك الجفوة بين الدين والعلم والدولة لأسباب تاريخية بينهاها ، ولا نظير لها في تاريخ الإسلام !

وليس معنى هذا أننا ندعو إلى الوقوف بأوضاع المجتمع عند شكل تاريخى معين . فالإسلام منهج وإطار تصاغ منه أشكال متجددة - وفي الوقت ذاته قائمة على أصول ثابتة - للمجتمع المسلم وفق ظروفه المحيطة . ولكننا ندعو - على الأقل - إلى مراجعة الرصيد المذخور ، ومعرفة أسسه العامة ، قبل أن نعمد إلى تقليد مبتسر ، مفقود الأسس التاريخية في حياتنا ، تضع فيه شخصيتنا ، ونصبح معه ذبلا للقافلة الإنسانية . وديننا يدعو إلى أن نكون دائما في المقدمة :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،  
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ »<sup>(١)</sup> . . . « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ  
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »<sup>(٢)</sup> .

وما يُدري هؤلاء الناس أن لدينا ما نعطيه لهذا العالم البائس المكدود ، الذي دفعته  
حضارته المادية الخاوية من الروح ، إلى حربين عالميتين في ربع قرن من الزمان؛ والذي ما يزال  
يتخبط في طريقه إلى حرب ثالثة تنذر حضارته كلها بالبوار !!؟

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] . (٢) سورة البقرة [١٤٣] .



## طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام

لن ندرك طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام ، حتى ندرك مجملًا للتصور الإسلامي عن الألوهية والكون والحياة والإنسان . فليست العدالة الاجتماعية إلا فرعاً من ذلك الأصل الكبير الذي ترجع إليه كل تعاليم الإسلام .

إن الإسلام وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعاً ، لم يعالج نواحيها المختلفة جزاءً ، ولم يتناولها أجزاءً وتفاصيل . ذلك أن له تصوراً كلياً متكاملًا عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ؛ يرد إليه كافة الفروع والتفصيلات ؛ ويربط إليه نظرياته جميعاً وتشريعاته وحدوده ، وعباداته ومعاملاته ؛ فيصدر فيها كلها عن هذا التصور الشامل المتكامل ، ولا يرتجل الرأي لكل حالة ؛ ولا يعالج كل مشكلة وحدها في عزلة عن سائر المشكلات .

ومعرفة هذا التصور الكلي للإسلام تيسر للباحث فيه فهم أصوله وقواعده ؛ وتسهل عليه أن يرد الجزئيات إلى الكليات ؛ وأن يتتبع في لذة وعمق خطوطه واتجاهاته ، ويلحظ أنها متشابكة متكاملة ، وأنها كل لا يتجزأ ، وأنها لا تعمل عملاً مشمرًا للحياة إلا وهي متكاملة الأجزاء والاتجاهات .

وطريق الباحث في الإسلام أن يتبين أولاً تصوره الشامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ، قبل أن يبحث عن رأيه في الحكم أو رأيه في المال ، أو رأيه في علاقات الأمم والأفراد ... فإنما هذه فروع تصدر عن ذلك التصور الكلي ، ولا تفهم بدونه فهماً صحيحاً عميقاً .

والتصور الإسلامي الصحيح لا يلتبس عند ابن سينا أو ابن رشد أو الفارابي وأمثالهم ممن يطلق عليهم وصف « فلاسفة الإسلام » ؛ ففلسفة هؤلاء إنما هي ظلال للفلسفة الإغريقية غريبة في روحها عن روح الإسلام . وللإسلام تصوره الأصيل الكامل ، يلتبس في

أصوله الصحيحة؛ القرآن والحديث ، وفي سيرة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسننه العملية .  
وهذه الأصول هي حسبُ أى باحث متعمق ليدرك تصور الإسلام الكلى الذى يصدر  
عنه فى كل تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته .

وقد تناول الإسلام طبيعة العلاقة بين الخالق والخلق ، وطبيعة العلاقة بين الكون  
والحياة والإنسان ، وطبيعة العلاقة بين الإنسان ونفسه ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الفرد  
والدولة ، وبين الجماعات الإنسانية كافة ، وبين الجيل والأجيال . ورد ذلك كله إلى تصور  
كلى جامع ، ملحوظ الخطوط فى سائر الفروع والتفصيلات ..

والبحث المفصل فى هذا التصور ليس بمجاله هذا الكتاب ، وهو موضوع بحث مفصل  
بعنوان « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »<sup>(١)</sup> . ولكنى سأشير فقط إلى رؤوس  
موضوعات عامة ، تمهيداً للحديث فى موضوع العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

\* \* \*

لقد ظلت الإنسانية أدهارا طويلة لا تستقيم على تصور شامل عن الخالق والخلق وعن  
الكون والحياة والإنسان .

وكانت كلما جاءها رسول من عند الله بصورة منه ، قبلتها منها قلة ، وأعرضت عنها  
كثرة . ثم عادت بحملتها فارتدت عنه إلى تصورات جاهلية منحرفة مشوهة .. حتى جاء  
الإسلام بأكمل تصور وأشمل شريعة مقترنين ، وأقام عليهما نظاما واقعيا للحياة يتمثل فيه  
التصور والشريعة فى صورة عملية .

فأما العلاقة بين الخالق والخلق ( الكون والحياة والإنسان ) فهى الإرادة المباشرة  
التي تصدر عنها المخلوقات جميعا : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ  
فَيَكُونُ »<sup>(٢)</sup> فلا واسطة بين الخلق والخالق من قوة أو مادة . فعن إرادته المطلقة تصدر

---

(١) صدر القسم الأول منه وهو يعرض « خصائص التصور الإسلامى » . والقسم الثانى تحت الطبع  
وموضوعه « مقومات التصور الإسلامى » . (٢) سورة يس [٨٢] .



الموجودات صدوراً مباشراً ؛ وإيرادته المطلقة تحفظ وتنظم وتسير : « يُدَبِّرُ الْأُمُورَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ <sup>(١)</sup> » .. « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ <sup>(٢)</sup> » .. « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ <sup>(٣)</sup> » .. « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ <sup>(٤)</sup> » .

وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة ، وحدة متكاملة ، كل جزء فيها ملحوظ فيه تناسقه مع سائر الأجزاء ؛ ولكل موجود فيه حكمة تتعلق بهذا التناسق الكامل الملحوظ ؛ « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا <sup>(٥)</sup> » .. « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ <sup>(٦)</sup> » .. « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ . هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ <sup>(٧)</sup> » .. « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا <sup>(٨)</sup> » .. « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ <sup>(٩)</sup> » .. وهكذا وهكذا يبدو أن لكل موجود حكمة تتناسق مع غاية الوجود ، وأن الإرادة التي يصدر عنها الوجود أولا ، ويحفظ بها وينتظم ثانيا ، تلاحظ في كل موجود تناسقه ونفعه الكلي للوجود .

ولأن الوجود وحدة متكاملة الأجزاء ، متناسقة الحلقة والنظام والاتجاه ، بحكم صدوره المباشر عن الإرادة الواحدة المطلقة الكاملة ، كان مهياً وصالحاً ومساعداً لوجود الحياة بصفة عامة ، ولوجود الإنسان - أرق نماذج الحياة - بصفة خاصة ؛ فليس الكون عدواً للحياة

(١) سورة الرعد [٢] .	(٢) سورة الحج [٦٥] .	(٣) سورة يس [٤٠] .
(٤) سورة الملك [١] .	(٥) سورة الفرقان [٢] .	(٦) سورة القمر [٤٩] .
(٧) سورة الملك [٤، ٣] .	(٨) سورة فصلت [١٠] .	(٩) سورة الروم [٤٨] .

ولا عدواً للإنسان ؛ وليست « الطبيعة » - بتعبير الجاهلية الحاضرة - خصماً للإنسان يصارعه ويغالبه ، إنما هي من خلق الله ، وهي صديق لا تختلف اتجاهاته عن اتجاهات الحياة والإنسان ؛ وليست وظيفة الأحياء أن يصارعوا الطبيعة ، وهم في أحضانها نشأوا ، وهي وهم من ذلك الوجود الواحد الصادر عن الإرادة الواحدة . والإنسان بالذات إنما يعيش في جو صديق وبين أصدقاء من الموجودات : فالله حين خلق الأرض « جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » .. « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ »<sup>(١)</sup> .. « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ »<sup>(٢)</sup> .. « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا ، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ »<sup>(٣)</sup> .. « خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا »<sup>(٤)</sup> .. « .. والسماء بكواكبها جزء من الكون متكامل مع سائر أجزائه ، وكل ما فيها وما في الأرض صديق ومعاون متناسق مع سائر أفرادها : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا »<sup>(٥)</sup> . « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَنْزُلًا حَكِيمًا ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا »<sup>(٦)</sup> .

وهكذا تقرر العقيدة الإسلامية أن الله رب الإنسان قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً . أما سبيله إلى كسب هذه الصداقة فهو أن يتأمل هذه القوى ويتعرف إليها ويتعاون معها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحياناً ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ، ولم يعرف الناموس الذي يسيرها .

والخالق - مع هذا - لا يدع الأحياء والناس لذلك الكون الصديق بلا رعاية

(١) سورة النحل [١٥] . (٢) سورة الرحمن [١٠] . (٣) سورة الملك [١٥] .  
(٤) سورة البقرة [٢٩] . (٥) سورة فصلت [١٢] . (٦) سورة النبأ [١٦، ١٧] .



مباشرة ، وعناية متصلة ؛ فإرادته المباشرة متصلة بالكون كله ، ومتصلة بكل فرد من موجوداته في الوقت نفسه : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .. (١) « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا » (٢) .. « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتُوْسُوْسٍ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » (٣) . « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » (٤) .. « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَاهُمْ » (٥) ... الخ .

ولأن الوجود الموحد صادر عن إرادة واحدة ؛ ولأن الناس جزء من الكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه ؛ ولأن أفراد الإنسان خلایا متعاونة متناسقة مع الكون .. لم يكن بد إذن أن تكون متعاونة متناسقة فيما بينها . لذلك كان تصور الإسلام أن الإنسانية وحدة ، تفرق أجزاؤها لتجتمع ؛ وتختلف لتتسق ؛ وتذهب شتى المذاهب لتتعاون في النهاية بعضها مع بعض ، كي تصبح صالحة لتتعاون مع الوجود الموحد : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » (٦) .

ونظام الحياة الإنسانية لا يستقيم حتى يتم هذا التعاون والتناسق وفق منهج الله وشرعه . وتحقيقه واجب لصالح الإنسانية كلها ، حتى ليباح استخدام القوة لإرجاع من يشذ عن هذا النهج إليه : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » (٧) .. « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

(١) سورة فاطر [٤١] . (٢) سورة هود [٦] . (٣) سورة ق [١٦] .  
(٤) سورة غافر [٦٠] . (٥) سورة الأنعام [١٥١] . (٦) سورة الحجرات [١٣] .  
(٧) سورة المائدة [٣٣] .

بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا<sup>(١)</sup>». «وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ<sup>(٢)</sup>» .  
فالأصل هو التعاون والتعارف والتناسق في حدود منهج الله وشرعه ؛ ومن شذ على  
هذا الأصل ، فليرد إليه بكل طريق ؛ لأن سنة الله في الكون أولى بالاتباع من أهواء  
الأفراد والجماعات ؛ والتكافل بين الجميع يتفق مع غاية الكون الواحد ، وغاية خالقه  
الواحد سبحانه .

فإذا نحن وصلنا إلى الإنسان الجنس ، والإنسان الفرد ، فهو وحدة متكاملة ، وقواه  
المختلفة الظاهر موحدة الاتجاه في الحقيقة ، شأنه في ذلك شأن الكون كله ذي القوة  
الواحدة المتعددة المظاهر .

ولقد ظلت الإنسانية أدهاراً طويلة لا تهتدى إلى فكرة شاملة عن القوى الكونية  
والإنسانية . ظلت تفرق بين القوى الروحية والقوى المادية ، تنكر إحداها لتثبت  
الأخرى ، أو تعترف بوجودها في حالة تعارض وخصام ؛ وتصوغ تعاليمها على أساس  
أن هناك تعارضاً أساسياً بين هذه القوى وتلك ؛ وأن رجحان إحداها مرهون بخفة  
الأخرى ؛ وأنه لا مفر من رجحان كفة وخفة كفة ، لأن التعارض في نظرها أسامى في  
فطرة الكون والناس .

والمسيحية – كما صاغت الكنيسة والجامع المقدسة – من أظهر الأمثال على فكرة  
هذا التعارض في الإنسان ؛ وهي متفقة إلى حد ما في هذه الفكرة مع الهندوكية ، ثم مع  
البوذية – على اختلاف بينهما فيها – فخلاص الروح مرهون بكبت الجسد أو بتعذيبه ،  
أو بإفناؤه ، أو على الأقل بإهماله والكف عن لذائذه .

وهذا الأصل الكبير في المسيحية المحرفة ، وفي الديانات التي تشبهها ، تترتب عليه

---

(١) سورة الحجرات [٩] . (٢) سورة البقرة [٢٥١] .



نقريعات كثيرة فى النظر إلى الحياة ومتاعها ، وإلى سلوك الفرد وسلوك الجماعة حيالها ، وفى النظر إلى الإنسان وما يضطرب فى كيانه من قوى وطاقات .

وقد ظلت المعركة قائمة بين هذه القوى وتلك ؛ وظل الإنسان ممزقا فى هذه المعركة ، حيران لا يهتدى إلى قرار . . حتى جاء الإسلام ، فإذا هو يعرض صورة كاملة متناسقة ، لا عوج فيها ولا اضطراب ، ولا تعارض فيها ولا خصام . جاء ليوحد القوى والطاقات جميعاً ، ويمزج الأشواق والنزعات والميول ، وينسق بين اتجاهاتها جميعاً ، ويعترف بها وحدة متكاملة فى الكون والحياة والإنسان . جاء ليجمع بين الأرض والسماء فى نظام الكون ؛ والدنيا والآخرة فى نظام الدين ؛ والروح والجسد فى نظام الإنسان ؛ والعبادة والعمل فى نظام الحياة . . ويسلكها جميعاً فى طريق موحد . هو الطريق إلى الله ! ويخضعها كلها لسلطان واحد : هو سلطان الله !

فالكون وحدة ، مركبة من الظاهر المعلوم والمغيب المجهول ، والحياة وحدة مركبة من طاقات مادية وطاقات روحية لا تنفصل أبداً إلا وقع الاختلال بينها والاضطراب ، والإنسان وحدة مركبة من الأشواق المتطلعة إلى السماء والنزعات اللاصقة بالأرض ؛ ولا انفصام بين هذه وتلك فى طبيعة الإنسان ، لأنه لا انفصام بين السماء والأرض أو بين المعلوم والمجهول فى طبيعة الكون ، ولا عزلة بين الدنيا والآخرة أو السلوك والعبادة أو العقيدة والشريعة ، فى طبيعة هذا الدين .

ومن وراء هذا جميعه قوة الأزل والأبد . تلك التى لا أول لها يعرف ، ولا آخر لها يوصف ، تسيطر فى النهاية على الكون والحياة والناس . . إنها قوة الله . .

والفرد الفانى يملك أن يتصل بهذه القوة الأزلية الأبدية ، وهى توجهه فى الحياة وهو يستمدّها فى الشدائد . يملك أن يتصل بها وهو فى الحراب يصلى ويتطلع إلى السماء كما يملك أن يتصل بها وهو فى الأرض يعمل مشغولاً بمعاشه ومحياه .

والفرد يملك أن يعمل للآخرة ، وهو يصوم فيمنع عن الجسد كل لذائذه ؛ وهو يفطر فيستمتع بكل طيبات الحياة . ما دام يعمل هذا أو ذلك متوجهاً بقلبه إلى الله .

والحياة الدنيا بما فيها من صلاة وعمل ، وبما فيها من متاع وحرمان ، هي وحدها الطريق إلى الآخرة بما فيها من جنة ونار ، ومن عقاب ورضوان .

إنها الوحدة بين أجزاء الكون وقواه ، والوحدة بين كل طاقات الحياة ؛ والوحدة بين الإنسان ونفسه ، وبين واقعه ورؤاه !

إنها الوحدة التي تعقد السلام للدائم بين الكون والحياة ، وبين الحياة والأحياء ، وبين الجماعة والفرد ، وبين أشواق الفرد ونزعاته . وفي النهاية بين الدنيا والدين ، وبين الأرض والسماء .

وهي لا تعقد هذا السلام على حساب الجسد ولا على حساب الروح ، بل تطلق لكل منهما نشاطه ، لتوحد هذا النشاط ، وتتجه به إلى الخير والصلاح والنماء .

ولا تعقده على حساب الفرد أو على حساب الجماعة ، أو لحساب طائفة على طائفة ، أو لحساب جيل على جيل ، فلكل حقوقه ولكل واجباته ، على سنة العدل والمساواة .

والفرد والجماعة والطائفة والأمة والجيل والأجيال كلها يحكمها قانون واحد ، ذو هدف واحد : أن ينطلق نشاط الفرد وأن ينطلق نشاط الجماعة - غير متعارضين - وأن يعمل الجيل وتعمل الأجيال لبناء الحياة وإتمامها ، والتوجه بها إلى خالق الحياة .

\*\*\*

الإسلام دين الوحدة بين القوى الكونية جميعاً ، فلا جرم هو دين التوحيد : توحيد الإله ، وتوحيد الأديان جميعاً في دين الله ، وتوحيد الرسل في التبشير لهذا الدين الواحد منذ

فجر الحياة <sup>(١)</sup> : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ <sup>(٢)</sup> » .

والإسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والشريعة ، والروحيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية ، والدنيا والآخرة ، والأرض والسماء !  
وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وفرائضه ، وتوجيهاته وحدوده ، وقواعده  
في سياسة الحكم وسياسة المال ، وفي توزيع المغام والمغرم ، وفي الحقوق والواجبات .  
وفي ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات .

وحين ندرك هذا الشمول في طبيعة النظرة الإسلامية للألوهية والكون والحياة  
والإنسان ، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية في الإسلام .

فهى قبل كل شيء عدالة إنسانية شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ومقوماتها ،  
وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة . وهى إذن تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب  
النشاط فيها ، كما تتناول الشعور والسلوك ، والضمائر والوجدانات . والقيم التى تتناولها  
هذه العدالة ليست القيم الاقتصادية وحدها ، وليست القيم المادية على وجه العموم .  
إنما هى هذه ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية جميعاً .

وحيثما ننظر المسيحية المحرفة للإنسان من خلال أشواقه الروحية وحدها ، وتحاول  
أن تكبت نزعاته لتطلق أشواقه . وحيثما ننظر الشيوعية إلى الإنسان من خلال حاجاته  
المادية وحدها ؛ وتنظر إلى الإنسانية ، بل إلى الكون كله ، من خلال المادة بمفردها ..  
ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه وحدة لا تنفصل أشواقه الروحية من نزعاته الحسية ،  
ولا تنفك حاجاته المعنوية عن حاجاته المادية ؛ وينظر إلى الكون والحياة هذه النظرة  
الشاملة التى لا تعدد فيها ولا انفصام .. وهذا هو مفرق الطريق بين الشيوعية والمسيحية

(١) يراجع فصل القصة فى القرآن من كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » للمؤلف .

(٢) سورة الأنبياء [٩٢] .



والإسلام ! مفرق الطريق الناشئ من أن الإسلام من صنعة الله الخالصة ، والمسيحية دخل فيها من تحريفات البشر ، والشيوعية من أوهام الإنسان الخالصة !

ثم إن الحياة في نظر الإسلام تراحم وتواد وتعاون وتكافل محدد الأسس مقرر النظم ، بين المسلمين على وجه خاص ، وبين جميع أفراد الإنسانية على وجه عام . وهي كذلك في نظر المسيحية ، ولكنها لا تقوم على تشريع واضح مرسوم ولا على واقع محدد معلوم . بينما هي في نظر الشيوعية تنازع وصراع بين الطبقات ، ينتهى إلى انتصار طبقة على طبقة ، فيتم الحلم الشيوعى الكبير ! ومن هنا يبدو أن المسيحية رؤيا فى عالم المثال المجرد يلوح بها للبشر فى ملكوت السماء ؛ وأن الإسلام هو حلم الإنسانية الخالد ، مجسما فى حقيقة تعيش على الأرض ؛ وأن الشيوعية هى حقد البشرية العارض فى جيل من أجيال الناس !

\*\*\*

على هذين الخطين الكبيرين : الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة ، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات ، يسير الإسلام فى تحقيق العدالة الاجتماعية ، مراعىً العناصر الأساسية فى فطرة الإنسانية ، غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية .

يقول القرآن الكريم عن الإنسان : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ <sup>(١)</sup> » . . . حب الخير لذاته ولما يتصل بذاته . ويقول فى وصف الإنسان بالبخل فطرة وطبعاً : « وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ <sup>(٢)</sup> » . . . فهو حاضر فيها أبداً . ووردت فيه صورة فنية معجبة لهذه الفطرة البشرية العجيبة : « قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ، إِذَا لَا مُسْكِنٌ لَكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً <sup>(٣)</sup> » . . . على حين يقرر أن رحمة الله وسعت كل

---

(١) سورة العاديات [٨] (٢) سورة النساء [١٢٨] . (٣) سورة الإسراء [١٠٠] .

شيء . فيبرز بهذه السعة وبذلك الإمساك مدى الشح في فطرة الإنسان ، لو ترك بلا تهذيب أو توجيه !

وعند ما يضع الإسلام نظمه وتشريعاته ، وعظاته وتوجيهاته ، لا يفغل ذلك الحب الفطري للذات ، ولا ينسى ذلك الشح الفطري العميق ؛ ولكنه يعالج الأثرة ، ويعالج الشح ، بالتوجيه وبالتشريع ، فلا يكلف الإنسان إلا وسعه ، ولا يفغل في الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها وغايات الحياة العليا في الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال .

وإذا كان من الظلم الاجتماعى الذى يتنافى مع العدالة أن تطفى مطامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فإنه من الظلم كذلك أن تطفى الجماعة على فطرة الفرد وطاقته . إنه من الظلم لا لهذا الفرد وحده ، بل للجماعة ذاتها . فتحطيم نشاط الفرد بتحطيم ميوله ونوازعه لا يقف أثره السيئ عند حرمان هذا الفرد ما هو حق له ، بل يتجاوز به إلى حرمان الجماعة أن تنتفع بكامل طاقته . ومتى كفل النظام للجماعة سقما في جهد الفرد وطاقته ؛ ووضع حرية الفرد ونوازعه وأطامعه الحدود الكابحة ؛ فلا ينبغي أن يفغل حق الفرد في انطلاق نشاطه ، فى الحدود التى لا تضار بها الجماعة ، ولا يضار بها هذا الفرد ذاته ؛ ولا تصطدم بأهداف الحياة العليا . فالحياة تعاون وتكافل فى نظر الإسلام ، لا حرب وتنازع وخصام ! كما أنها إطلاق للطاقات الفردية والعامية ؛ وليست كبتاً وحرماناً وسجناً . وكل ما ليس حراماً فهو مباح ؛ والمرء يثاب على كل نشاط حيوى فى حدود منهج الله وشرعه يراعى فيه وجه الله وحده ، ويحقق به الغايات العليا للحياة كما ارتضاها الله .

وانفساح المجال فى نظرة الإسلام إلى الحياة ، وتجاوزه القيم الاقتصادية البحتة إلى سائر القيم التى تقوم الحياة عليها . . يجعله أقدر على إيجاد توازن وتعادل فى المجتمع .

وعلى تحقيق العدالة في الدائرة الإنسانية كلها ؛ ويعفيه من التفسير الضيق للعدالة كما تفهمها الشيوعية . فالعدالة في نظر الشيوعية مساواة في الأجور تمنع التفاوت الاقتصادي - وإن كانت حين اصطدمت بالتطبيق العملي لم تستطع تنفيذ هذه المساواة الآلية التحكيمية - والعدالة في نظر الإسلام مساواة إنسانية ينظر فيها إلى تعادل جميع القيم ، بما فيها القيمة الاقتصادية البحتة . وهي على وجه الدقة تكافؤ في الفرص ، وترك المواهب بعد ذلك تعمل في الحدود التي لا تتعارض مع الأهداف العليا للحياة .

ولأن القيم في نظر الإسلام كثيرة متمازجة كانت العدالة في مجموعها أيسر ؛ لذلك لم يضطر إلى تحميم المساواة الاقتصادية بمعناها الحرفي الضيق ، الذي يصطدم بالفطرة ، ويتعارض مع طبيعة المواهب المتفاوتة ، ويموت الاستعدادات الفائقة ، ويسوى بينها وبين الاستعدادات الضعيفة ، ويمنع أصحاب المواهب من إنفاق مواهبهم لخير أنفسهم ، ولخير الأمة ، فيحرم الأمة ، ويحرم الإنسانية نتائج هذه المواهب .

إنه لا جدوى من المغالطة في أن استعدادات الأفراد الطبيعية ليست متساوية ؛ فنحن إذا غالطنا في المواهب الكامنة - ولا سبيل للمغالطة فيها عند ما تجري الحياة العملية مجراها - فإننا لا نستطيع أن نغالط في أن بعض الأفراد يولد باستعدادات فطرية للصحة والاكتمال والاحتمال ، وبعضهم يولد باستعدادات جسدية للمرض والنقص والضعف ، ولا سبيل إلى تسوية جميع الاستعدادات والمواهب ما دامت الآلة لم تستطع بعد صنع الأحياء ، لتصبهم في قالب واحد ، على نظام الأجهزة والآلات !

إن إنكار الاستعدادات الجسدية والفكرية والروحية الفائقة هو ضرب من العبث لا يستحق المناقشة . فلا بد أن نحسب حسابها ؛ وأن نمنحها الفرصة لتؤتي أقصى ما تستطيع من ثمراتها . ثم نحاول بعد ذلك أن نأخذ من هذه الثمرات ما نراه لازماً لمصلحة المجتمع ،



لا أن تقطع الطريق على هذه الاستعدادات فنظلمها بتسويتها بالاستعدادات الضعيفة ، ونغلقها عن العمل ، ونبددها على الأمة والإنسانية تبديداً .

ولقد قرر الإسلام مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العدل بين الجميع ؛ ثم ترك الباب مفتوحاً للتفاضل بالجهد والعمل ؛ ثم جعل القيم الأصيلة في المجتمع المسلم قima أخرى غير القيم الاقتصادية : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ »<sup>(١)</sup> .. « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »<sup>(٢)</sup> .. « أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً »<sup>(٣)</sup> .

وهكذا يبدو أن هناك قima أخرى غير القيم الاقتصادية البحتة ، يحسب الإسلام حسابها ؛ ويجعلها هي القيم الحقيقية ، ويجعل منها وسيلة للتعاقل في المجتمع حين تتفاوت الأرزاق المالية بين الناس ، بأسباب التفاوت المعقولة القائمة على الجهد والموهبة ، لا على الوسائل المنكرة التي يحرمها الإسلام تحريماً ( كما سيأتى في فصل سياسة المال ) .

لا يفرض الإسلام إذن المساواة الحرفية في المال ، لأن تحصيل المال تابع لاستعدادات ليست متساوية . فالعدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضها ، مع تحقق العدالة الإنسانية : بإتاحة الفرص المتساوية للجميع ؛ فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ، ولا أصل ولا جنس ، ولا قيد واحد من القيود التي تغل الجهود . وبإدخال القيم الأصيلة الأخرى في الحساب . وبتحرير الوجدان البشرى تحريراً كاملاً من ضغط القيم الاقتصادية البحتة ؛ ووضع هذه القيم في مكانها الحقيقي المعقول ؛ وعدم إعطائها قيمة معنوية ضخمة كالتى تعطىها في المجتمعات البشرية التى تفقد الإحساس بالقيم الإيمانية ، أو تصغر من أهميتها ، وتجعل للمال وحده القيمة الأساسية الكبرى .

وإن الإسلام ليرفض أن يجعل للمال كل هذه القيمة ؛ ويأنف أن تستحيل الحياة لقمة

---

(١) سورة الحجرات [١٣] . (٢) سورة المجادلة [١١] . (٣) سورة الكهف [٤٦] .

خبز ، وشهوة جسد ، ودراهم معدودات . . . ولكنه فى الوقت ذاته يحتم الكفاية لكل فرد ، وأحيانا ما فوق الكفاية، ويفضل أن تكون هذه الكفاية عن طريق الملكية الفردية، أو العمل المنتج بأنواعه ، ليرفع عنه ضغط المعوز من ناحية وضغط الجهة التى تملك موارد الرزق من ناحية أخرى .. ويحرم الترف الذى يطلق العنان للمتاع والشهوات ، وينشئ الفوارق فى مستويات الحياة . ويرتب فى الأموال حقوقاً للفقراء بقدر حاجتهم ، ويقدر ما يصلح المجتمع ، ويضمن له أن كافؤ والتعادل والنماء . وبذلك لا يغفل جانباً واحداً من جوانب الحياة المادية والشعورية الدينية والدنيوية .. دون مراعاته؛ لتنصهر هذه الجوانب كلها ، وتستحيل وحدة متماسكة ، يصعب إهمال عنصر من عناصرها المتزجة المتناسقة ؛ ولتنسق وحدتها مع وحدة الكون الكبير ، ووحدة الحياة والإنسان .

## أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام

يقيم الإسلام هذه العدالة الاجتماعية التي كشفنا عن طبيعتها إجمالاً ، على أسس ثابتة ؛ ويحدد لبلوغ أهدافها وسائل معينة ؛ فلا يدعها قضية غامضة ، ولا دعوة مجمة ؛ فهو بطبيعته دين تنفيذ وعمل في واقع الحياة ، لا دين دعوة وإرشاد مجردين في عالم المثال .

وقد رأينا هناك إجمالاً أن للإسلام تصوراً أساسياً عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ؛ وأدركنا أن قاعدة « العدالة الاجتماعية » متأثرة بذلك التصور الأساسي ، داخلته في إطاره العام ؛ وأن طبيعة نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية ، تجعل العدالة الاجتماعية عدالة إنسانية شاملة لكل مقومات الحياة الإنسانية ، ولا تقف عند الماديات والاقتصاديات ، وأن القيم في هذه الحياة مادية معنوية في الوقت ذاته ، لا يمكن الفصل بين صفتيها للتحدين ؛ وأن الإنسانية وحدة متكافئة متناسقة ، لا جماعات متعارضة متنافرة .

وربما بدا في بعض الأحيان أن الواقع يخالف هذه الفكرة الأساسية للإسلام ، فيجب أن نعرف أولاً ما هو هذا الواقع ؟

إن الواقع الذي يعده الإسلام حقيقة ، ليس واقع فرد ، ولا واقع أمة ، ولا واقع جيل .. فهذا إنما هو الواقع الصغير المحدود الموقوت ، الذي تقف عنده مدارك الأفراد البشريين الفانين ، حين يكفون بصيرتهم عن الاستشراف لما هو أكبر وأشمل في حياة البشرية الكبرى وحياة الكون كله . فأما الإسلام فإنه يمد بصره إلى جميع الآفاق ؛ ويحسب حساباً لجميع المصالح ؛ ويهدف إلى تحقيق غاية تشمل الإنسانية كلها منذ البدء إلى النهاية . فما يبدو تعارضاً في الواقع المحدود ، قد لا يبدو كذلك حين نتجاوزه إلى الواقع الشامل . واقع الإنسانية كلها ، لا واقع فرد ولا أمة ولا جيل .



وهذه النظرة الكلية البعيدة الأهداف إلى العدالة الاجتماعية ، هي التي تفسر لنا فيما بعد نظماً عدة في الإسلام ، لاتفهم حق الفهم إذا هي أخذت جزئيات وتفاريق ، وإذا حسب فيها حساب الفرد وحده في جماعة ، أو حساب الجماعة وحدها في أمة ، أو حساب الأمة وحدها في جيل ، أو حساب الجيل وحده في أجيال ... وهي التي تفسر لنا نظام الملكية الفردية ، ونظام الإرث ، ونظام الزكاة ، ونظام الحكم ، ونظام المعاملات ... إلى آخر ما يتضمنه الإسلام من نظم ، تتناول الأفراد والجماعات والأمم والأجيال .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن ذلك كله ، فسنقتصر إذن على تناول الأسس العامة التي أقام عليها الإسلام بناء العدالة الاجتماعية ، في حدود فكرته الكلية . وسنرى من طبيعتها أن الإسلام قد نظر إلى وحدة الروح والجسد في الفرد ، وإلى وحدة المعنويات والماديات في الحياة . كما نظر إلى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة في الأمة الواحدة ، ووحدة الغاية بين الأمم الإنسانية ، ووحدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف المصالح القريبة المحدودة .

هذه الأسس التي أقام عليها الإسلام العدالة الاجتماعية هي :

١ - التحرر الوجداني المطلق .

٢ - المساواة الإنسانية الكاملة .

٣ - التكافل الاجتماعي الوثيق .

فلنفرد لكل أصل من هذه الأصول كلمة تكشف عن طبيعته وغايته .

## التحرر الوجداني

لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ، ما لم تستند إلى شعور  
نفسى باطن باستحقاق الفرد لها ، وبم حاجة الجماعة إليها ؛ وبعقيدة في أنها تؤدي إلى طاعة الله  
وإلى واقع إنسانى أسمى . وما لم تستند كذلك إلى واقع مادى يهيئ للفرد أن يتمسك بها ،  
ويحتمل تكاليفها ويدافع عنها . ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ،  
وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور . ولن تحافظ الجماعة على التشريع إن وجد ، إلا  
وهناك عقيدة تؤيده من الداخل ، وإمكانات عملية تؤيده من الخارج .. وهذا ما نظر إليه  
الإسلام في توجيهاته وتشريعاته جميعاً .

وتذهب المسيحية - كما صورتها الكنيسة والجامع المقدسة - والبوذية كذلك ، إلى أن التحرر  
الوجداني من لذائذ الحياة وشهواتها ، والتوجه إلى ملكوت الرب فى السماء ، واحتقار  
الحياة الدنيا ، كفيل بأن يضمن للإنسان حريته ، وللضمير سعادته . وهذا حق . ولكنه  
ليس الحق كله . فدوافع الحياة لا تقهر فى جميع الأحوال ، وضروريات الحياة الواقعة  
لا تغلب أبداً الدهر ، ولا بد أن يخضع الإنسان لضغطها فى أكثر الأحيان .

على أن قهر دوافع الحياة وكتبها ليس خيراً دائماً ، فالله خالق الحياة لم يخلقها عبثاً ،  
ولم يخلقها ليعطلها البشر ويقفوا نموها . وإنه لمن الخير أن يسمو الإنسان على ضروراته ،  
وأن يرتفع على شهواته ؛ ولكنه ليس من الخير أن يعطل الحياة ذاتها بذلك السمو  
وهذا الارتفاع .

فإذا كان هناك طريق لأن تنطلق القوى المكنونة فى كيان البشرية ؛ وأن يرتفع  
الإنسان على الخضوع المذل لضروراته ، فذلك هو الطريق الأقوم والأسلم . وهذا ماهدف

إليه الإسلام وهو يوحد ضرورات الجسد وأشواق الروح في نظام ، ويكفل التحرر الوجداني بالشعور الباطن والإمكان الواقع ، ولا يغفل عن هذا أو ذاك .

وتذهب الشيوعية إلى أن التحرر الاقتصادي وحده كفيل بالتحرر الوجداني ؛ وأن الضغط الاقتصادي على الفرد هو الذي يجعله يتخلى عما تكفل له القوانين النظرية أحياناً من عدالة ومساواة . . وهذا حق . ولكنه ليس الحق كله . فالتحرر الاقتصادي ذاته لا يكفل له البقاء في المجتمع إلا بالتحرر الوجداني من داخل الضمير . فهو عرضة لضغط آخر : ضغط الضرورات والاستعدادات والميول ، التي لا تكفي التشريعات وحدها لمقاومتها . والفرد الذي تقعد به استعداداته الطبيعية عن مجاراة الآخرين في الإنتاج ، وعن مجاراتهم في التطلع والطموح . . هذا الفرد لابد أن يفقد حرصه على المساواة ، التي قد يكفلها له القانون ، لإحساسه الباطن بأنه أقل من سواه ، ولو تبجح فترة وكابر . والفرد ذو الاستعدادات الفائقة والنتاج الموفور ، لابد أن يغالب قانون المساواة المطلقة ونظام الملكية العامة الشامل ، فإن لم يستطع حقد عليهما وحنق ؛ فإما أن يتمرد ، وإما أن يخبو ذكاؤه ، وتنكش استعداداته ، ويقل نتاجه .

فأما حين تستند المساواة إلى تحرر وجداني عميق ، كما تستند إلى التشريع والتنفيذ ، فإن الشعور بها يكون أقوى عند القوى وعند الضعيف . إنها تستحيل في الضعيف تسامياً ، وفي القوى تواضعاً ؛ وتلتقي في النفس بالعقيدة في الله ، وفي وحدة الأمة وتكافلها . . وهذا ماهدف إليه الإسلام حين حرر الوجدان البشري تحريراً مطلقاً كاملاً ؛ بعد ما كفل في الوقت ذاته حاجات الجسد ، وضرورات الحياة ، بحكم الأوضاع ، وبحكم القانون ، وبحكم الضمير سواء .

\*\*\*

لقد بدأ الإسلام بتحرير الوجدان البشري من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع



لأحد غير الله . فما لأحد عليه غير الله من سلطان ؛ وما من أحد يميته أو يحييه إلا الله ؛ وما من أحد يملك له ضرراً ولا نفعاً ؛ وما من أحد يرزقه من شئ في الأرض ولا في السماء ؛ وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع ؛ والله وحده هو الذي يستطيع ، والكل سواه عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً .

« قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (١)

وإذا توحد الله توحدت عبادته ، واتجه الجميع إليه فلا عبادة لسواه ، ولا حاكية لغيره ، كي لا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يكون لأحد منهم فضل على أحد إلا بعمله وتقواه :

« قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » (٢) .

ويحرص الإسلام على هذا المعنى حرصاً شديداً ؛ فيتكلى عليه القرآن في مناسبات شتى . ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه إليهم الناس بشئ من العبادة ، أو مافي معناها على وجه من الوجوه ، فقد غنى الإسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريراً كاملاً .

يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ » (٣) .

ويخاطب هذا النبي في صراحة قوية : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » (٤) كما يخاطبه في موضع آخر بما يشبه التهديد : « وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ »

(١) سورة الإخلاص . (٢) سورة آل عمران [٦٤] . (٣) سورة آل عمران [١٤٤] .

(٤) سورة آل عمران [١٢٨] .

إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَنْ لَأَذُقَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا » (١) .

ويأمره أن يجهر بحقيقة موقفه جهراً : « قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ : إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » (٢) .

ويتحدث عن أهلوا عيسى ابن مريم ، فيصمهم بالكفر والسخف : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ؟ ! » (٣) .  
ويقول عن المسيح في موضع آخر : « إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » (٤) .

ويعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة يستجوب فيه عيسى ابن مريم عما زعمه بعض الناس عنه من ألوهية ؛ ويثبت براءة عيسى من هذا الزعم الذي لا يدل له فيه ، في أسلوب قوى أخاذ : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ؛ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ؛ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٥) .

(١) سورة الإسراء [٧٤، ٧٥]

(٢) سورة الجن [٢٠-٢٢]

(٣) سورة المائدة [١٧]

(٤) سورة الزخرف [٥٩]

(٥) سورة المائدة [١١٦ - ١١٨]

كما يعرض صورة من تأليه العباد للعباد لا تتمثل في اعتقادهم بألوهيتهم ، ولكن تتمثل في تلقى الشرائع منهم ، وجعلهم بذلك أربابا ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهم شعائر العبادة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » (١) .

وهكذا . وهكذا . يستمر القرآن في تأكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها ، ليصل إلى تحرير الوجدان البشري من كل شبهة شرك في ألوهية أو ربوبية ، قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، إن يكن نبيا أو رسولا ، فإنه عبد من عباده لا إله !

فإذا انتفى أن يكون عبد بذاته أميز عند الله من عبد بذاته ، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعا ؛ فلا كهانة ولا وساطة ، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه ؛ يتصل شخصه الضعيف الفاني بقوة الأزل والأبد ، يستمد منها القوة والعزة والشجاعة ، ويشعر برحمة الله وعنايته وعطفه ، فيشتد إيمانه وتقوى معنويته .

والإسلام حريص كل الحرص على تقوية هذه الصلة ، وإشعار الفرد أنه يملك الاستعانة بتلك القوة الكبرى آناء الليل وأطراف النهار : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ » (٢) . « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (٣) .. « وَلَا تَيَاسُؤُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (٤) .. « قُلْ : يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » (٥) .

وقد شرع الإسلام خمس صلوات ، يقف فيها العبد كل يوم أمام ربه ، ويتصل فيها

(٢) سورة الشورى : [١٩] .

(٤) سورة يوسف : [٨٧] .

(١) سورة التوبة [٣١]

(٣) سورة البقرة : [١٨٦] .

(٥) سورة الزمر : [٥٣] .



المخلوق بخالقه ، فى أوقات منظمة ، غير ما يعن له هو أن يقف أمام إلهه ، أو يتصل به فى توجهه ودعائه .

وليس الغرض من الصلاة أو الدعاء ألفاظاً وحركات، بل القصد هو التوجه الكامل بالقلب والفكر والجسد فى وقت واحد إلى الله ، تمثيلاً مع تصور الإسلام الكلى عن وحدة الإنسان فى تكوينه ، ووحدة الخالق فى ألوهيته : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » (١) ..

\*\*\*

فإذا تحرر الوجدان من شعور العبادة والخضوع لعبد من عباد الله، وامتلاً بالشعور بأنه على اتصال كامل بالله، لم يتأثر بشعور الخوف على الحياة أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة ... وهو شعور خبيث يفض من إحساس الفرد بنفسه؛ وقد يدعوه إلى قبول الذل ، وإلى التنازل عن كثير من كرامته ، وكثير من حقوقه . ولكن الإسلام لشدة حرصه على أن يحقق للناس العزة والكرامة، وأن ييث فى نفوسهم الاعتزاز بالحق، والمحافظة على العدل ؛ وأن يضمن بذلك كله - علاوة على التشريع - عدالة اجتماعية مطلقة، لا يفرط فيها إنسان .. لهذا كله يعنى عناية خاصة بأن يقاوم الشعور بالخوف على الحياة وعلى الرزق وعلى المكانة، فالحياة بيد الله، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة ، كذلك ليس له أن يחדشها خدشاً خفيفاً بضرر خفيف :

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، كِتَابًا مُّوَجَّلًا » (٢) .. « قُلْ: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا » (٣) .. « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٤) .

(٢) سورة آل عمران : [١٤٥] .

(٤) سورة يونس : [٤٩] .

(١) سورة الماعون : [٥-٤] .

(٣) سورة التوبة [٥١] .

وإذن فلا كان الجبن والجبناء ، والحياة والأجل ، والنفع والضرر بيد الله دون سواه :  
« قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » <sup>(١)</sup> ..  
« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » <sup>(٢)</sup> .. « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ  
يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » <sup>(٣)</sup> .. « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟  
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » <sup>(٤)</sup> .. « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ بَخَالٍ غَيْرُ  
اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ؟ » <sup>(٥)</sup> .. « وَلَا  
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » <sup>(٦)</sup> .. « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً  
فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » <sup>(٧)</sup> .

ويقرر القرآن أن خوف الفقر إنما هو من إيجاء الشيطان ، ليضعف النفس ، ويصدها  
عن الثقة في الله ، وعن الثقة في الخير : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ  
وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » <sup>(٨)</sup> .

وإذن فلا يجوز أن يذل الاسترزاق رقاب الناس، فإنما رزقهم بيد الله؛ ويبيد الله وحده؛  
ولن يملك أحد من عباده الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، ولا أن يضيق عليه في الرزق شيئاً.  
وهذا لا ينفي الأسباب والعمل ، ولكنه يقوى القلب ويشجع الضمير ، ويجعل الفقير  
المسترزق يواجه من يظن أن بيده رزقه بكل قوة وبكل شجاعة ، فلا يقعه شعور الخوف  
عن المطالبة بحقه ، وعن الاعتزاز بنفسه ، ويدعوه إلى ترك بعض أجره أو بعض دينه أو

- 
- |                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة الأنعام : [١٤] .  | (٢) سورة الرعد : [٢٦] .    |
| (٣) سورة العنكبوت : [٦٠] . | (٤) سورة يونس : [٣١] .     |
| (٥) سورة فاطر : [٣] .      | (٦) سورة الأنعام : [١٥١] . |
| (٧) سورة التوبة : [٢٨] .   | (٨) سورة البقرة : [٢٦٨] .  |

بعض عزته احتفاظاً برزقه. وعلى هذا النحو يجب أن نفهم توجيه القرآن واتجاه الإسلام ، فهذا هو الفهم الحق الذى يتمشى مع منهجه العام فى التوجيه والتشريع .

والخوف على المركز والمكانة قد يكون عدلاً للخوف من الموت والأذى ، والخوف من الفقر والعيلة . والإسلام يحرص على أن يتحرر الفرد من هذا الخوف أيضاً، فلن يملك مخلوق لمخلوق فى هذا الأمر شيئاً :

« قُلِ : اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » <sup>(١)</sup> .. « قُلِ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلِ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » <sup>(٢)</sup> .. « إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَنْزِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ؟ » <sup>(٣)</sup> .. « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً » <sup>(٤)</sup> .. « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » <sup>(٥)</sup> ..

وإذن فلا خوف من هذه الناحية أيضاً ، فإن القدرة لله وحده ، وإن العزة لله جميعاً : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » <sup>(٦)</sup> ..

\*\*\*

ولكن النفس البشرية قد تتحرر من عبودية القداسة، ومن عبودية الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة؛ ثم تتأثر بعبودية القيم الاجتماعية . قيم المال والجاه والحسب والنسب، ولو لم ينلها منها نفع ولا ضرر. فإذا استشعر الوجدان عبودية معنوية لأية قيمة من هذه القيم، فلن يملك حريته كاملة إزاءها، ولن يشعر بالمساواة الحقة مع أصحابها . وهنا يتصدى الإسلام لهذه القيم جميعاً ، فيضعها فى موضعها الحقيقى بلا إغفال ولا مغالاة ، ويرد القيم الحقيقية إلى

(٢) سورة المؤمنون : [٨٨-٨٩] .

(٤) سورة فاطر : [١٠] .

(٦) سورة الأنعام : [١٨] .

(١) سورة آل عمران [٢٦] .

(٣) سورة آل عمران [١٦٠] .

(٥) سورة المنافقون : [٨] .

اعتبارات معنوية ذاتية ، كامنة في نفس الفرد ، أو واضحة في عمله . وبذلك يضعف تأثير تلك القيم المادية ، وتضؤل آثارها النفسية ؛ فيكون هذا - بجانب ما يكفله الإسلام من ضمانات معيشية وقانونية - وسيلة لتحرر الوجداني الكامل :

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ »<sup>(١)</sup>.. والكريم عند الله هو الكريم حقاً وصدقاً .  
« وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ . قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ »<sup>(٢)</sup> ..

فليكونوا أكثر أموالاً وأكثر أولاداً ، فما لهذا من قيمة تجعل لهم ميزة أو استعلاء ،  
« إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » . فالإيمان ، وهو قيمة مكنونة في الضمير ، والعمل الصالح وهو قيمة بارزة في الحياة ، هما القيمتان الحقيقيتان اللتان لهما كل الاعتبار .

والإسلام لا يفضّ مع هذا من قيمة المال ولا من قيمة الأبناء : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . . زينة ولكنهما ليسا قيمة من قيمها التي ترفع وتخفض : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً »<sup>(٣)</sup> ..

ويضرب القرآن للقيم المادية والقيم المعنوية مثلاً في نفسى رجلين ، لا يدع مجالاً للشك في إشار إحداهما على الأخرى ، في الوقت الذي يرسم صورة واضحة قوية للنفس المؤمنة ،  
وحقيقة القيم فيها :

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا

(٢) سورة سبأ : [٣٥ - ٣٧] .

(١) سورة الحجرات : [١٣] .

(٣) سورة الكهف : [٤٦] .



نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا .  
وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ : مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ  
قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ :  
أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ  
رَبِّي ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ  
إِلَّا بِاللَّهِ . إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ،  
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ؛ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا ، فَلَنْ  
تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا - وَهِيَ خَاوِيَةٌ  
عَلَىٰ عُرْوَتِهَا - يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » (١)

وهكذا يبرز اعتزاز المؤمن بإيمانه ، واستهانته بتلك القيم التي اعتز بها صاحبه وهو  
يحاوره . ومما يلفت النظر أن صاحبه هذا المعتز بجنته لم يظهر الشرك بالله ، ولكن القرآن  
عدّه مشركاً ، وجعله يعترف بإشراكه في النهاية . ذلك أنه أشرك قيمة مادية صرفة ، وجعل  
لها هذا الاعتبار في وجدانه . والمؤمن الحق لا يشرك بالله شيئاً .

وفي قصة « قارون » يعرض صورتين نفسييتين بإزاء فتنة المال والثراء : صورة لنفوس  
تزدهيها هذه القيم فتضعف وتتضاءل ، وتحس بالصغر أمام الأغنياء ؛ وصورة لنفوس مؤمنة  
تعزز وتقوى ولا تصغر أو تضعف أبداً : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ،  
وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا  
تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ  
مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) سورة الكهف : [٣٢-٤٣] .

الْمُفْسِدِينَ . قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ  
مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ .  
فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ  
قَارُونُ . إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيَلَكُمْ ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ  
آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ  
لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ؛ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ  
بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ ! كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . لَوْلَا أَنْ  
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا . وَيْ ! كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » (١) .

ويرتب الإسلام على نظرتهم هذه نتائجها ، فينهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعطى  
قيمة لما يتمتع به بعضهم من متاع خلاب ، فإنما هو فتنة واختبار وابتلاء :  
« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ  
فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (٢) .

ويفهم بعضهم أن هذه الآية ونظائرها إنما تدعو إلى ترك الأغنياء يعتنون كما يشاءون ،  
ورضى الفقراء بحرماتهم حقوقهم التي يكفلها الإسلام لهم . وهو فهم خاطيء لا يلتفت إلى  
التصور الإسلامى العام . وهو تفسير المحترفين من « رجال الدين » فى عصور الاستبداد  
لتنويم الشعور العام ، وكفه عن المطالبة بالعدالة الاجتماعية . وعليهم وزرهم ، والإسلام  
من تأويلهم برىء . فإنما جاءت هذه الآية وأمثالها لرد اعتبار القيم الإنسانية ؛ ولإنقاذ  
أنفس الفقراء مما يلحقها من ضعف أو انكسار أمام القيم المادية البحتة من مال ومتاع .

ومما يؤيد اتجاهنا هذا أمر الله - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ألا يقيم وزناً  
لهذه القيم ؛ وألا يرتب اعتبارات الناس عليها :

(٢) سورة طه : [١٣١] .

(١) سورة القصص : [٧٦-٨٢] .

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ، تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا <sup>(١)</sup> » .. « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ <sup>(٢)</sup> » .

وفي هذا المجال تعرض قصة النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الرجل الأعمى الفقير « ابن أم مكتوم » ومع « الوليد ابن المغيرة » سيد قومه . تلك القصة التي عتب الله فيها على نبيه عتبا شديدا :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ؟ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ! كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ <sup>(٣)</sup> » .

لقد كانت لحظة حرص بشري ساورت محمداً - صلى الله عليه وسلم - طمعا في أن يهدي الله الوليد إلى الإسلام ؛ وكان بأمره مشغولا حينما جاءه ابن أم مكتوم يطلب شيئا من القرآن ، ويدعو مرة ومرة ، وهو بأمر الوليد مشغول ؛ فتضايق منه النبي - صلى الله عليه وسلم - وعبس في وجهه ؛ فعاتبه ربه هذا العتاب الشديد ، الذي كاد يبلغ حد التأنيب ؛ تصحيحاً للقيم التي يعتز بها الإسلام ، وتحقيقاً لمهجه الصحيح ، واتجاهه القويم ، في تحرير الوجدان .

\*\*\*

وأخيراً فقد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ؛ ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ؛ ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ؛ ثم تبقى مستدلة لذاتها ، مستدلة لذاتها وشهواتها ، مستدلة لمطامعها وأهوائها ؛ فيأتي لها القيد من داخل حين تنفلت منه

(٢) سورة التوبة : [ ٥٥ ] .

(١) سورة الكهف : [ ٢٨ ] .

(٣) سورة عبس : [ ١ - ١٢ ] .

من خارج ؛ فلا تبلغ التحرر الوجداني الكامل الذي يريده الإسلام لها ، ليحقق لها العدالة الاجتماعية الإنسانية الكبرى .

والإسلام لا يغفل هذا الخطر الكامن على التحرر الوجداني ، فيلقى إليه التفاتة عميقة ، تشهد بعنايته بدخائل النفس البشرية وأغوارها ؛ وتدل على رعايته لكل استعداداتها وملابساتها ؛ ويلم بما تلم به المسيحية وتجعله غاية غاياتها :

« قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ ، وَعَشِيرَتُكُمْ ؛ وَأَمْوَالٌ أُقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ . فَتَرْبُّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »<sup>(١)</sup> .

وهكذا يجمع في آية واحدة جميع اللذائذ والمطامح والרגائب ونقط الضعف في نفس الإنسان ، ليضعها في كفة ، ويضع في الكفة الأخرى حب الله ورسوله ، وحب الجهاد في سبيله ، لتكون التضحية كاملة ، والتخلص من أوهاق الشهوات كاملاً . فالنفس التي تتحرر من هذا كله هي النفس التي يتطلبها الإسلام ، ويدعو إلى تكوينها لتستعلى على المضراوة المذلة ، وتملك قياد أمرها ، وتنزع إلى ما هو أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية الصغيرة .

أو يقول : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ : مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، وَالْأَنْعَامِ ، وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ؛ وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ »<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة التوبة : [٢٤] . (٢) سورة آل عمران : [١٤-١٥] .



وما كان هذا تحذيرا ولا دعوة إلى الزهد وترك طيبات الحياة كما يحلو لبعضهم أن يفسر القرآن، أو كما يحلو لبعضهم أن يتهم الإسلام؛ إنما كان دعوة للتحرر والانطلاق من ضعف الشهوات والغرائز، ثم لا ضرر بعد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكها الإنسان ولا تملكه: «قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ!»<sup>(١)</sup> «وَلَا تَذْسَنْ نَفْسَكَ مِنْ الدُّنْيَا»<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الاتجاه نفسه كانت فريضة الصوم لترتفع النفس على ضرورات الفطرة القوية فترة من الوقت، تقوى بها إرادتها وتستعلى، ويسمو بها الإنسان على ذاته حين يرتفع على ضروراته.

ويسلك القرآن إلى هذه الغاية شتى السبل؛ ومن بينها التحذير الإيحائي من فتنة الأموال والأولاد حين يقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ»<sup>(٣)</sup>.. وبذلك يثير عامل الحذر من الاندفاع وراء الضعف البشري بإزاء الأموال والأولاد. فكثيرا ما يؤتى المرء من ناحية حرصه على ماله أو بنيه، فيقبل مالم يكن ليقبل، ويخضع لما لم يكن ليخضع، ويرتكب مالم يكن ليرتكب. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته فاطمة رضى عنها وهو يقول: «إِنَّكُمْ لَتُبَخِّلُونَ وَتُجَبِّنُونَ وَتُجْهَلُونَ»<sup>(٤)</sup>.

وبعد، فلقد يتحرر المرء من كل ما يغض شعوريا من كرامته، ولكنه يحتاج. يحتاج إلى اللقمة فيذل، فليس أشد من الحاجة إذلالا؛ والبطن الجائعة لا تعرف المعاني العالية. ولقد يضطر للاستجداء فتذهب كرامته كلها ضياعا. هنا يتولى الإسلام الأمر بالتشريع لمنع

---

(١) سورة الأعراف: [٣٢]. (٢) سورة القصص: [٧٧]. (٣) سورة التغابن: [١٥].

(٤) الترمذى.

أسباب الحاجة ؛ وإلزامها حين توجد : فيجعل للفرد حقه في الكفاية مفروضاً على الدولة وعلى القادرين في الأمة ، فرضاً يعاقب عليه في الآخرة ويقاقل عليه في الدنيا ( وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على التكافل الاجتماعي في الإسلام ) . ثم ينهى عن الاستجداء فيصف جماعة من المسلمين الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض ؛ وصف استحسان بأنهم : « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْلَافًا » <sup>(١)</sup> . والنبي صلى الله عليه وسلم يعطى سائلاً درهماً ثم يقول : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحِزْمَةِ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَيَبِيعُهَا ، فَيَكْفِيَ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ » <sup>(٢)</sup> ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » <sup>(٣)</sup> . فيحفظ على الاستغناء بوسائل أخرى غير وسيلة الاستجداء التي يراها الإسلام ضرورة مكروهة . أما أموال الزكاة فهي حق : حق يؤخذ ، لا فضل يعطى : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » <sup>(٤)</sup> . حق تأخذه الدولة فتملكه لأصحابه ، وتنفق منه في مصالح المسلمين بما يدفع حاجة الجسد ، ويحفظ كرامة النفس ، ويصون عزة الوجدان . فإن لم يكف شرعت من الفرائض والوظائف في أموال القادرين والأغنياء بقدر ما يسد حاجة الضعفاء والفقراء ( وسيأتي بيان هذا في فصل سياسة المال ) .

\*\*\*

وكذلك يأخذ الإسلام الأمر من وجوه كلها ، ومن مناحيه جميعاً ، فيكفل التحرر الوجداني تحرراً مطلقاً ، لا يقوم على المعنويات وحدها ، ولا على الاقتصاديات وحدها ، ولكن يقوم عليهما جميعاً . فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقتها ؛ ويستثير في الطبيعة البشرية غاية أشواقها وأعلى طاقتها ؛ ويدفع بها إلى التحرر الوجداني كاملاً صريحاً . فبغير

(١) سورة البقرة : [ ٢٧٣ ] .

(٢) الشيخان واللفظ للبخاري .

(٣) الشيخان .

(٤) سورة الذاريات : [ ١٦ ] .

التحرر الكامل لن تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ؛ ولن تتطلب نصيبتها من العدالة الاجتماعية ؛ ولن تصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها .

وهذا التحرر هو أحد الأسس الركينة لبناء العدالة الاجتماعية في الإسلام . بل هو الركن الأول الذي تقوم عليه الأركان .

### المساواة الإنسانية

إذا استشعر الضمير كل هذا التحرر الوجداني ؛ فخلص من كل ظل للعبودية إلا الله ، وأمن الموت والأذى والفقر والذل إلا بإذن الله ؛ وانفلت من ضغط القيم الاجتماعية والمالية ؛ ونجا من ذل الحاجة والمسألة ؛ وتسامى على شهواته ومطامعه ؛ وتوجه إلى الخالق الواحد الأحد الذي يتوجه له الجميع بلا استثناء ولا استعلاء ؛ ووجد بعد ذلك كله كفايته من ضرورات الحياة مكفولة له بحكم التشريع والنظام . .

إذا استشعر الضمير البشرى هذ كله ووجد من الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد في نفسه هذا الشعور، فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظاً وقد استشعرها في أعماقه معنى ، ووجدها في حياته واقعاً ؛ بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم إطلاقاً . سيطلب حقه في المساواة ؛ وسيجاهد لتقرير هذا الحق ، وسيحتفظ به حين يناله ؛ ولن يقبل منه بديلاً ؛ وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به ، والذيادة عنه ، مهما بذل في ذلك من جهد وتضحية .

ولن يكون الفقير والضعيف وحدهما الحريصين على مبدأ المساواة النابع من الضمير ، المصون بالتشريع ، المكفول بالا كتفاء وحرية النشاط والارتزاق ؛ بل إن الغني والقوى سينزلان عنده بحكم استشعار ضميرهما تلك المعاني ، التي حرص الإسلام على تقريرها وتثبيتها

فيما أسلفنا . . وذلك ما وقع بالفعل في المجتمع الإسلامي قبل أربعة عشر قرناً ؛ مما سيأتي في موضعه في هذا الكتاب .

ولكن الإسلام مع ذلك لم يكتف بالمفاهيم الضمنية المستفادة من التحرر الوجداني، فقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص ، ليكون كل شيء واضحاً مقررأً منطوقاً . وفي الوقت الذي كان بعضهم يدعى ويصدق أنه من نسل الآلهة ، وبعضهم يدعى ويصدق أن الدماء التي تجري في عروقه ليست من نوع دماء العامة ، إنما هو الدم الأزرق الملوكي النبيل ! وفي الوقت الذي كانت بعض الملل والنحل تفرق الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله فهي مقدسة ، وخلق بعضها من قدميه فهي منبوذة ! وفي الوقت الذي كان الجدل يدور حول المرأة : أهى ذات روح أم لا روح فيها ! وفي الوقت الذي كان يباح فيه للسيد أن يقتل عبيده ويعذبهم ، لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة ...

في هذا الوقت جاء الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير ، في المحيا والمات ، في الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، في الدنيا وفي الآخرة ، لا فضل إلا للعمل الصالح ، ولا كرامة إلا للأتقى .

لقد كانت وثبة بالإنسانية لم يعرف التاريخ لها نظيراً ؛ ولا تزال إلى هذه اللحظة قمة لم يرتفع إليها البشر أبداً . بل لقد كانت نشأة أخرى للبشرية يولد فيها « الإنسان » الأسمى ! الأمر الذي تراجعت عنه البشرية ، ولم تبلغ إليه أبداً إلا في ظل هذا المنهج الرباني .

كلا لم ينسل الإله أحداً : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .. « وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ؛ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا : أَنْ دَعَوْا الرَّحْمَانَ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ



عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا <sup>(١)</sup> .

ثم كلا ! ليس هنالك من دم أزرق ، ودم عادي ؛ وما خلق أحد من رأس وخلق آخر من قدم : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ <sup>(٢)</sup> ؟ » . « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ <sup>(٣)</sup> » . « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا . وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ؛ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ <sup>(٤)</sup> » .. « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ؛ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْقَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مِضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمِضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ <sup>(٥)</sup> » .

ويمضي القرآن بكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة ، ليقر في خلد « الإنسان » وحدة أصله ونشأته : الجنس كله من تراب ، والفرد - كل فرد - من ماء مهين ، ويكرر النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في أحاديثه : أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب <sup>(٦)</sup> . كما يزيد استقرارا في المشاعر والأخلاق .

فإذا انتفى أن يكون فرد أفضل بطبيعته من فرد ؛ فليس هنالك من جنس وليس هنالك من شعب ، هو بنشأته وعنصره أفضل - كما لا يزال بعض الأجناس إلى هذه اللحظة يتشدد - كلا . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

(٢) سورة المرسلات : [٢٠-٢٣] .

(٤) سورة فاطر : [١١] .

(٦) مسلم وأبو داود .

(١) سورة مريم : [٨٨-٩٥] .

(٣) سورة الطارق : [٥-٧] .

(٥) سورة المؤمنون : [١٢-١٤] .

زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً<sup>(١)</sup> . . . فهي نفس واحدة وزوجها منها ،  
ومنهما انبث الرجال والنساء . فهم من أصل واحد ، وهم إخوة في النسب ، وهم متساوون  
في الأصل والنشأة : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ  
لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ<sup>(٢)</sup> » . . . فليست هذه الشعوب والقبائل لتتفاخر  
أو تتناكر ، بل لتتعارف وتتآلف . وكلها عند الله سواء ، لا تتفاضل إلا بالتقوى .  
وتلك مسألة أخرى لا علاقة لها بالأصل والنشأة ، ذلك أن الناس كلهم سواء لا فضل  
لأحد على أحد إلا بالتقوى . . . وأول التقوى الإسلام لله وحده . وإلا فلا تقوى  
ولا صلاح أصلاً .

ولقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية - إلى جانب براءته من عصبية  
النسب والأسرة . فبلغ بذلك مستوى لم تصل إليه « الحضارة » الغربية إلى يومنا هذا .  
الحضارة التي تبيح للضمير الأمريكي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء منظماً تحت سمع الدول  
وبصرها ، كما تبيح له تلك التفرقة النكدة بين البيض والسود ، وتلك الوحشية البشعة .  
والتي تبيح لحكومة جنوب إفريقيا أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين ، وتبيح  
لحكومات روسيا والصين والهند والحبشة ويوغسلافيا وغيرها إفناء المسلمين بالجملة !

\*\*\*

ويتعقب الإسلام مظان التفاوت والتفاضل - إلا بالتقوى والعمل الصالح - في كل  
صورها وملابساتها وأسبابها ، ليقضى عليها جميعاً . فهذا النبي محمد ، ما يفتأ القرآن  
يذكر الناس أنه بشر كسائر البشر ، وما يفتأ محمد ذاته يكرر هذا المعنى ، أن كان نبياً  
محبوباً من قومه مبعولاً ، نخيف أن ينقلب ذلك الحب وهذا التبجيل إلى تأليه أو قدسية

---

(١) سورة النساء : [١] .

(٢) سورة الحجرات : [١٣] .

لا تكون إلا لله . فيها هو ذا يقول لقومه : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ،  
فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله <sup>(١)</sup> » ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا له تبجيلاً  
« من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار <sup>(٢)</sup> » .

ولما كان أهل محمد مظنة أن يقدسوا نبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنه لا يملك لهم  
من الله شيئاً : « يا معشر قريش لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغنى  
عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول  
الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . . . <sup>(٣)</sup> » .

وحين أصابت محمداً الإنسان لحظة حرص بشري ، فأنصرف عن الرجل الفقير ابن  
أم مكتوم إلى الوليد بن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذي يشبه التأنيب ،  
ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة .

وحين كان بعض ذوى الثراء والأنساب يأنف أن يزوج أو يتزوج من الفقراء  
والفقيرات جاء أمر الله : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ  
إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ <sup>(٤)</sup> » . .

\*\*\*

فأما بين الجنسين فقد كفل للمرأة مساواة تامة مع الرجل من حيث الجنس والحقوق  
الإنسانية ؛ ولم يقرر التفاضل إلا في بعض الملابس المتعلقة بالاستعداد أو الدربة أو التبعة ،  
حما لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسين ؛ فحيثما تساوى الاستعداد والدربة والتبعة  
تساويا ، وحيثما اختلف شيء من ذلك كان التفاوت بحسبه .

(٢) أبو داود والترمذي .

(٤) سورة النور [٣٢] .

(١) البخارى .

(٣) متفق عليه .

ففي الناحية الدينية والروحية يتساويان : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا <sup>(١)</sup> » . . . « من عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن ، فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٢)</sup> » . . « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى ؛ بعضُكم من بعض <sup>(٣)</sup> » .

وفي ناحية الأهلية للملك والتصرف الاقتصادي يتساويان : « للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون <sup>(٤)</sup> » . . « للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن <sup>(٥)</sup> » ..

فأما إيثار الرجل بضعف نصيب المرأة في الميراث ، فردّه إلى التبعة التي يضطلع بها الرجل في الحياة ؛ فهو يتزوج امرأة يكلف إعالتها ، وإعالة أبنائهما ، وبناء الأسرة كله هو مكلف به وعليه وحده تبعة الديات والتعويضات . فمن حقه أن يكون له مثل حظ الأنثيين لهذا السبب وحده . بينما هي مكفولة الرزق إن تزوجت ، بما يعولها الرجل ، ومكفولة الرزق إن عنست أو ترملت ، بما ورثت من مال ، أو بكفالة قرابتها من الرجال . فالسألة هنا مسألة تفاوت في التبعة اقتضى تفاوتاً في الإرث .

وأما أن الرجل قوام عليها : « الرجال قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ <sup>(٦)</sup> » فوجه التفضيل هو الاستعداد والدربة والمرانة فيما يختص بالقوام . فالرجل بحكم تخلصه من تكاليف الأمومة يواجه أمور المجتمع فترة أطول ، وتهيأ لها بقواه الفكرية جميعاً ، بينما تحتجز هذه التكاليف المرأة معظم أيامها ؛

(٢) سورة النحل : [٩٧] .

(٤) سورة النساء : [٧] .

(٦) سورة النساء : [٣٤] .

(١) سورة النساء : [١٢٤] .

(٣) سورة آل عمران : [١٩٥] .

(٥) سورة النساء : [٣٢] .



فوق أن تكاليف الأمومة تنمى فى المرأة جانب العواطف والانفعالات ، بقدر ما ينمو فى الرجل جانب التأمل والتفكير ، فإذا جعلت له القوامة على المرأة فبحكم الاستعداد والدربة لهذه الوظيفة ، فوق أنه المكلف بالإففاق ؛ وللناحية المالية صلة قوية بالقوامة ؛ فهو حق مقابل تكليف ، ينتهى فى حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف فى محيط الجنسين ومحيط الحياة .

فأما حين يرد الأمر إلى الدائرة الإنسانية المجردة من ملابسات الوظائف العملية ، فالمرأة من حق الرعاية أكثر مما للرجل . وهو الحق الذى يقابل حق القوامة : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم من ؟ قال : أبوك<sup>(١)</sup> . ولقد يبدو أن هناك تفضيلاً آخر فى مسألة الشهادة : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يَكُنَا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن تَرْضَوْنَ من الشهداء ، أن تَضِلَّ إحداهما فتذكرَ إحداهما الأخرى<sup>(٢)</sup> » . . وفى الآية نفسها بيان العلة . فالمرأة بطبيعة وظائف الأمومة ينمو فى نفسها جانب العواطف والانفعالات بقدر ما ينمو فى الرجل جانب التأمل والتفكير كما أسلفنا . فإذا نسيت أو جرفها انفعال ، كانت الثانية مذكرة لها . فالمسألة هنا مسألة ملابسة عملية فى الحياة ، لا مسألة إثبات جنس لذاته على جنس وعدم مساواة .

وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية ، ومن مساواة فى التملك والكسب ؛ وما حقق لها من ضمانات فى الزواج بإذنها ورضاها ، دون إكراه ولا إهمال : « لا تنكح الثيب حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت »<sup>(٣)</sup> . وفى مهرها : « فأتوهنَّ

---

(١) الشيخان . (٢) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٣) الشيخان .

أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» (١) .. وفي سائر حقوقها الزوجية ، زوجة أو مطلقة : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا » (٢) .. « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (٣) .

ويجب أن نذكر أن الإسلام ضمن للمرأة هذه الحقوق ، ووفر لها كل هذه الضمانات بروح تكريمة خالصة ، ليست مشوبة بضغط الاقتصاديات والماديات . فلقد حارب فكرة أن المرأة عالة يحسن التخلص منها وهي وليدة ؛ فحارب عادة الوأد التي كانت معروفة في حياة بعض القبائل العربية حرباً لا هوادة فيها ؛ وعالج هذه العادة بنفس الروح التكرمية الخالصة التي ينظر بها إلى البشر ، فهي نهى تحريم عن القتل عامة لم يستثن : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ » (٤) .. ونهى بالتخصيص عن قتل الأولاد - وما كان يقتل من الأولاد سوى الإناث : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » (٥) .. وقدم رزق الأولاد في هذه الآية لأهم سبب الخشية من الإملاق ، ليملاً صدور الآباء ثقة برزق الله وكفالتهم للأولاد قبل الآباء ! ثم استجاش وجدان العدل والرحمة وهو يقول عن يوم القيامة : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ : بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ » (٦) .. فجعل هذا موضع سؤال استنكارى بارز ظاهر في ذلك اليوم الرهيب .

فالإسلام إذن حين منح المرأة حقوقها الروحية والمادية كان ينظر إلى صفتها الإنسانية ، ويسير مع نظرتة إلى وحدة الإنسان : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » (٧) .. وكان يريد رفعها إلى حيث يجب أن يكون شطر « النفس » الواحدة .

---

(١) سورة النساء : [٢٤] . (٢) سورة البقرة : [٢٣١] . (٣) سورة النساء : [١٩] .  
(٤) سورة الأنعام : [١٥١] . (٥) سورة الإسراء : [٣١] . (٦) سورة التكاوير : [٨-٩] .  
(٧) سورة الأعراف [١٨٩] .

ويجب إذ نذكر هذا للإسلام ، أن نذكر بجانبه أن الحرية التي منحها الغرب  
المادى للمرأة لم تفض من هذا النبع الكريم ولم تكن دوافعها هي دوافع الإسلام  
البريئة .

ويحسن ألا ننسى التاريخ ؛ وألا نفتن بالقشور الخادعة التي تعاصرنا اليوم . يحسن  
أن نذكر أن الغرب أخرج المرأة من البيت تعمل ، لأن الرجل هناك نكل عن كفالتها  
وإعالتها ، إلا أن يقتضيها الثمن من عفتها وكرامتها !  
عندئذ فقط اضطرت المرأة أن تعمل !

ويحسن أن نذكر أنها حين خرجت للعمل انتهز الغرب المادى حاجتها ؛ واستغل  
فرصة زيادة العرض ليرخص من أجرها ؛ واستغنى أصحاب الأعمال بالمرأة الرخيصة الأجر  
عن العامل الذى بدأ يرفع رأسه ويطلب بأجر كريم !

وحين طالبت المرأة هناك بالمساواة ، كانت تغنى أولا وبالذات المساواة فى الأجور  
لتأكل وتعيش ! فلما لم تستطع هذه المساواة طالبت بحق الانتخاب ليكون لها صوت  
يحسب حسابه ؛ ثم طالبت بدخول البرلمان ليكون لها صوت إيجابى فى تقرير تلك  
المساواة ! لأن القوانين التى تحكم المجتمع يسنها الرجل وحده ؛ وليست - كما هى فى  
الإسلام - من شرع الله ، الذى يعدل بين عباده رجالا ونساء .

ويحسن ألا ننسى أن فرنسا ظلت إلى عهد الجمهورية الرابعة بعد الحرب الأخيرة  
لا تمنح المرأة حق التصرف فى مالها - كما يمنحها الإسلام ذلك - إلا بإذن وليها ، على حين  
منحتها حق الدعارة كاملا بصفة علنية أو سرية ! وهذا الحق الأخير هو الحق الوحيد  
الذى حرمه الإسلام للمرأة ! لأنه حرمه للرجل كذلك ، رعاية لكرامة الإنسان  
وشعوره ، ورفعا لمستوى العلاقات الجنسية أن تكون علاقة أجساد لا تربطها رابطة  
من بيت ولا أسرة .

ويجب حين نرى الغرب المادى يقدم المرأة اليوم فى بعض الأعمال على الرجل ، وبخاصة فى المتاجر والسفارات والقنصليات وفى الأعمال الإخبارية كالصحافة ونحوها . . . يجب ألا نفعل عن المعنى الكريه الخبيث فى هذا التقديم . إنه معنى النخاسة والرقيق فى جو من دخان العنبر والأفيون ! إنه استغلال للنخاسة الجنسية فى نفوس « الزبائن » . فصاحب المتجر ، كالدولة التى تعين النساء فى السفارات والقنصليات ، كشركة السياحة التى تعين مضيفات ، كصاحب الجريدة الذى يدفع بالمرأة إلى التقاط الأحاديث والأخبار ، كل منهم يدرك فىم يستخدم المرأة ؛ ويعرف كيف تحصل المرأة على النجاح فى هذه الميادين ؛ ويعلم ماذا تبذل للحصول على هذا النجاح ! فإن لم تبذل هى شيئاً - وهو فرض بعيد - فهو يدرك أن شهوات جائعة ، وعيوناً خائنة ، ترف حول جسدها وحول حديثها ؛ وهو يستغل ذلك الجوع للكسب للمادى والنجاح الصغير ! لأن المعانى الإنسانية الكريمة منه بعيد بعيد !

فأما الشيوعية فذات دعوى عريضة فى مساواة المرأة بالرجل ، وتحطيم الأغلال التى تقيد المرأة ! والمساواة هى المساواة فى العمل والأجر . ومتى استوى العمل والأجر ، فقد تحررت المرأة وأصبح لها حق الإباحية كما هو حق للرجل ! لأن المسألة فى عرف الشيوعية لا تعدو الاقتصاد . فكل الدوافع البشرية ، وكل المعانى الإنسانية ، كامنة فى هذا العنصر وحده من عناصر الحياة !

والحقيقة فى صميمها هى نكول الرجل عن إعالة المرأة ، واضطرارها أن تعمل مثله وفى دائرته لتعيش ، فالشيوعية - بهذا - هى التكملة الطبيعية لروح الغرب المادية ، الفاقدة للمعانى الروحية فى حياة البشرية .

يجب أن نذكر هذا كله قبل أن يخدع أبصارنا الوهج الزائف . فالإسلام قد منح



المرأة من الحقوق منذ أربعة عشر قرناً ما لم تمنحه إياها « الحضارة » الغربية حتى اليوم .  
وهو قد منحها - عند الحاجة - حق العمل وحق الكسب ؛ ولكنه أبقى لها حق الرعاية  
في الأسرة ، لأن الحياة عنده أكبر من المال والجسد ، وأهدافها أعلى من مجرد الطعام  
والشراب ؛ ولأنه ينظر إلى الحياة من جوانبها المتعددة ، ويرى لأفرادها وظائف مختلفة ،  
ولكنها متكافلة متناسقة . وبهذه النظرة يرى وظيفة الرجل ووظيفة المرأة ؛ فيوجب على  
كل منهما أن يؤدي وظيفته أولاً لتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ؛ ويفرض لكل منهما  
الحقوق الضامنة لتحقيق هذا الهدف الإنساني العام .

\*\*\*

وأخيراً فإن للجنس البشري كله كرامته ، التي لا يجوز أن تستذل : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا  
بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ  
مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا <sup>(١)</sup> » .. كرمناهم بجنسهم ، لا بأشخاصهم ولا بعناصرهم ولا بقبائلهم .  
فالكرامة للجميع على سبيل المساواة المطلقة ، فكلهم لآدم . وإذا كان آدم من تراب ،  
وإذا كان آدم قد كرم ، فأبنائه جميعا سواء في هذا وفي ذاك !

والناس جميعاً - في المجتمع المسلم - كراماتهم التي لا يجوز أن تلمز ، ولا أن يسخر منها  
أحد : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ،  
وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا  
بِالْأَلْقَابِ . بَشَرٌ الْأَسْمُ : الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ <sup>(٢)</sup> » .. والتعبير العميق الجميل : « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » . ذو دلالة عجيبة ،  
فلمزم المؤمن للمؤمن هو لمزمه لنفسه ، لأنهم كلهم من نفس واحدة !

(١) سورة الإسراء : [٧٠] . (٢) سورة الحجرات : [١١] .

وللناس جميعاً في المجتمع المسلم حرمتهم: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ؛ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ <sup>(١)</sup> » .. « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا <sup>(٢)</sup> » .

وقيمة هذا الإجراء هو إشعار كل فرد بأن له حرمة لا يجوز أن ينتهكها عليه الآخرون؛ ولا تقل حرمة أحد عن حرمة أحد؛ فهم فيها سواء، وهم جميعاً مؤمنون، في المجتمع المسلم الذي يقوم على منهج الله وشرعه . فيكفل للناس فيه هذه الكرامة، ويصون منهم هذه الحرمات .

\*\*\*

وهكذا يتتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية، ليؤكد فيها معنى المساواة توكيداً . وما كان في حاجة كما قلنا لأن يتحدث عن المساواة لفظاً وصورة، بعد ما حققها معنى وروحاً، بالتحرر الوجداني الكامل من جميع القيم، وجميع الملابس، وجميع الضرورات، وكفل لها في عالم الواقع كل الضمانات . ولكنه يحرص على المساواة حرصاً شديداً، ويريدها إنسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا بيت ولا مركز؛ كما يريد لها أبعد مدى من دائرة الاقتصاديات وحدها، مما وقفت عنده المذاهب المادية « العلمية » !

### التكافل الاجتماعي

لا تستقيم حياة يذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحريته المطلقة إلى غير حد ولا مدى، يغذيها شعوره بالتحرر الوجداني المطلق من كل ضغط، وبالمساواة المطلقة التي لا يحدها قيد ولا شرط؛ فإن الشعور على هذا النحو كفيلاً بأن يحطم المجتمع كما يحطم الفرد ذاته.

(١) سورة النور: [٢٧-٢٨] . (٢) سورة الحجرات: [١٢] .

فلمجتمع مصلحة عليا لا بد أن تنتهى عندها حرية الأفراد ؛ والفرد ذاته مصلحة خاصة في أن يقف عند حدود معينة في استمتاعه بحريته ؛ لكي لا يذهب مع غرائزه وشهواته ولذائذه إلى الحد المردى ؛ ثم لكي لا تصطدم حريته بحرية الآخرين ، فتقوم المنازعات التي لا تنتهى ، وتستحيل الحرية جعيا ونكالا ؛ ويقف نمو الحياة وكلها عند حدود المصالح الفردية القريبة الآماد . وذلك كالذى حدث في « حرية » النظام الرأسمالى ، وما صاحبه من نظريات الحرية الحيوانية للشهوات !

والإسلام يمنح الحرية الفردية في أجل صورها ، والمساواة الإنسانية في أدق معانيها ، ولكنه لا يتركها فوضى ، فلمجتمع حسابه ، وللإنسانية اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها . لذلك يقرر مبدأ التبعية الفردية ، في مقابل الحرية الفردية ، ويقرر إلى جانبها التبعية الجماعية التي تشمل الفرد والجماعة بتكاليها . وهذا ما ندعوه بالتكافل الاجتماعى .

والإسلام يقرر مبدأ التكافل في كل صورته وأشكاله . فهناك التكافل بين الفرد وذاته ، وبين الفرد وأسرته القريبة ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة أيضا .

هناك تكافل بين الفرد وذاته ، فهو مكلف أن ينهى نفسه عن شهواتها ؛ وأن يزكّيها ويطهرها ؛ وأن يسلك بها طريق الصلاح والنجاة ؛ وألا يُلقى بها إلى التهلكة : « فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ، وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ <sup>(١)</sup> » .. « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا <sup>(٢)</sup> » .

---

(١) سورة النازعات : [٣٧-٤١] . (٢) سورة الشمس : [٧-١٠] .

« وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »<sup>(١)</sup> وهو مكلف في الوقت ذاته أن يتمتع نفسه في الحدود التي لا تفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة فلا ينهكها ويضعفها : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا »<sup>(٢)</sup> .. « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »<sup>(٣)</sup> .

والتبعة الفردية كاملة ، فكل إنسان وعمله ، وكل إنسان وما يكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أو سيئة ، ولن يجزى عنه أحد في الدنيا ولا في الآخرة : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ »<sup>(٤)</sup> .. « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ؛ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى »<sup>(٥)</sup> .. « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ »<sup>(٦)</sup> . « فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ »<sup>(٧)</sup> . « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ »<sup>(٨)</sup> .

وبذلك كله يقف الإنسان من نفسه موقف الرقيب ، يهديها إن ضلت ، ويمنحها حقوقها المشروعة ؛ ومحاسبها إن أخطأت ، ويحتمل تبعه إهماله لها . وبذلك يقيم الإسلام من كل فرد شخصيتين ، تراقبان وتتلاحظان ، وتتكافلان فيما بينهما في الخير والشر ، في مقابل منح هذا الفرد التحرر الوجداني الكامل ، والمساواة الإنسانية التامة . فالحرية والتبعة تتكافآن وتتكافلان .

\*\*\*

- |                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة البقرة : [١٩٥] .  | (٢) سورة القصص : [٧٧] .   |
| (٣) سورة الأعراف : [٣١] .  | (٤) سورة المدثر : [٣٨] .  |
| (٥) سورة النجم : [٤١-٣٦] . | (٦) سورة البقرة : [٢٨٦] . |
| (٧) سورة الزمر : [٤١] .    | (٨) سورة النساء : [١١١] . |

وهناك تكافل بين الفرد وأسرته القريبة : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلَا تَنْهَرُهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَأُخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ : رَبُّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا <sup>(١)</sup> » . « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ <sup>(٢)</sup> » . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ <sup>(٣)</sup> » . « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا ، وَلَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ <sup>(٤)</sup> » .

وقيمة هذا التكافل في محيط الأسرة أنه قوامها الذي يمسكها ؛ والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، ولا مفر من الاعتراف بقيمتها ؛ وهي تقوم على الميول الثابتة في الفطرة الإنسانية ، وعلى عواطف الرحمة والمودة ، ومقتضيات الضرورة والمصلحة ؛ كما أنها العش الذي تنشأ فيه وحوله مجموعة الآداب والأخلاق الخاصة بالجنس ، وهي في صميمها آداب المجتمع الذي ارتفع عن الإباحية الحيوانية والفوضى الهمجية .

ولقد حاولت الشيوعية أن تقضى على الأسرة بحجة أنها تنمى أحاسيس الأثرة الذاتية ، وحب التملك ؛ وتمنع شيوعية الثروة ، وشيوعية ملكية الدولة للأفراد . . . ولكنها فيما يبدو قد فشلت في هذا فشلا تاما ، فالشعب الروسى شعب عائلى ، وللعائلة مكانها في نفسه وفي تاريخه ، فوق أن الأسرة نظام بيولوجى ونفسى لانظام اجتماعى فحسب ، فتخصيص امرأة لرجل أصلح بيولوجيا وأفلح لإنجاب الأطفال . وقد لوحظ أن المرأة التى يتداولها عدة رجال تعقم بعد فترة معينة أو لا يصبح نسلها . أما من الوجهة النفسية فشاعر المودة والرحمة

(٢) سورة لقمان : [١٤] .

(٤) سورة البقرة : [٢٣٣] .

(١) سورة الإسراء : [٢٣-٢٤] .

(٣) سورة الأحزاب : [٦] .



تنمو في جو الأسرة خيراً مما تنمو في أى نظام آخر، وتكوين الشخصية يتم في هذا المحيط خيراً مما يتم في أى نظام آخر . وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة بين أطفال المحاضن، أن الطفل الذى تتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتتفكك ، ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون ؛ كما أن الطفل الذى لا والد له يعانى مركب النقص ، ويهرب من هذا الواقع بتخيل والد لا وجود له ، يتصل به في الخيال ، ويصوره في شتى الصور والأشكال<sup>(١)</sup> .

وليست العوامل البيولوجية والنفسية وحدها ، فهناك مقتضيات الضرورة والمصلحة التى تربط بين رجل وامرأة لتكوين بيت ورعاية أطفال ، ثم العلاقات التى تربط بين أفراد الأسرة الواحدة ، وتجعل منهم وحدة اجتماعية متعاونة في الخير والشر ، متكافلة في الجهد والجزاء، جيلاً بعد جيل .

ومن مظاهر التكافل العائلي في الإسلام ذلك التوارث المادى للثروة المفصل في الآيات التالية : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ . إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ، وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمِثْلِثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمِثْلِثُ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا . فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ . إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ . مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ<sup>(٢)</sup> . »

(١) عن « أطفال بلا أسر » : تأليف أنا فرويد ودرثى برلنجهام وترجمة الأستاذين محمد بدران ورمزى يسى .  
(٢) سورة النساء : [١١-١٢] .

« يَسْتَفْتُونَكَ . قُلْ : اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ : إِنْ أَمْرُوهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِيْهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ؛ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ . يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »<sup>(١)</sup> ..

أما الوصية التي أشير إليها في الآيتين الأوليين فهي لا تتجاوز الثلث بعد وفاء الدين ولا تكون لوارث، لحديث : « لا وصية لوارث<sup>(٢)</sup> » . إنما شرعت لتدارك بعض الحالات التي لا يرث فيها من توجب الصلة العائلية أن يصله المورث ويبره ؛ ولتكون مجالا لإنفاق شيء من التركة في وجوه البر والخير .

هذا النظام الذي شرعه الإسلام مظهر من مظاهر التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبين الأجيال المتتابة - فوق أنه وسيلة من وسائل تفتيت الثروة لئلا تتضخم تضخما يؤذي المجتمع ( وسنتحدث عن هذا في فصل « سياسة المال » ) أما هنا فنكتفي بالقول بأن في نظام الإرث الإسلامي عدلا بين الجهد والجزاء ، وبين المغام والمغارم في جو الأسرة . فالوالد الذي يعمل - وفي شعوره أن ثمرة جهوده لن تقف عند حياته القصيرة المحدودة ، بل ستمتد لينتفع بها أبنائه وحفدته ، وهم امتداده الطبيعي في الحياة - هذا الوالد يبذل أقصى جهده ، وينتج أعظم نتاجه ؛ وفي هذا مصلحة له والدولة وللإنسانية ، كما أن فيه تعادلا بين الجهد الذي يبذله والجزاء الذي يلقاه . فأبنائه جزء منه يشعر فيهم بالامتداد والحياة .

أما الأبناء فعدل أن ينتفعوا بجهود آبائهم وأمهاتهم ، إذ الصلة بين الوالدين والأبناء لا تنقطع لو قطعت صلة الميراث المالي ؛ فالآباء والأمهات يورثونهم صفات واستعدادات

(٢) رواه صاحب مصابيح السنة وقال : إنه حسن .

(١) سورة النساء : [ ١٧٦ ]

في تكوينهم الجثامى ، والعقلى ؛ وهذه الاستعدادات تلازمهم في حياتهم ، وتفرض عليهم كثيراً من أوضاع مستقبلهم - إن خيراً وإن شراً - دون أن تكون لهم يد في رد هذه الوراثة أو تعديلها . ومهما جاهدت الدولة أو جاهد المجتمع فلن يهب طفلاً وجهاً جميلاً إذا ورثه أبواه وجهاً قبيحاً ؛ ولن يمنحه سلامة أعصاب ، واعتدال مزاج ، إذا ورثه اختلالاً واضطراباً ؛ ولن يعطيه عمراً طويلاً وصحة موفورة ، إذا ورثه استعدادات للبلى السريع والمرض الملازم . . . فإذا كان عليه أن يرث هذا كله غير مخير ، فإنه من العدل الاجتماعى أن يرث جهود أبويه المادية أيضاً ، ليكون هناك شيء من التعادل بين المغنم والمغارم !

وقد ضرب القرآن مثلاً للتكافل بين الآباء والأبناء في قصة موسى - عليه السلام - مع عبد الله الصالح الذى قال الله عنه : « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رَحْمَةً من عندنا وعلمناه من لدنّا علماً » .. « فأنطلقا حتّى إذا أتيا أهلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ » . وقد قال له موسى : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » <sup>(١)</sup> . مادام أهل القرية لم يطعموها . فكشف له عن السرّ في تقويمه للجدار فقال : « أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » <sup>(٢)</sup> .

وهكذا انتفع الولدان بصلاح الوالد ، وورثا ما خلقه لهما من مال وصلاح . وهذا عدل وحق لا شك فيه .

فأما حين يخشى من حبس المال في محيط خاص ، فالوسيلة موجودة في يد الإمام

(١) سورة الكهف : [٧٧] . (٢) سورة الكهف : [٨٢] .

المسلم الحاكم بشريعة الله لتعديل الأوضاع ؛ والإسلام يكفل هذا التعديل بوسائله الخاصة كما سيبنىء في فصل « سياسة المال » .

\*\*\*

وهناك تكافل بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعة والفرد ، يوجب على كل منهما تبعات ؛ ويرتب لكل منهما حقوقا . والإسلام يبلغ في هذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين ، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما في النهوض بتبعاته في شتى مناحى الحياة المعنوية والمادية على السواء .

فكل فرد مكلف أولا أن يحسن عمله الخاص . وإحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الخاص ملك للجماعة وعائدة عليها في النهاية : « وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> » .

وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها ، موكل بها . والحياة سفينة في خضم ، والراكبون فيها جميعا مسؤولون عن سلامتها ؛ وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منها باسم الحرية الفردية : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مرثوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » <sup>(٢)</sup> . وهو تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحيدها ، بإزاء التفكير الفردي الذي يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر في آثار الوقائع العملية ؛ ورسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة في مثل هذه الأحوال .

---

(١) سورة التوبة : [ ١٠٥ ] .

(٢) البخارى والترمذى واللفظ للبخارى .

وليس هنالك فرد معنى من رعاية المصالح العامة ، فكل فرد راعٍ ورعية في المجتمع :  
« كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته »<sup>(١)</sup> .

والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة في حدود البرِّ والمعروف : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »<sup>(٢)</sup> .. « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »<sup>(٣)</sup> .

وكل فرد مسؤول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فإن لم يفعل فهو آثم وهو معاقب بإثمه :  
« خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ؛ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ؛ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ »<sup>(٤)</sup> . وعدم الحض على طعام المسكين يعدُّ علامةً من علامات الكفر والتكذيب بالدين :  
« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ »<sup>(٥)</sup> .

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذي يراه : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَهُوَ أضعف الإيمان »<sup>(٦)</sup> . وهكذا يصبح كل فرد مسؤولاً عن كل منكر يقع في الأمة ولو لم يكن شريكاً فيه ، فالأمة وحدة ، والمنكر يؤذيها ، وعلى كل فرد أن يذود عنها ويحميها .

والأمة كلها تؤاخذ وينالها الأذى والعقاب في الدنيا والآخرة إذا سكنت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيتها ، فهي مكلفة أن تكون قواماً على كل فرد فيها : « وَإِذَا أَرَدْنَا

---

(١) الشيطان .  
(٢) سورة المائدة : [٢] .  
(٣) سورة آل عمران : [١٠٤] .  
(٤) سورة الحاقة : [٣٠-٣٧] .  
(٥) سورة الماعون : [١-٣] .  
(٦) مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .



أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاَهَا تَذْمِيرًا»<sup>(١)</sup>  
ولو كان فيها الكثيرون لم يفسقوا ، ولكن سكوتهم على الفسق جعلهم مستحقين للتدمير  
« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »<sup>(٢)</sup> .. وما في هذا ظلم ، فالأمة التي تشيع  
فيها الفاحشة ، ويجهر فيها بالمنكر فلا تغيره ، أمة منحلة متهافئة ، صائرة إلى الزوال ؛  
والدمار الذي يصيبها أمر طبيعي ، ونتيجة لازمة .

ولقد استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان أنبيائهم ، ودالت دولتهم ، وذهبت ريحهم ،  
لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا  
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »<sup>(٣)</sup> . وفي الحديث : « لما وقعت  
بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ؛ فجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب  
بعضهم ببعض ؛ ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم (ثم جلس وكان متكئا فقال) :  
« لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا »<sup>(٤)</sup> . فأما المؤمنون حقاً فهم الذين  
يقول عنهم القرآن : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »<sup>(٥)</sup> .

وقد فهم بعضهم من آية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ  
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »<sup>(٦)</sup> .. أنها تجيز السكوت عن رد المنكر وتغييره ، فنبههم أبو بكر رضي الله  
عنه إلى سوء فهمهم لها قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ . . . وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ،

(٢) سورة الأقال : [٢٥] .

(٤) أبو داود والترمذي .

(٦) سورة المائدة : [١٠٥] .

(١) سورة الإسراء : [١٦] .

(٣) سورة المائدة : [٧٨-٧٩] .

(٥) سورة التوبة [٧١] .

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدر أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب <sup>(١)</sup> » .

وهذا هو التفسير الصحيح الذي ينطبق على منهج الإسلام . والذي يجعل من الأمة المسلمة وحدة واحدة ، متكافلة فيما بينها ؛ لا يضرها أن يضل الناس إذا استقامت هي على الهدى ؛ ما أدت واجبها في دفع النكر وتغييره جهد طاقتها .

والأمة مسئولة عن حماية الضعفاء فيها ؛ ورعاية مصالحهم وصيانتها ، فعليها أن تقاتل عند اللزوم لحمايتهم : « وَمَالَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟ <sup>(٢)</sup> » .. وعليها أن تحفظ لهم أموالهم حتى يرشدوا : « وَأَقْتُلُوا الزَّانِيَةَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا <sup>(٣)</sup> » . . وفي الحديث : « السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ ، الصَّائِمِ النَّهَارِ <sup>(٤)</sup> » :

وهي مسئولة عن فقرائها ومعوزيها أن ترزقهم بما فيه الكفاية ؛ فتتقاضى أموال الزكاة وتنفقها في مصارفها ؛ فإذا لم تكف فرضت على القادرين بقدر ما يسد عوز المحتاجين ، بلا قيد ولا شرط إلا هذه الكفاية . فإذا بات فرد واحد جائعاً فالأمة كلها تبیت آثمة ما لم تتحاض على إطعامه : « كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ

(١) أبو داود والترمذي . (٢) سورة النساء : [٧٥] . (٣) سورة النساء : [٦] .

(٤) الشيخان والترمذي والنسائي .

الْمُسْكِينِ ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلَّا إِذَا دُكَّتِ  
الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ . . . يَوْمَئِذٍ  
يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ! فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ  
عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ <sup>(١)</sup> . . . وفي الحديث « أيما أهل عَرِصَةٍ أصبح فيهم  
امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » <sup>(٢)</sup> و « من كان معه فضلٌ فليعدْ  
به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضلٌ زاد فليعد به على من لا زاد له » <sup>(٣)</sup> . و « من  
كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ... وإن أربع فخمس أو سادس » <sup>(٤)</sup> .

والأمة المسلمة كلها جسد واحد ، يحس إحساساً واحداً ، وما يصيب عضواً منه  
يشتكى له سائر الأعضاء . وهي صورة جميلة أخاذة يرسمها الرسول الكريم فيقول : « مثل  
المؤمنين في توادهم ، وتراحهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له  
سائر الجسد بالسهر والحمى » <sup>(٥)</sup> . كما رسم للتعاون والتكافل بين المؤمن والمؤمن صورة  
أخرى معبرة دقيقة : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » <sup>(٦)</sup> . وذلك أسمى  
ما يتصوره الخيال للتعاون والتكافل في الحياة .

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود في الجرائم الاجتماعية ، وشددت تشديداً . لأن التعاون  
لا يقوم إلا على أساس صيانة حياة كل فرد في دار الإسلام وماله وحرماته : « كل المسلم على  
المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » <sup>(٧)</sup> . . . لذلك شرع القصاص في القتل والجروح  
جزاء وفاقاً . وجعل جريمة القتل كجريمة الكفر في العقوبة : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا  
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا » <sup>(٨)</sup> . . . « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

(١) سورة الفجر : [١٧-٢٦] .

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر حديث رقم : [٤٨٨٠] .

(٣) مسلم وأبو داود . (٤) متفق عليه . (٥) متفق عليه . (٦) الشيخان .

(٧) الشيخان . (٨) سورة النساء : [٩٣] .

إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا » <sup>(١)</sup> . « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » <sup>(٢)</sup> . . . وحث على القصاص فجعله حياة للأمة : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » <sup>(٣)</sup> . وإنه لحياة لما فيه من ضمان الحياة بالكف عن القتل ، وبما فيه من حفظ كيان الجماعة وحيويتها وتماسكها بوقف الثأر .  
وشدد عقوبة الزنا لما فيه من اعتداء على العرض ، وعبث بالحرمة ، ونشر للفاحشة في الجماعة ، ينشأ عنه تفككها بعد فترة ؛ وتدليس في الأنساب ، وسرقة لعواطف الآباء بالبنوة المزورة !

شدد هذه العقوبة فجعلها للمحصن والمحصنة الرجم ، ولغير المحصنين والمحصنات الجلد ، وهو متلف في أحيان كثيرة : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » <sup>(٤)</sup> .  
وجعل العقوبة ثمانين جلدة للذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات ويفترون عليهن ، ويلوثون أعراضهن كذباً ، لأن جريمة الإفك هنا قريبة من جريمة الزنا ، فهي اعتداء على السمعة والعرض ، ومثار للعداوة والبغضاء ، وإشاعة للفاحشة بالسماع : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » <sup>(٥)</sup> .

وشدد عقوبة السرقة لما فيها من اعتداء على أمن الناس - في دار الإسلام - وطمانينتهم والثقة المتبادلة بينهم ؛ فجعلها قطع اليد : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ » <sup>(٦)</sup> .

(٢) سورة المائدة [٤٥] .

(٤) سورة النور : [٢] .

(٦) سورة المائدة : [٣٨] .

(١) سورة الإسراء : [٣٣] .

(٣) سورة البقرة : [١٧٩] .

(٥) سورة النور : [٤] .

ولقد يستفزع بعضهم هذه العقوبة اليوم حين يقيسها إلى سرقة مال من فرد ؛ ولكن الإسلام إنما نظر فيها إلى أمن الجماعة وسلامتها وتضامنها ؛ كما نظر إلى طبيعة ظروفها وإلى الغرض منها ؛ فهي جريمة تتم في الخفاء ، وجرائم الخفاء في حاجة إلى تشديد العقوبة ليعدل عنها مرتكبها ، أو ليرك من اضطرابه وخوفه من العقوبة دليلاً عليه وعليها . وهي جريمة يرتكبها صاحبها ليزيد كسبه من الحرام ؛ فلو حظ أن تكون العقوبة - وهي قطع اليد - من شأنها تعجيزه عن الكسب الذي يزيده بهذه الوسائل المحرمة .

على أن هذه العقوبة الحازمة لا تنفذ إذا كانت السرقة اضطرارية لدفع غائلة الجوع عن النفس أو الأولاد . فالقاعدة العامة : أن لا حرج على المضطر : « فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> » والحد يدرأ بالشبهة : « ادْرَأُوا الْحُدُودَ بِالْشَبَهَاتِ <sup>(٢)</sup> » والجوع شبهة ؛ وعلى هذا جرى عمر في خلافته كما سيجيء <sup>(٣)</sup> .

أما الذين يهددون أمن الجماعة العام - في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله - فجزائهم التقطيل أو التصليب أو تقطيع الأيدي والأرجل أو النفي من الأرض : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ <sup>(٤)</sup> » . لأن الاتجار والاجتماع على الإفساد والفتنة جريمة أكبر من الجرائم الفردية ، وأحق بالحسم وقسوة العقوبة .

\*\*\*

وهكذا يفرض الإسلام التكافل الاجتماعي في كل صورته وأشكاله ، تمشياً مع نظريته

(١) سورة البقرة [١٧٣] .

(٢) رواه عبد الله بن عباس (كتاب الكامل لابن عدي) . وفي مسند أبي حنيفة للجائري .

(٣) راجع فصل الجريمة والعقاب في كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

(٤) سورة المائدة : [٣٣] .



الأساسية إلى وحدة الأهداف الكلية للفرد والجماعة ؛ وفي تناسق الحياة وتكاملها . فيدع  
لل فرد حريته كاملة في الحدود التي لا تؤذيه ، ولا تأخذ على الجماعة الطريق ؛ ويجعل للجماعة  
حقوقها ، ويكلفها من التبعات في الوقت ذاته كفاء هذه الحقوق ؛ لتسير الحياة في طريقها  
السوى القويم ، وتصل إلى أهدافها العليا التي يخدمها الفرد وتخدمها الجماعة سواء .

\*\*\*

وعلى تلك الأسس الثلاثة : التحرر الوجداني المطلق ، والمساواة الإنسانية الكاملة ،  
والتكافل الاجتماعى الوثيق ، تقوم العدالة الاجتماعية ، وتتحقق العدالة الإنسانية .

## وسائل العدالة الاجتماعية في الإسلام

من داخل النفس يعمل الإسلام ، ومن أعماق الضمير يحاول الإصلاح ؛ ولكنه لا يغفل أبداً عن الواقع العملي في محيط الحياة ؛ ولا عن حقيقة النفس البشرية ، وما يعتورها من ارتفاع وهبوط ، وتطلع وانكماش ، وأشواق طائفة وضرورات مقيدة ، وطاقات محدودة ، على كل حال ، دون الكمال المطلق في جميع الأحوال .

وعلى قدر علمه العميق بأغوار النفس البشرية يشرع ويوجه ؛ ويصوغ أوامره ونواهيه ؛ ويضع حدوده وينفذها ، ثم يهتف للضمير البشري أن يتسامى فوق التكاليف المفروضة ما استطاع .

والحياة تصبح ممكنة وصالحة إذا نحن نفذنا التكاليف المفروضة في هذا الدين ؛ ولكن النفس المسامة تظل تعرج في معارج الكمال بما يوجه إليه الضمير البشري من تسامح وارتفاع وتسام ؛ فالتوجيه الوجداني في هذا الدين هو الجزء المكمل للتكليف المفروض فيه ؛ ثم هو الكفيل بتنفيذ هذا التكليف عن طواعية ورضى وإقبال ، وبمنح الحياة البشرية قيمتها الإنسانية الكريمة المترفة عن القيود والضرورات ، وعن ضغط القانون ، ودفع التكليف أيضاً .

وحينما حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة ارتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة ، وأن يكون التكليف وحده هو الذي يكفلها ؛ فجعلها عدالة إنسانية شاملة ، وأقامها على ركنين قوين : الضمير البشري من داخل النفس والتكليف القانوني في محيط المجتمع ، وزاوج بين هذه القوة وتلك ، مثيراً في الوجدان الإنساني أعماق انفعالاته ،

غير غافل عن ضعف الإنسان وحاجته إلى الوازع الخارجى كما يقول عثمان بن عفان : يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

و كل من ينظر فى هذا الدين نظرة فاحصة منصفة يدرك الجهد الضخم الذى بذله لتهديب النفس البشرية من جميع جوانبها وفى جميع اتجاهاتها وملاساتها . فهذا الدين هو الذى يجعل أقصى الثناء على نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١) . فالخلق هو الدعامة الأولى لبناء المجتمع التماسك الركين ، والاتصال الأرض بالسماء ، والفناء بالخلود ، فى ضمير الإنسان الفانى المحدود .

ولم يخل الإسلام بثقته على الضمير البشرى بعد تهذيبه ؛ فأقامه حارساً على التشريعات ينفذها ويرعاها ؛ وجعل تنفيذ الكثير منها فى ضمانته ؛ فالشهادة هى أساس إقامة الحدود فى أحوال كثيرة ، وفى إثبات الحقوق كذلك . والشهادة مسألة مردها إلى الضمير الفردى ، وإلى رقابة الله على هذا الضمير : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٢) . . « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَدْرَأُهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (٣) . . وحتى عندما يأمر بالكتابة يجعل الشهادة واجبة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ؛ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِلَ هُوَ فليُمْلِلْ

(٢) سورة النور : [٤] .

(١) سورة القلم : [٤] .

(٣) سورة النور : [٦-٩] .

وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَأُسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ  
وَأَمْرَأَتَانِ يَمْنُ تَرْضَوْنِ مِنَ الشُّهَدَاءِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا  
الْأُخْرَى » (١) .

والشهادة واجب وتكليف ، في البدء : « وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » (٢) وهي  
واجب وتكليف عند التقاضي : « وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ  
قَلْبُهُ » (٣) .. وهكذا يمنح الثقة للضمير البشري في الحدود التي قد تصل إلى الجلد والرجم ،  
وفي الحقوق المالية على السواء . وهي ثقة لا بد منها لتكريم الإنسان ورفعته إلى مستواه  
المرموق المطلوب .

ولكن الإسلام لم يدع هذا الضمير لذاته ، وهو ينوط به هذه الشؤون الخطيرة ،  
ويقومه حارساً على تنفيذ التشريع والتكليف ، ويدعوه إلى السمو فوق ما يوجبه التشريع  
والتكليف .. لقد أقام عليه رقيباً من خشية الله ، وصوّر له رقابة الله في صور فريدة  
رائعة مؤثرة : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ  
سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ؛ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ  
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٤) .. « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ  
وَنَعَلَّمْهُ مَاتُوسُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى  
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (٥)  
« فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » (٦) .

ولقد بشره وأنذره ، وجعل كل عمل من أعماله محسوباً عليه في الدنيا والآخرة لا مفر  
من عاقبته ، ولا فكاك من جزائه : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ

(١) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٢) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٣) سورة البقرة : [٢٨٣] .  
(٤) سورة المجادلة : [٧] . (٥) سورة ق : [١٦-١٨] . (٦) سورة طه : [٧] .

نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ<sup>(١)</sup> »  
 إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ؟  
 يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ .  
 فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٢)</sup> » .. وهكذا  
 وهكذا مما يقيم على هذا الضمير رقابة من الخشية والتقوى ، ويجعله أداة صالحة لرقابة التنفيذ  
 في كل ما شرع الدين من حدود وتكاليف .

\*\*\*

على هذا الضمير الذي رباه الإسلام ، وعلى التشريع الذي جاءت به شريعته ، اعتمد  
 في إرساء قواعد العدالة الاجتماعية . وبهذه الوسيلة المزدوجة نجح في إنشاء مجتمع إنساني  
 متوازن متناسق ، سنعرض صوراً منه في فصل آت . أما الآن فنكتفي باستعراض نموذج  
 من تلك الطريقة في التشريع والتوجيه ، ونختار موضوع الزكاة والصدقة لعلاقته القوية  
 بموضوع هذا الكتاب .

فرض الإسلام الزكاة حقاً في أموال القادرين للمحرومين . حقاً تتقاضاه الدولة المسلمة  
 بحكم الشريعة وبقوة السلطان . ولكن نهراح يحفز الوجدان على أداء هذا الحق ، حتى يجعل  
 أداءه رغبة ذاتية من القادرين على الأداء .

فالزكاة ركن من أركان الإسلام ، وضرورة من ضرورات الإيمان : « قَدْ أَفْلَحَ  
 الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ  
 هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ »<sup>(٣)</sup> .. « تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .  
 الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »<sup>(٤)</sup> .

(٢) سورة الزلزلة : [ ١ - ٨ ] .

(٤) سورة النمل : [ ١ - ٣ ] .

(١) سورة الأنبياء [ ٤٧ ] .

(٣) سورة المؤمنون : [ ١ - ٤ ] .



والمشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤدّون الزكاة : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ  
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » <sup>(١)</sup> .

وأداء الزكاة وسيلة من وسائل الحصول على رحمة الله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا  
الزَّكَاةَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » <sup>(٢)</sup> .

والنصر من عند الله لمن يؤدّون هذا الحق، ويقومون بواجبهم للمجتمع ، فيستحقون  
التمكين لهم في الأرض : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ  
مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ  
الْمُنْكَرِ » <sup>(٣)</sup> .

والزكاة شريعة إنسانية خالدة تضمنتها أوامر الأنبياء قبل الإسلام ؛ فلا دين بغير هذا  
الواجب الاجتماعي العريق . يقول عن إسماعيل : « وَأُذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ  
صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ  
مَرْضِيًّا » <sup>(٤)</sup> .. ويقول عن إبراهيم : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا  
صَالِحِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ  
وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ » <sup>(٥)</sup> .

والويل لمن لا يؤدي هذا الواجب المفروض . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ ، مَثَلُ لَهْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعَا أَقْرَعُ لَهُ زَيْبَتَانِ ، يَطْوِقُهُ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي شِدْقَيْهِ - يَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ ، أَنَا كَنْزُكَ » <sup>(٦)</sup> . وهي  
صورة مفرعة مروعة مخيفة .

هذه الزكاة حق مفروض بقوة الشريعة، مقدر في المال بحساب معلوم . وبجانبتها الصدقة؛

(٢) سورة النور : [ ٥٦ ] :  
(٤) سورة مريم : [ ٥٤-٥٥ ] .  
(١) البخاري والنسائي .

(١) سورة فصلت : [ ٦ - ٧ ] .  
(٣) سورة الحج : [ ٤٠-٤١ ] .  
(٥) سورة الأنبياء : [ ٧٢-٧٣ ] .

وهي موكولة لضمير الفرد بلا حساب؛ وهي وحي الوجدان والشعور، وثمره التراحم والإخاء اللذين عنى بهما الإسلام كل العناية، تحقيقاً للترابط الإنساني والتكافل الاجتماعي، عن طريق الشعور الشخصي بالواجب، والإحساس النفسي بالرحمة، ليبلغ بذلك هدفين: التهذيب الوجداني العميق، والتضامن الإنساني الوثيق. وإن الإسلام لجعل هذا التراحم إنسانياً خالصاً لا تقف حدوده عند الأخوة الدينية؛ فيقول القرآن: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.. ويقول الرسول: «ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»<sup>(٢)</sup>. فيضرب المثل العالى في التراحم الإنساني، الخالص حتى من عصبية الدين.

ثم يخطو الخطوة الكبرى فيشمل بالرحمة كل من تنبض فيه الحياة. قال نبي الإسلام الكريم: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً؛ فنزل فيها فشرب، ثم خرج وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش؛ فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». قالوا يارسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «نعم، في كل كبد رطبة أجر»<sup>(٣)</sup>. وقال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»<sup>(٤)</sup>.

فالرحمة في الإسلام أساس الإيمان وعلامته، لأنها دليل تأثير الضمير بهذا الدين، وتغلغله فيه.

وعلى هذا الأساس يوجه الإسلام إلى الصدقة والبر، ويحبب في الإنفاق طوعاً

(٢) أبو داود والترمذي.

(٤) البخاري.

(١) سورة المتحنة: [٨].

(٣) الشيخان.

واحتساباً ، وانتظاراً لرضاء الله وعوضه في الدنيا ، ولثوابه في الآخرة ، واجتناباً لنفسه ونقمة وعذابه .

فالبشرى للمخبتين الطائعين لله الذين ينفقون من أموالهم لرضاه : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ <sup>(١)</sup> » . . . وهي صورة مؤثرة في الوجدان حقا ، يعيد رسمها في مناسبة أخرى فيقول : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٢)</sup> » .

كما يصور الإيثار صورة جميلة رقيقة في نفوس أهل المدينة الذين استقبلوا المهاجرين فأوهم وشاركوهم مالهم وبيوتهم في رحابة صدر وسماحة نفس : « وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ - وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ - وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ <sup>(٣)</sup> » .

وهي صورة للإنسانية العليا في أجمل صورها وأبدعها . وهناك صورة لا تقل عنها جمالا ورقة وانعطافا لجماعة من عباد الله ، تذكر بعض المراجع أنهم على زوجته فاطمة بنت الرسول وأهل بيتها : « يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَيُطْعِمُونَ الطَّامِعَ - عَلَى حُبِّهِ - - مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا .

(٢) سورة السجدة : [ ١٥ - ١٧ ] .

(١) سورة الحج : [ ٣٤ - ٣٥ ]

(٣) سورة الحشر : [ ٩ ] .

فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ، وَإِذَا رَأَيْتَ ، ثُمَّ ، رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ، عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ، وَحُلُوعٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا .  
إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا <sup>(١)</sup> .

والصدقة قرض لله مضمون الوفاء : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » <sup>(٢)</sup> .. « إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » <sup>(٣)</sup> ..

أو هي تجارة رابحة مجزية : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، إِيؤُفِّيهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » <sup>(٤)</sup> .

وعلى أية حال فهي مُخْلِفة وليس فيها خسارة ولا ظلم : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » <sup>(٥)</sup> .

والجنة في الآخرة جزاء كريم للمنفقين : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

(٢) سورة الحديد : [١١] .

(٤) سورة فاطر : [٢٩-٣٠] .

(١) سورة الدهر : [٧-٢٢] .

(٣) سورة الحديد : [١٨] .

(٥) سورة البقرة : [٢٧٢] .

عَرْضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ،  
وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ . وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ <sup>(١)</sup> .

والصدقة تطهير للنفس والمال ، وقد أمر الرسول أن يأخذ من قوم أذنبوا واعترفوا  
بذنوبهم قسطاً من مالهم ينفق في الخير تطهيراً وتزكية لهم : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ،  
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا . عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .  
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ  
لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَأْخُذُ  
الْصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ <sup>(٢)</sup> » .

والإِنفاق يتسق مع الوفاء بعهد الله والخشية منه والخوف من سوء الحساب ؛ ويدل على  
العقل والتبصر . والكف عنه قطع لما أمر الله به أن يوصل ؛ ونوع من نقض العهد  
والإفساد في الأرض : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا  
يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ  
سُوءَ الْحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ : جَنَّاتُ  
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ  
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ  
عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ،  
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ <sup>(٣)</sup> » .

والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله هلكة : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا  
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » <sup>(٤)</sup> . التهلكة الفردية بتعريض النفس للعذاب في الآخرة من

(٢) سورة التوبة : [١٠٢-١٠٤] .

(٤) سورة البقرة : [١٩٥] .

(١) سورة آل عمران : [١٣٣-١٣٤] .

(٣) سورة الرعد : [١٩ - ٢٥] .



الله ، والنقمة في الدنيا من الناس ؛ والتهلكة الجماعية بما يشيعه عدم الإنفاق في المجتمع من تفاوت وظلم ، وفتن وأحقادٍ ، وضعف وانحلال .

ومنع الخير اعتداء : « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ، مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ » (١) . . « وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حُلَافٍ مَّهِينٍ . هَٰذَا مَثَاءٌ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ » (٢) . . معتد على حق الله ، وحق الجماعة ، وحق نفسه كعضو في الجماعة :

والبرُّ يؤدي إلى الجنة ويحتاز بالبارِّ العقبة إليها . والعقبة هي فك الرقاب ، وإطعام الطعام يوم الجوع والمتربة : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » (٣) .

والكف عن البر يؤدي إلى النار ، ويسلك صاحبه مع الكفار : « مَسَلَكَكُمْ فِي سَعَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » (٤) . « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) . . « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (٦) .

\*\*\*

وليس الكنز هنا هو مجرد الامتناع عن الزكاة ، فالصدقة والإنفاق كثيرا ما يذكران

(٢) سورة القلم : [١٠-١٢] .

(٤) سورة المدثر : [٤٢-٤٧] .

(٦) سورة التوبة : [٣٤-٣٥] .

(١) سورة ق : [٢٤-٢٥] .

(٣) سورة البلد : [١٢-١٦] .

(٥) سورة آل عمران [١٨٠] .

بعد أو قبل ذكر الزكاة ، مما يدل على أن الزكاة شيء مفروض محدد ، والصدقة والإِنفاق مطلقان غير محددين بنصاب .. عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك » (١) . وعن بلال رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رزقت فلا تحبها ، وما سئلت فلا تمنع . فقلت : يا رسول الله وكيف لى بذلك ؟ قال : هو ذاك أو النار » (٢) .

لا بل إن العقاب قد يحلّ بالباخلين فى الدنيا جزاء ما بخلوا ومنعوا الخير ؛ ويضرب القرآن الكريم مثلاً فى قصة قصيرة ، قصة جماعة كانت لهم حديقة يطعمون من ثمرها الفقراء ، ثم خطر لهم أن يبخلوا ويمنعوا ، فدارت الدائرة على الحديقة ، وذهب الله بثمرها ، فأصبحوا نادمين : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وَلَا يَسْتَشْنُونَ . فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَنْ اُعْذُوا عَلَى حَرِّ نَارِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَلَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ . وَاعْذُوا عَلَى حَرِّ قَادِرِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُونَ ! بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ ! قَالُوا : سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ . قَالُوا : يَا وَيْلَتَنَا ! إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (٣)

لذلك يدعو القرآن الكريم الناس للبذل قبل فوات الأوان : « قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ

(١) مسلم والترمذى .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٣) سورة القلم : [ ١٧ - ٣٣ ] .

آمَنُوا : يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ» (١) . « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ، فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ! وَلَنْ يُؤَخِّرَهُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا » (٢) .

ويحذرهم الشح ليقوا أنفسهم منه ، فلا يدفعهم حرصهم على الأموال والأولاد إليه ، فإنما هذه فتنة لهم واختبار : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْالَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٣) .

والنبي يوجب الصدقة على كل مسلم ولو كان لا يجد ، وتفسير ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : « على كل مسلم صدقة . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يستطع أن يفعل ؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال فيمسك عن الشر فإنه له صدقة » (٤) . .. وهكذا يستوى الناس جميعاً في البذل ، كل بقدر ما يملك ، وكل بقدر ما يستطيع .

\*\*\*

وأبواب الإنفاق تدور مع الحاجة ومواضعها ؛ فالأقربون أولى بالمعروف ؛ ولكن سواهم موصولون بهم يذكرون في معرض الخس على البر جنباً لجنب مع الأقربين ؛ فالبر عاطفة إنسانية قبل أن تكون وجدان قرابة ؛ وذكر البر موصول غالباً بذكر الإيمان ، إذ كان دليل الإيمان كما أسلفنا : « وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ؛ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ، وَالْيَتَامَىٰ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ

(٢) سورة المنافقون : [١٠-١١] .

(٤) الشيخان واللفظ للبخاري .

(١) سورة إبراهيم : [٣١] .

(٣) سورة التغابن : [١٥-١٦] .

اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ، الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا<sup>(١)</sup> . «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ : مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا يتصل الجار والصاحب بالوالدين والأقربين ، كما يتصل بالجميع اليتامى والمساكين وابن السبيل . كلهم سواء ، حتى الذين تقع منهم مساءة ، كالتى وقعت من « مسطح » قريب أبي بكر ، الذى اشترك فى حديث الإفك عن ابنة أبي بكر ، عائشة زوج النبي . فإن الإسلام يدعو للصفح عنهم ، وينهى عن حرمانهم . فلما حلف أبو بكر وهو فى ثورة غضبه على عرضه المنهوك كذباً ، أن يحرم مسطحاً ما كان يبره به ، نزلت الآية : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ »<sup>(٣)</sup> ؟

وهكذا يرتفع بالشعور الإنسانى فى هذا المجال إلى مستوى رفيع كريم ، تشرف به الإنسانية فى أعصارها جميعاً ؛ وتفخر به فى الماضى والحاضر والمستقبل إلى ما شاء الله .

ثم يرتفع بالبر ذاته ، فيجعله براً بالله سبحانه ، ويرسم له هذه الصورة المبدعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ! قال : ياربُّ كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ! قال يارب : وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم

(٢) سورة البقرة : [٢١٥] .

(١) سورة النساء : [٣٦-٣٧] .

(٣) سورة النور : [٢٢] .

تسقى ! قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى <sup>(١)</sup> .

ثم يجعل للصدقة آداباً ترفعها عن أن تكون تفضلاً واستعلاء من الواجد على المحروم ، أو أن تكون رياء صادراً عن شعور غير كريم ؛ لأن الصدقة إن هبطت دوافعها ، أو تبعها المن على أخذها ، استحالت عملاً خسيساً يؤذى النفس والخلق والضمير ، ويؤذى المجتمع كذلك في أفرادهِ وفي روابطهِ . وليس كالمن بالإحسان شيء يمض النفس ويذلها ، أو يصرفها عن قبول الإحسان ؛ وليس كالرياء بالصدقة مفسد للضمير حقير في عرف الأخلاق . والإسلام يعمل على رفع نفوس المعطين والآخذين جميعاً ، ويحرص على ذلك حرصاً شديداً : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَنْبِيْهِتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ، أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّتْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيُّوْدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ

(١) رواه مسلم .

الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؛ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ <sup>(١)</sup> .

ولهذا يستحسن إخفاء الصدقة ودفعها سرّاً للمعوزين . حفظاً لكرامتهم من جهة ؛ ومنعاً للاختيال والفخر من جهة أخرى : « إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ؛ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » <sup>(٢)</sup> . . ويتحدث النبي صلى الله عليه وسلم مثنياً على الرجل « تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » <sup>(٣)</sup> وهو تصوير بارع جميل لكتمان البر واحتسابه في غير مفخرة ولا إعلان .

\*\*\*

والإسلام يقدر غريزة حب الذات وحب المال ؛ ويقرر أن الشح حاصر في النفس الإنسانية لا يغيب : « وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ » <sup>(٤)</sup> فيعالج هذا كله علاجاً نفسياً بما تقدم من الترغيب والتحذير والحض والتصوير ، حتى ليتم له ما يريد ، وحتى ليطلب إلى هذه النفس الشحيحة أن تجود بما هو حبيب إليها عزيز عليها : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » .. <sup>(٥)</sup> فتستجيب إليه ، وتتألمس الطيب تجوده به ، وبذلك يصل إلى غاية البذل وأصعب الجود وأكرم العطاء ، النابع من أعماق الشعور ؛ ويرفع الإنسان على نفسه ؛ ويغلب جانب التسامى فيه على جانب الضرورة ، وجانب الوجدان على جانب الغريزة ؛ وذلك في ذاته هدف إنساني رفيع يستحق الجهد فيه ، فكيف وهو هدف اجتماعي ، لإيجاد التوازن ، ومكافحة الحرمان ، وتحقيق التكافل بين القادرين والعاجزين ، وتكوين مجتمع متناسق متعاون سليم ؟

\*\*\*

(١) سورة البقرة : [٢٦٦-٢٦١] . (٢) سورة البقرة : [٢٧١] .  
(٣) الشيخان . (٤) سورة النساء : [١٢٨] . (٥) سورة آل عمران : [٩٢] .



على هذا النهج - الذى توسعنا فى عرض نموذج منه - يسير الإسلام ، فيهتم بالإقناع  
الوجدانى كلما شرع تكليفاً ؛ ويقف بالتكاليف عند الحد الضرورى لسلامة المجتمع ،  
وفى حدود الطاقة العامة لجاهير الناس ؛ ثم يخاطب الوجدان للإقناع بالتكليف ، وللسمو  
فوقه ما استطاع ؛ ليرتفع بالحياة الإنسانية ويجذبها دائماً بنحيط الصعود ؛ ويدع المجال فسيحاً  
بين الحد الأدنى المطلوب والحد الأعلى المرغوب ، تتسابق فيه الأفراد والأجيال ، على مدى  
الأزمان والقرون .

وعلى هذا النهج قد سار فى تحقيق العدالة الاجتماعية .. وفى الفصلين التالين من هذا  
الكتاب حديث مفصل عن « سياسة الحكم » و « سياسة المال » وفيها يتجلى اعتماد  
الإسلام على وسيلتيه الأساسيتين : التشريع والتوجيه فى تحقيق العدالة الكبرى فى كل حقل  
من حقول الحياة .

ولقد آتى هذا النهج ثمراته كاملة فى فجر الإسلام ، وظل يؤتيها فى فترات القرون  
الأربعة عشر التى تلت . وإنه لقادر على أن يعيدها فى الحاضر والمستقبل ، حين يفهم على  
حقيقته ، وحين يوجه وجهته ، وحين يسلك الناس طريقه الحق القويم .

## سياسة الحكم في الإسلام

كل حديث عن « العدالة الاجتماعية في الإسلام » لابد أن يلم بالحديث عن « سياسة الحكم في الإسلام » تبعاً للقاعدة التي أسلفنا عند الحديث على « طبيعة العدالة الاجتماعية » فيه ؛ وأنها تتناول جميع مظاهر الحياة ، وجميع ألوان النشاط ؛ كما تتناول القيم المعنوية والمادية متمازجة متناسقة .

وسياسة الحكم ذات علاق، بهذا كله ؛ فضلاً على أنها المنوط بها في النهاية تنفيذ التشريع ؛ وتعهّد المجتمع من كل جوانبه ؛ وتحقيق العدالة والتوازن فيه ؛ وتوزيع المال حسب القواعد التي سنّها الإسلام .

والكلام عن « سياسة الحكم في الإسلام » يطول ويحتاج إلى مبحث خاص ؛ ولما كان قصدنا في هذا الكتاب بيان ما يختص بالعدالة الاجتماعية من هذه السياسة ، فسنحاول بقدر الإمكان أن نتناول هذا الجانب وحده ؛ وإن كانت الصعوبة في دراسة الإسلام أن الباحث يجد كل جوانبه متماسكة ؛ وليس هناك انعزال بين هذه الجوانب . فهذا الدين كله وحدة : العبادات والمعاملات . سياسة الحكم وسياسة المال . التشريعات والتوجيهات . العقيدة والسلوك . الدنيا والآخرة .. كلها أجزاء منسقة في جهاز متكامل ؛ يصعب إفراد جزء منها بالحديث ، دون التطرق إلى بقية الأجزاء . ولكن سنحاول بقدر الإمكان !

\*\*\*

بعض من يتحدثون عن النظام الإسلامي - سواء النظام الاجتماعي أم نظام الحكم وشكل الحكم - يجتهدون في أن يعقدوا الصلات والمشابه بينه وبين أنواع النظم التي عرقها

البشرية قديماً وحديثاً ، قبل الإسلام وبعده . ويعتقد بعضهم أنه يجد للإسلام سنداً قوياً حين يعقد الصلة بينه وبين نظام آخر من النظم العالمية القديمة أو الحديثة .

إن هذه المحاولة إن هي إلا إحساس داخلي بالهزيمة أمام النظم البشرية التي صاغها البشر لأنفسهم في معزل عن الله . فما يعتز الإسلام بأن يكون بينه وبين هذه النظم مشابهة ؛ وما يضيره ألا تكون . فالإسلام يقدم للبشرية نموذجاً من النظام المتكامل لا تجد مثله في أى نظام عرفته الأرض ، من قبل الإسلام ومن بعده سواء . والإسلام لا يحاول ولم يحاول أن يقلد نظاماً من النظم ، أو أن يعقدينه وبينها صلة أو مشابهة ؛ بل اختار طريقه متفرداً فذاً ، وقدم للإنسانية علاجاً كاملاً لمشكلاتها جميعاً .

ولقد يحدث في تطور النظم البشرية أن تلتقي بالإسلام تارة ، وأن تفرق عنه تارة . ولكنه هو نظام مستقل متكامل ، لعللاقة له بتلك النظم ؛ لآحين تلتقى معه ، ولا حين تفرق عنه . فهذا الافتراق وذلك الالتقاء عرضيان ، وفي أجزاء متفرقة ؛ ولا عبرة بالاتفاق أو الاختلاف في الجزئيات والعرضيات ، إنما المعول عليه هو النظرة الأساسية ، والتصور الخاص . وللإسلام نظراته الأساسية وتصوره الخاص ، وعنه تتفرع الجزئيات ، فتلتقى أو تفرق عن جزئيات في النظم الأخرى ، ثم يمضى الإسلام في طريقه المتفرد بعد كل اتفاق أو اختلاف .

إن القاعدة التي يقوم عليها النظام الإسلامي تختلف عن القواعد التي تقوم عليها الأنظمة البشرية جميعاً .. إنه يقوم على أساس أن الحاكمة لله وحده . فهو الذي يشرع وحده . وسائر الأنظمة تقوم على أساس أن الحاكمة للإنسان ، فهو الذي يشرع لنفسه .. وهما قاعدتان لاتلتقيان . ومن ثم فالنظام الإسلامي لا يلتقى مع أى نظام . ولا يجوز وصفه بغير صفة الإسلام ..

وليست وظيفة الباحث الإسلامي حين يعرض للحديث عن النظام الإسلامي أن يلتمس

له المشابهة والمواقفات مع أى نظام آخر قديم أو حديث ، فهذه المشابهة والمواقفات - فضلا على أنها سطحية وجزئية ، ووليدة مصادفات فى الجزئيات ، لافى التصور العام والنظرة الأساسية - لاتكسب الإسلام قوة كما يظن بعض المهزومين ! وطريقهم الصحيح أن يعرضوا أسس دينهم لذاتها ، وبإيمان كامل بأنها أسس كاملة ، سواء وافقت جميع النظم الأخرى أو خالفها جميعاً ، ومجرد تطلب التأييد لنظم الإسلام من مشابهة ومواقفات مع النظم الأخرى ، هو إحساس بالهزيمة كما قلنا ، لا يقدم عليه باحث مسلم ، يعرف هذا الدين حق معرفته ، ويبحثه حق بحثه .

لقد عرف العالم فى نشأته وتطوره نظاما عدة . وليس النظام الإسلامى واحداً من هذه النظم ، وليس خليطاً منها ، وليس مستمداً من مجموعها .. إنما هو نظام قائم بذاته مستقل بفكرته متفرد بوسائله ، وعلينا أن نعرضه مستقلاً ، لأنه نشأ مستقلاً ، وسار فى طريقه مستقلاً .

لهذه الاعتبارات لم استسغ تعبير الدكتور هيكل عن العالم الإسلامى بأنه « الإمبراطورية الإسلامية » ، ولا قوله : « إن الإسلام إمبراطورى » . فليس أبعد عن فهم روح الإسلام الحقيقية من القول بأنه إمبراطورى ، مهما فرقنا بين مدلول الإمبراطورية الإسلامية ومدلول الإمبراطورية المعروف ؛ وليس أبعد من فهم حقيقة الصلات فى العالم الإسلامى من القول بأنه إمبراطورية إسلامية !

ومن الغريب أن الدكتور هيكل فى حديثه عن حكم الإسلام فى « حياة محمد » أو « الصديق أبو بكر » أو « الفاروق عمر » يلمس الخلاف الحقيقى الداخلى بين طبيعة الإسلام ، وطبيعة سائر النظم التى عرفها العالم ، ولكنه ينساق إلى هذين التعبيرين انسياقاً ، بحكم قوة إيهام المظاهر الأجنبية ! ثم تشابه بعض المظاهر بين الإسلام والإمبراطورية .

وبحكم أنه لم يلحظ ذلك الافتراق الأصيل بين نظام يقوم على حاكمية الله وحده ، ونظام آخر يقوم على حاكمية الإنسان !

ولعل المظهر الشكلي هو تكوين العالم الإسلامي من عدة أقاليم متباينة الأجناس والثقافات ، يرجع أمر الحكم فيها إلى مركز واحد . وهذا هو مظهر الإمبراطورية ولكنه مجرد مظهر ، والمعول عليه هو طبيعة نظر هذا المركز إلى الأقاليم ؛ وطبيعة العلاقات بينه وبينها .

كل متتبع لروح الإسلام ولطريقته في الحكم ، يجزم بأنها أبعد ما تكون عن الإمبراطوريات المعروفة . فالإسلام يسوى بين المسلمين في جميع أجزاء العالم ؛ وينكر العصبية الجنسية والقومية والإقليمية . وتبعاً لهذه الروح لا يجعل الأقاليم مستعمرات ولا مواضع استغلال ، ولا منابع تصب في المركز لفائدته وحده . فكل إقليم هو بضعة من جسم العالم الإسلامي ، ولأهله سائر الحقوق التي لأهل المركز . وإذا كان بعض الأقاليم يحكمها وال من قبل المركز الإسلامي ، فإنما يحكمها بوصفه رجلاً مسلماً صالحاً للولاية ، لا بوصفه حاكماً مستعمرًا ؛ على أن كثيراً من هذه الأقاليم المفتوحة كان يحكمها واحد من أهلها ، ولكن بصفته مسلماً صالحاً لهذه الولاية . وكذلك كان مايجي من أموال الأقاليم ينفق فيها أولاً ، فإن فضل منه شيء رد إلى بيت مال المسلمين ، لينفق على المسلمين كافة عند الحاجة ، لا ليخصص لأهل المركز الإسلامي ولو افتقرت الأقاليم ، كما هو العهد في الإمبراطوريات .

وكل هذا يجعل المسافة بعيدة بين العالم الإسلامي ، أو الأمة الإسلامية بتعبير أدق ، وبين الإمبراطورية ، ويكون القول بأن الإسلام « إمبراطوري » انزلاقاً مع اصطلاح غريب على روح الإسلام وعلى تاريفه سواء ، والأولى أن نقول : إنه كان عالمي النزعة ،

لما فيه من فكرة قوية عن وحدة العالم ، ولما يرمى إليه من ضم البشرية كلها إلى لوائه متساوية متأخية .

لقد كان الدكتور طه حسين أدق في تعبيره وهو يتحدث في مقدمة كتابه «الفتنة الكبرى» . عثمان « عن نظام الحكم الإسلامي ، بالقياس إلى جميع النظم الأخرى ، فيرى أنه يختلف في طبيعته الأصلية عن سائرهما ؛ فذلك هو الحق عند النظر إلى روح الحكم وطبيعته ، لا إلى مظاهره وجزئياته . وإن كان الدكتور طه حسين يجعل تقريره هذا مقدمة لنتيجة أخرى خطيرة وهي أن الإسلام بصورته التي تحقق بها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والشيخين بعده إنما كان فلتة في الزمان ، لا تملك البشرية أن تزاو لها طويلا ! وهذه هي النعمة التي يجعلها المستشرقون وتلاميذهم في البلاد الإسلامية مقدمة للقول بعدم صلاحية الإسلام لأن يكون نظام حكم في هذه الأيام !

كذلك لم أستسغ حديث من يتحدثون عن « اشتراكية الإسلام » و « ديمقراطية الإسلام » .. وما إلى ذلك من الخلط بين نظام من صنع الله - سبحانه - وأنظمة من صنع البشر ، تحمل طابع البشر وخصائص البشر من النقص والكمال ، والخطأ والصواب ، والضعف والقوة ، والهوى والحق .. بينما نظام الإسلام الرباني برىء من هذه الخصائص ، كامل شامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن الإسلام يقدم حولا مستقلة لمشكلات الإنسانية ، يستمدّها من تصوّره الخاص ، ومن منهجه الذاتي ، ومن أسسه الأصلية ، ومن وسائله المتميزة ؛ وعلينا حين نقاشه ألا نكله إلى مذاهب ونظريات أخرى تفسره ، أو تضيف إليه ؛ فهو منهج متكامل ، ووحدة متجانسة ؛ وإدخال أى عنصر غريب فيه كفيل بأن يفسده ، كالجهاز الدقيق الكامل ، أية قطعة غريبة عنه تعطل الجهاز كله ، وتظهر كأنها رقعة فيه !

وأنا أدلى بهذه الكلمة المجلّة هنا ، لأن كثيرا ممن اندست في ثقافتهم وأفكارهم قطع



غريبة من أجهزة النظم الأجنبية ، يحسبون أنهم يكسبون الإسلام قوة جديدة ، إذا هم طعموه بتلك النظم . وهو وهم خاطيء يفسد الإسلام ؛ ويعطل روحه عن العمل ؛ وهو في الوقت ذاته إحساس خفي بالهزيمة ، ولو لم يعترفوا صراحة بالهزيمة !

\*\*\*

يقوم النظام الإسلامي على فكرتين أساسيتين مستمدتين من تصوره الكلى للألوهية والكون والحياة والإنسان: فكرة وحدة الإنسانية في الجنس ، والطبيعة، والنشأة. وفكرة أن الإسلام هو النظام العالمي العام ، الذي لا يقبل الله من أحد نظاما غيره . لأنه لا يقبل من أحد دينا إلا الإسلام . والدين - في المفهوم الإسلامي - هو النظام العام الذي يحكم الحياة .

فأما فكرة وحدة الإنسانية جنسا وطبيعة ونشأة ، فقد تحدثنا عنها من قبل بالتفصيل عند الكلام على « أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام »

وأما فكرة أن الإسلام هو النظام العالمي العام ، الذي لا يقبل الله من أحد نظاما غيره فهي مستمدة من أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو رسول الله إلى الناس كافة ، وأنه خاتم النبيين ، وأن دينه أقوم دين : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ » <sup>(١)</sup> . . « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » <sup>(٢)</sup> . . « ... رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » <sup>(٣)</sup> . . « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » <sup>(٤)</sup> . . « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » <sup>(٥)</sup> . .

« والدين » في المفهوم الإسلامي هو المرادف لكلمة « النظام » في الاصطلاحات الحديثة ا مع شمول المدلول للعقيدة في الضمير ، والخلق في السلوك ، والشرعية في المجتمع . .

(٢) سورة الأنبياء : [١٠٧] .

(٤) سورة المائدة : [٣] .

(١) سورة سبأ : [٢٨] .

(٣) سورة الأحزاب : [٤٠] .

(٥) سورة الإسراء : [٩] .

فكلها داخلة في مفهوم « الدين » في الإسلام . ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك نظام يقبله الله ويقره الإسلام ، ما لم يكن هذا النظام مستمداً من التصور الإسلامى الاعتقادى ، ومتمثلاً في تنظيمات وتشريعات مستمدة من الشريعة الإسلامية دون سواها . . . وأهم من هذا كله أن يدعى أصحاب هذا النظام لألوهية الله وربوبيته ، فلا يدعون لأنفسهم حق إصدار الشرائع والأنظمة لأن هذا الحق لله وحده في الإسلام . وهنا يفترق النظام الإسلامى عن كل الأنظمة البشرية الافتراق الأساسى .

ولكن الإسلام مع هذا لا يقصر الآخرين على اعتناقه : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ »<sup>(١)</sup> . . بل يدعى لهم أقصى الحرية والحماية في مزاولة شعائرهم الدينية . ويبلغ من دقة حسه بهذه الحرية أن يفرض على المسلمين وحدهم « الزكاة » والجهاد ويأخذ في مقابلها من أهل الذمة « الجزية » إذ هم شركاء في حماية الدولة الإسلامية لهم ، وعليهم جميعاً نفقاتها ، ولكنه لا يجعلها على أهل الذمة « زكاة » - كما أنه لا يفرض عليهم الجهاد - إلا إذا ارتضوا هم وقبلوا ، لأن الزكاة فريضة إسلامية وعبادة خاصة بالمسلمين ، وكذلك الجهاد ، وهو لا يريد أن يقصر أهل الذمة على عبادة من عبادات المسلمين ، فيأخذ المال منهم بصفته المالية وحدها ؛ وينفى عنه الصفة التعبدية الملحوظة في فريضة الزكاة ! كما يفهم من الجهاد لحماية دار الإسلام التى يتمتعون بأمنها ورخائها . وهذا منتهى دقة الحساسية بالعدل في معاملة الآخرين .

والإسلام إذ يدعى للآخرين حريتهم في هذه الحدود يتأثر بروحه العالمية العامة ؛ وهو على ثقة بأنهم متى أتيح لهم أن ينظروا في الإسلام نظر تدبر وإيمان ، دون حيلولة من قوة مادية ، أو جهالة فكرية ، فإنهم بفطرتهم يفيثون إلى الإسلام الذى يحقق التوازن

---

(١) سورة البقرة : [ ٢٥٦ ] .

الكامل بين جميع الأهداف التي رمت إليها الديانات من قبله ، وبين جميع النزعات والأشواق في الفطرة البشرية ؛ ويضمن للجميع المساواة المطلقة والتكافل التام ؛ ويرمى إلى تحقيق الوحدة الإنسانية في دائرة التصور ودائرة النظام .

وقيام النظام الإسلامي على هاتين الفكرتين كان ذا أثر في كيانه واتجاهه ، جعله يلحظ في التشريعات والتوجيهات ، وفي سياسة الحكم ، وسياسة المال ، وسائر النظم التي تضمنها ، أنه لا يشرع لجنس ، ولا لجيل ؛ إنما للأجناس جميعاً ، وللأجيال جميعاً ؛ فاتباع الأسس الإنسانية الشاملة في كل تشريعاته ونظمه ؛ ووضع القواعد العامة ، والمبادئ الواسعة ؛ وترك الكثير من التطبيقات لتطور الزمان وبروز الحاجات .

وهذا الاتجاه إلى القواعد الكلية واضح في « سياسة الحكم » التي نعقد لها هذا الفصل بصفة خاصة .

\*\*\*

تقوم نظرية الحكم في الإسلام على أساس شهادة أن لا إله إلا الله . ومتى تقرر أن الألوهية لله وحده بهذه الشهادة تقرر بها أن الحاكمية في حياة البشر لله وحده . والله سبحانه يتولى الحاكمية في حياة البشر عن طريق تصريف أمرهم بمشيئته وقدره من جانب ، وعن طريق تنظيم أوضاعهم وحياتهم وحقوقهم وواجباتهم ، وعلاقاتهم وارتباطاتهم بشريعته ومنهجه من جانب آخر . وفي النظام الإسلامي لا يشارك الله سبحانه أحد ، لا في مشيئته وقدره ، ولا في منهجه وشريعته .. وإلا فهو الشرك أو الكفر ! وبناء على هذه القاعدة لا يمكن أن يقوم البشر بوضع أنظمة الحكم وشرائعه وقوانينه من عند أنفسهم ؛ لأن هذا معناه رفض ألوهية الله ، وادعاء خصائص الألوهية في الوقت ذاته . . وهذا هو الكفر الصراح .

وفي هذه القاعدة يختلف نظام الحكم الإسلامى فى أساسه عن كل الأنظمة التى وضعها البشر سواء فى ذلك نظام الحكم أو النظام الاجتماعى كله . وهذا هو الذى لا يجعل من المستساغ أن يخلط بين الإسلام وأنظمة البشر فى الأسماء ! .

وتقوم « سياسة الحكم فى الإسلام » بعد التسليم بقاعدة الألوهية الواحدة والحاكمة الواحدة - على أساس العدل من الحكم ، والطاعة من المحكومين ، والشورى بين الحاكم والمحكوم ... وهى خطوط أساسية كبيرة ، تتفرع منها سائر الخطوط التى ترسم شكل الحكم وصورته . بعد أن ترسم القاعدة السابقة طبيعته وحقيقته :

( ١ ) العدل من الحكم : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » <sup>(١)</sup> .. « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » <sup>(٢)</sup> .. « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » <sup>(٣)</sup> « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » <sup>(٤)</sup> .

« إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا : إِمَامٌ عَادِلٌ ؛ وَإِنْ أَبْغَضَ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا : إِمَامٌ جَائِرٌ » <sup>(٥)</sup> ..

فهو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض ؛ ولا تغير قواعده المودة والشأن . العدل الذى لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ، ولا بالتباغض بين الأقوام ، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعاً ، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب ، ولا مال ولا جاه ؛ كما تتمتع به الأقوام الأخرى ، ولو كان بينها وبين المسلمين شأن ، وتلك قمة فى العدل لا يبلغها أى قانون دولى إلى هذه اللحظة ، ولا أى قانون داخلى . بل لا يقاربها كذلك !

والذين يمارون فى هذا عليهم أن يراجعوا عدالة الأقوياء والضعفاء بين الأمم ؛ وعدالة المتحاربين بعضهم بالقياس إلى بعض . ثم عليهم أن يراجعوا عدالة البيض للحمرة والسود

---

( ١ ) سورة النحل : [ ٩٠ ] . ( ٢ ) سورة النساء : [ ٥٨ ] ( ٣ ) سورة الأنعام [ ١٥٢ ] .  
( ٤ ) سورة المائدة : [ ٨ ] . ( ٥ ) الشيطان والترمذى .

في الولايات المتحدة ؛ وعدالة البيض للملونين في جنوب إفريقيا ؛ وعدالة الشيوعيين والوثنيين والصليبيين للمسلمين في روسيا والصين ويوغوسلافيا والهند والحبشة<sup>(١)</sup> وفي الإشارة ما يغنى . فهي أحوال معاصرة يعلمها كل إنسان .

والمهم في عدالة الإسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ؛ بل أخذت طريقها إلى واقع الحياة ، فحفظ « الواقع التاريخي » منها أمثلة متواترة ، وسيأتي تفصيلها في موضعها الخاص . إذ نحن هنا بصدد عرض « المبادئ » الإسلامية مجردة كما تدل عليها النصوص .

( ب ) والطاعة من الحكوميين : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ »<sup>(٢)</sup> . وللجمع في الآية بين الله والرسول وأولى الأمر معناه في بيان طبيعة هذه الطاعة وحدودها ؛ فالطاعة لولى الأمر مستمدة من طاعة الله والرسول ، لأن ولى الأمر في الإسلام لا يطاع لذاته . وإنما يطاع لإذعانه هو لسلطان الله واعترافه له بالحاكمية ، ثم لقيامه على شريعة الله ورسوله . ومن اعترافه بحاكمية الله وحده ، ثم تنفيذه لهذه الشريعة يستمد حق الطاعة ، فإذا انحرف عن هذه أو تلك سقطت طاعته ، ولم يجب لأمره النفاذ . يقول صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة »<sup>(٣)</sup> . ويقول : « اسمعوا وأطيعوا — وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زينة — ما أقام فيكم كتاب الله تعالى »<sup>(٤)</sup> . وواضح في هذا الحديث توقيت السمع والطاعة بإقامة كتاب الله تعالى . فليست هي الطاعة المطلقة لأمر الحاكم ، وليست هي الطاعة الدائمة ولو ترك شريعة الله ورسوله .

(١) تراجع فصول « المسلمون متعصبون ! » في كتاب « دراسات إسلامية » للمؤلف .

(٢) سورة النساء : [٥٩] . (٣) الشيخان . (٤) البخاري .

ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية ، وبين استمداده السلطان من صفة دينية لشخصه . فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها مباشرة من السماء ، كما كان لبعض الحكام في القديم في نوع الحكم المسمى : « ثيوقراطية » . إنما هو يصبح حاكما باختيار المسلمين الكامل وحرية المطلقة ، لا يقيدهم عهد من حاكم قبله ، ولا وراثة كذلك في أسرة . ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ شريعة الله دون أن يدعى لنفسه حق التشريع ابتداء بسلطان ذاتي له . فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية ؛ وإذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة .

ومن هنا ندرك حكمة النبي - صلى الله عليه وسلم - في أنه لم يعين خليفته من بعده . إذ كان هذا مظنة أن يستمد خليفته سلطة دينية ذاتية من استخلاف الرسول - صلى الله عليه وسلم - له .

إن الإسلام لا يعرف هيئة « دينية » مثل « هيئة الإكليروس » في الكنيسة المسيحية . والحكم الإسلامي ليس هو الذي تقوم به هيئة معينة ؛ ولكنه كل حكم تنفذ فيه الشريعة الإسلامية إقرارا من الحاكم بأن الحاكمية لله وحده ، وأن مهمته هو لا تتعدى تنفيذ الشريعة . فإذا كان معنى « الحكومة الدينية » في أية ديانة أن طائفة معينة هي التي تتولى الحكم ، فإن هذا المعنى ينتفي في الإسلام انتفاء كاملا ؛ وليس هناك مبرر لأن يفهم أحد أن الحكم في الإسلام يحتاج إلى أكثر من تنفيذ الشريعة الإسلامية ، بعد إفراد الله سبحانه بحق الحاكمية .

كل حكم يقوم على قاعدة أن الحاكمية لله وحده ، ثم تنفذ فيه الشريعة الإسلامية ، هو حكم إسلامي . وكل حكم لا يقوم على أساس إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ولا تنفذ فيه هذه الشريعة ، لا يعترف به الإسلام ، ولو قامت عليه هيئة دينية ، أو حمل عنوانا إسلاميا !



والطاعة من المحكومين منوطة وموقوتة فقط باعتراف الحاكم بأن الحكم لله وحده، ثم تنفيذه لشريعة الله، بلا شرط آخر غير العدل في الحكم وطاعة الله.

(ح) والمشورة بين الحكام والمحكومين : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ <sup>(١)</sup> » ..  
« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ <sup>(٢)</sup> » .. فالشورى أصل من أصول الحياة في الإسلام ،  
وهي أوسع مدى من دائرة الحكم ، لأنها قاعدة حياة الأمة المسلمة كما تدل الآية .  
أما طريقة الشورى ، فلم يحدد لها نظاماً خاصاً ، وتطبيقها إذن متروك للظروف والمقتضيات .  
فقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستشير المسلمين - فيما لم يرد فيه وحى - ويأخذ  
برأيهم فيما هم أعرف به من شؤون دنياهم ، كمواقع الحرب وخططها .. سمع لرأيهم في  
غزوة بدر ، فنزل على ماء بدر بعد أن كان قد نزل على مبعدة منه ؛ وسمع لرأيهم في حفر  
الخنندق ؛ وسمع لهم في الأسرى مخالفاً رأى عمر ، حتى نزل الوحي بتأييد عمر .. أما ما كان  
فيه وحى ، فلا مجال فيه للشورى بطبيعة الحال ، فهو مقرر من مقررات الدين .

وكذلك سار الخلفاء في استشارة المسلمين : استشار أبو بكر في شأن مانع الزكاة وأنفذ رأيه في محاربتهم ؛ وكان عمر يعارض أولا ؛ ولكنه فاء إلى رأى أبي بكر اقتناعاً به ، بعد ما فتح الله قلبه له ، وهو يرى أبا بكر بصر عليه ؛ واستشار أهل مكة في حرب الشام على رغم معارضة عمر .. واستشار عمر في دخول الأرض الموبوءة وانتهى إلى رأى ، ثم وجد نصاً من السنة يؤيده فالتزمه . . . وهكذا كانت الشورى لا على نظام مقرر مرسوم ؛ لأن الظروف الواقعية كانت تعين أهل الشورى في كل فترة بحيث لا يلتبس الأمر في شأنهم . ولكن عمومية الأمر تدع المجال مفتوحاً لأشكال متعددة من النظم والطرق لا يحددها الإسلام ، اكتفاء بتقرير المبدأ العام .

(۱) سورة آل عمران : [ ۱۵۹ ] .

(۲) سورة الشورى : [ ۳۸ ] .

على أن الحركة الإسلامية في كل فترة تعين هي بطبيعتها أهل الشورى من أهل البلاء والسبق والرأى ؛ في يسر لا تعرفه الأنظمة البشرية <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

ليس للحاكم إذن - فيما عدا الطاعة لأمره ، والنصح له والمعونة على إقامة الشريعة - حقوق أخرى ليست لأي فرد من عامة المسلمين .

ومع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن حاكماً فحسب ، بل كان صاحب الشريعة ، فقد سن للحاكم حدوده في دائرة ما يمنحه الإسلام من حقوق ؛ وسار خلفاؤه على هداية - كما سيجيء في فصل الواقع التاريخي - فكان يُقَص من نفسه إلا أن يعفو صاحب الحق عنه ؛ وجاءه صاحب دين فأغلظ عليه ، فهم المسلمون به فأشار عليهم أن يدعوه ، لأن لصاحب الحق مقالا ! وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يحل لي من غنائمكم هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم <sup>(٢)</sup> » .

وقال لعشيرته وأهله الأقربين : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا . ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا . ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا <sup>(٣)</sup> » . وقال لعلي وفاطمة ، أحب الناس إليه : « لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تَلَوِي بطونهم من الجوع » وقال لهما في مرة : « لا أخدمكما وأدع أهل الصفة تطوى <sup>(٤)</sup> » . وقال : « إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . لو كانت فاطمة لقطعت يدها <sup>(٥)</sup> » .

---

(١) تفصيل هذا الإجمال في فصل : « مجتمع شوري » في كتاب : « نحو مجتمع إسلامي » .

(٢) أبو داود والنسائي . (٣) متفق عليه .

(٤) حديث رقم ٥٩٦ من المسند نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر . (٥) رواه الجماعة .

فليس للحاكم إذن حق زائد في الحدود ، ولا في الأموال ؛ وليس لأهله حق فيها غير ما  
لرجل من عامة المسلمين .

وليس للحاكم أن يعتدى على أرواح الناس وأجسادهم ، ولا حرمتهم أو أموالهم . فإذا  
هو أقام الحدود ، ونفذ الفرائض ، فقد انتهى إلى آخر حدوده ؛ وانقطعت سلطته على  
الناس ، وعصمهم الله من سلطانه : أرواحاً وأجساداً وحرماً وأموالاً . . .

ولقد ضمن الإسلام ، في أوامر صريحة عامة ، تلك الأرواح والأجساد والحرقات  
والأموال ، بصورة لاتدع مجالاً للشك في مدى حرصه على ضمانة الأمن والسلام والكرامة  
للجميع :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى  
أَهْلِهَا <sup>(١)</sup> » .. « وَلَا تَجَسَّسُوا <sup>(٢)</sup> » . والحديث : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه  
وماله » <sup>(٣)</sup> .. والنفس بالنفس .. والجروح قصاص .

\*\*\*

وحين يضيق الإسلام سلطة الإمام فيما يختص بشخصه ، يوسع له إلى أقصى الحدود في  
رعاية المصالح المرسله للجماعة ، تلك المصالح التي لم يرد فيها نص والتي تتجدد بتجدد الزمان  
والأحوال . فالقاعدة العامة : أن للإمام المسلم القائم على شريعة الله أن يحدث من الأقضية  
بقدر ما يجد من مشكلات ، تنفيذاً لقوله تعالى : « وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ  
حَرَجٍ » .. <sup>(٤)</sup> وتحقيقاً لأهداف الدين العامة ، في إصلاح حال الفرد وحال الجماعة ، وحال

(٢) سورة الحجرات : [ ١٢ ] .

(١) سورة النور : [ ٢٧ ] .

(٤) سورة الحج : [ ٧٨ ] .

(٣) الشيطان .

الإنسانية كلها ، في حدود المبادئ المقررة في الإسلام ، وبشرط العدل الذي يجب توافره في الإمام .

فكل ما يوقع بالأمة ضرراً من أى نوع ، على الإمام أن يزيله ؛ وكل ما يحقق للأمة نفعاً من أى نوع ، عليه أن يقوم به ، على ألا يخالف نصاً من نصوص الدين .

وهي سلطات واسعة تتناول جوانب الحياة كلها . وتحقيق العدالة الاجتماعية بكل ملابساتها داخل في هذه السلطات . فله أن يتجاوز في الناحية المالية مثلاً ، فريضة الزكاة إلى ضرائب أخرى يتحقق بها التعادل والتوازن ، وتزول بها الأحقاد والضغائن ؛ وترتفع بها عن الأمة مضار الترف ، ومضار الشطف ، ومضار احتباس المال في أيدي قلة من الناس ، ولكن دون أن يخل بنص أو بقاعدة أساسية من قواعد الحياة الإسلامية . فليس له أن يُخفى الناس ، فيأخذ كل ما لهم ويدعهم فقراء ؛ أو يجعل موارد رزقهم كلها في يديه يستذل أعناقهم بها ويجعلهم عبيداً له ؛ ويفقد هم القدرة على أن يقوموا بواجبهم في النصيحة الحرة والرقابة الواعية ، وتغيير المنكر أياً كان مصدره . فإن هذا كله لا يتأتى للأفراد قط ما لم تكن لهم موارد رزق خاصة لا يتحكم فيها الإمام والولاة . فالذي يملك موارد الرزق تذلل له رقاب العباد !

والواقع التاريخي في حياة الأمة الإسلامية قد حوى نماذج كثيرة من رعاية المصالح للرسالة - دون إخلال بقواعد الحياة الإسلامية التي أشرنا إليها - وهناك تطبيقات مستطاعة في كل وقت ، فالإسلام ليس نظاماً متججراً ؛ وتطبيقاته التفصيلية لا تقف عند عصر من العصور ، ولا بيئة من البيئات . وكل ما يريد الإسلام تثبيته هو القواعد الأساسية التي تحدد ملامحه الربانية ، وتحفظه المجتمع المسلم من الذوبان في المجتمعات الجاهلية ، أو تحرمه القدرة على قيادة هذه المجتمعات التي جاء لقيادتها .

\*\*\*

وبعد فهذا حديث عن الناحية « الرسمية » في « سياسة الحكم في الإسلام » ووراءها  
ناحية « التطوع » التي يتجاوز بها « التوجيه » ما يفرضه « التشريع » على طريقة الإسلام  
في كل تكاليفه ونظمه .

فسياسة الحكم في الإسلام تقوم على أساس من الضمير ، فوق قيامها على أساس من  
التشريع . تقوم على أساس أن الله حاضر في كل لحظة مع الحاكم والمحكوم ، رقيب على  
هذا وذاك : « مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة »<sup>(١)</sup> .  
« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا  
مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »<sup>(٢)</sup> ..

فالراعى والرعية مطالبان كلاهما برعاية الله في كل تصرف ، وخشية الله هي الضمانة  
الأخيرة في تحقيق العدالة . وقد مربنا أن الإسلام ينوط بالضمير البشرى بعد تهذيبه أموراً  
كباراً في الحدود وفي الأموال . فإذا لم تكن خشية الله في هذا الضمير ، فلا ضمان ، لأن  
التشريع يمكن الاحتيال عليه ، والتستر دونه ، وغش الحاكم والقاضى والناس .

ولا يفهم من هذا أن النظام الإسلامى الاجتماعى قائم على هذا الضمير وحده .  
ولكن الذى ينبغى أن يفهم هو أن فى الإسلام ضمانة أخرى غير مجرد التشريع . وهى  
تحسب له - من ناحية القدرة على التحقق - ميزة على النظم التى تعتمد على التشريع وحده ،  
بلا تخرج من ضمير ، ولا حساسية فى الشعور .

وسنرى فيما بعد أن هذا الضمير الذى رباه الإسلام وهذبه ، قام بأدوار خطيرة ، وجاء  
بما يشبه المعجزات والخوارق فى حياة المسلمين على مر العصور .

---

(٢) سورة البقرة : [١٨٨] .

(١) الشيخان .

## سياسة المال في الإسلام

لعل الحديث عن سياسة المال هو أدخل شيء في الحديث عن « العدالة الاجتماعية ». ولعل الكثيرين من القراء قد استبطأوا موعده في هذا الكتاب ، وهم يقرأون الفصول الأولى منه إلى هذا الموضع . ولكنني كنت أتعمد هذا الإبطاء به تعمداً ؛ فالعدالة الاجتماعية في الإسلام شيء أكبر من سياسة المال - كما عرفنا - وكان من الواجب أن نكشف عن نظرة الإسلام الكاملة إلى هذه العدالة . وأن نستعرض طبيعتها وأسسها ووسائلها في محيطها الواسع ، قبل أن نستعرضها في مجال المال وحده ، كما تصنع المبادئ المادية ، التي ترخص من قيم الحياة كلها عدا قيمة المال .

والإسلام يسير في « سياسة المال » على هدى نظريته العامة ، وفكرته الشاملة ؛ يلاحظ أولاً في هذه السياسة - سياسة المال - تحقيق معنى العبودية لله وحده ، بأن يخضع تداول المال لشرع الله . وهذا الشرع يحقق مصلحة الفرد ويحقق مصلحة الجماعة ، ويقف بين ذلك قواماً لا يضار الفرد ولا يضار الجماعة ؛ ولا يقف في وجه الفطرة ، ولا يعوق سنن الحياة الأصيلة ، وغاياتها العليا البعيدة .

وهو يتبع في تحقيق هذه السياسة وسيلتيه الأساسيتين : التشريع والتوجيه . فيبلغ بالتشريع الأهداف العملية الكفيلة بتكوين مجتمع صالح قابل للرق والنماء ، ويرمى بالتوجيه إلى التسامى على الضرورات ، والتطلع إلى حياة أرفع ، والرق بالحياة إلى عالم المثل ، الذي لا يملك الجميع أن يرتفعوا إليه في جميع الأحوال ، ويدع الباب دائماً مفتوحاً للرق والكمال .

ونضرب هنا مثلاً واحداً بشأن المال ، قبل أن نتحدث بالتفصيل عن « سياسة المال » .



لقد جعل الإسلام حق المال هو الزكاة ، وهو ما يقاتل عليه الإمام الناس إن امتنعوا عنه ، وما يفرضه عليهم بحق التشريع ، وبقدر معين معلوم ؛ ثم جعل للإمام الحق في أن يأخذ بعد الزكاة ما يمنع به الضرر ، ويرفع به الحرج ، ويصون به المصلحة للجماعة المسلمين ؛ وهو حق كحق الزكاة ، عند الحاجة إليه ، موكول إلى مصلحة الأمة وعدالة الإمام ، وقواعد النظام الإسلامى العام.

هذا في حدود التشريع ، أما التوجيه فقد حُب إلى الناس أن ينسلخوا من كل ما لهم ، وينفقوه كله في سبيل الله . فهذا أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يروى عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه ، فقال : « يا أبا ذر » فقلت : لبيك يا رسول الله . فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا - عن يمينه وشماله وقدّامه وخلفه - وقليل ما هم » . ثم قال : « يا أبا ذر » فقلت : نعم يا رسول الله بأبى أنت وأُمى . قال : « ما يسرنى أن لى مثل أحد ، أنفقه في سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » . قلت : أو قنطارين يا رسول الله . قال : « بل قيراطين » ثم قال : « يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل » (١) .

\*\*\*

ذلك هو التشريع ، وهذا هو التوجيه . وهما معاً قوام « سياسة المال » كما أنهما قوام كل سياسة في الإسلام .

وبعد فلنأخذ في التفصيل والبيان .

---

(١) الشيخان والترمذى والنسائى .

## الملكية الفردية

### هو الملكية الفردية

يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال - بوسائل التملك المشروعة التي سيرد بيانها بعد قليل - ويجعلها هي قاعدة نظامه ، ويرتب على هذا التقرير نتائجها الطبيعية في حفظ هذا الحق لصاحبه وصيانتها له عن السرقة أو النهب أو السلب أو الاختلاس بأية طريقة من الطرق ؛ أو المصادرة بدون ضرورة عامة مع التعويض الجزئي الذي لا غبن فيه . ويضع الحدود الرادعة لكفالة هذا كله ، فوق ما يضع من التوجيهات التهذيبية لكف النفوس عن التطلع إلى ما ليس لها ، وما هو داخل في ملك الآخرين ، كما يرتب عليه نتائجها الأخرى ، وهي حق التصرف في هذا المال بالبيع والإجارة والرهن والهبة والوصية... إلى آخر حقوق التصرف الحلال ، وفي نطاق الحدود التي سنبا للتصرفات .

ولا شبهة في تقرير هذا الحق الواضح الصريح في الإسلام ولا شبهة كذلك في أنه قاعدة الحياة الإسلامية وقاعدة الاقتصاد الإسلامي . القاعدة التي لا تخالف إلا لضرورة . وبقدر هذه الضرورة : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ »<sup>(١)</sup> . . « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوهَا أَكْلِيثَ بِالطَّيِّبِ »<sup>(٢)</sup> . . « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ »<sup>(٣)</sup> . . وقد جاء في الحديث : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ »<sup>(٤)</sup> .

(٢) سورة النساء : [٢] .

(٤) أخرجه الشيخان .

(١) سورة النساء : [٣٢] .

(٣) سورة الكهف : [٨٢] .

وعقوبة السرقة الصارمة دليل على احترام هذا الحق وصيانتة ، ومنع الاعتداء عليه :  
« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ » (١) ..

أما الغصب فهو محرم ملعون من يجترحه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ظلم من الأرض شيئاً طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » (٢) . « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان » (٣) .

وكحق الملكية حق الإرث والتوريث : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ . وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » .. « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ » .. « يَسْتَفْتُونَكَ . قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ . إِنْ أَمْرُو هَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... الخ » .

وتقرير حق الملكية الفردية يحقق العدالة بين الجهد والجزاء ، فوق مسايرة للفطرة ، واتفاقه مع الميول الأصيلة في النفس البشرية ، تلك الميول التي يحسب الإسلام حسابها في إقامة نظام المجتمع ؛ وفي الوقت ذاته يتفق مع مصلحة الجماعة بإغراء الفرد على بذل أقصى جهد في طوقه لتنمية الحياة . فوق ما يحقق من العزة والكرامة والاستقلال ونمو الشخصية للأفراد بحيث يصلحون أن يكونوا أمناء على هذا الدين ؛ يقفون في وجه المنكر ، ويحاسبون الحاكم وينصحونه . دون خوف من انقطاع أرزاقهم لو كانت في يديه !

فالفرد مخلوق بفطرة حب الخير لذاته : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » مفطور على حب الحياة والضمن بما يملك : « قُلْ : لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » .. « وَأُحْضِرْتُ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ » .. مفطور كذلك على حب ذريته والرغبة في أن يورثهم نتاج كده ، والمال الذي يدخره لهم إن هو إلا عمل مخزن في

(١) سورة المائدة : [٣٨] .

(٢) الشيخان واللفظ للبخارى . (٣) حديث رقم ٣٩٤٦ مسند الإمام أحمد نشر الأستاذ أحمد شاكر .

صورة مال . يؤثر به الرجل ذريته على متاعه الخاص في حياته . ولا ضير من مجارة هذه الميول الفطرية ، ليميل الفرد أقصى طاقته ، وهو نشيط مقبل على العمل والإنتاج ، لأنه يلبي أشواقه وحاجات نفسه ، ولا يحس أنه مستخر للعمل ، ولا يبذل جهده كارهاً ولا يأساً . والجماعة هي التي تفيد بعد ذلك من جهده هذا وكده ؛ والإسلام يضع القواعد التي تتيح للجماعة هذه الفائدة ، وتضمن كفا الأذى من إطلاق حرية الفرد ، وتقرير حق الملكية الفردية له .

والعدالة تقتضى أن يلبي النظام أشواق الفرد ويرضى ميوله — في الحدود التي لا تضر الجماعة — جزاء ما بذل هذا الفرد من طاقته وجهده ، وعرق جبينه ، وكدح فكره ، وكد أعصابه . والعدل أكبر قواعد الإسلام . والعدالة الاجتماعية لا تكون دائماً على حساب الفرد . فهي للفرد ، كما هي للجماعة . متى شئنا أن نسلك طريقاً وسطاً ، ونحقق العدالة في جميع صورها وأشكالها في الحياة .

وفضلاً على هذا كله فإن أحداً لا يجزم بأن تحطيم الحوافز الطبيعية المعقولة ينتج خيراً للفرد أو للجماعة ؛ وسوء الظن بالفطرة هو الذى يعين طريقاً واحداً للعدالة ، بتحطيم هذه الحوافز والوقوف في وجهها ؛ كما أن النظريات الخيالية التي لا تعترف بالواقع ، هي التي تفترض أن هذه الحوافز يمكن القضاء عليها من الخارج بالنظم والتشريعات في جيل أو عدة أجيال . والإسلام لا يسوء ظنه بالفطرة إلى هذا الحد ؛ كما أنه لا يعتمد إلى إقامة بنيانه على الخيال ، متجاهلاً كل الواقع العميق !

كذلك يمكن القول بأن احترام الإنسانية يقتضى أن ننظر إليها نظرة أعمق وأكث إدراكاً لعمق طبيعتها ، وأصالة فطرتها ، وتأصل جذورها ، فنكون أكثر تعقلاً ، وأشدّ تحرجاً ، وأدق تفكيراً في محاولة توجيهها ، وإقامة نظمها ؛ فدلائل ملايين السنين التي

عاشتها البشرية لا يجوز أن تذهب سدى ، لنفترض نظريات عن ميولها وفطرتها وسلوكها، ثم نطبق هذه النظريات غصباً وقسراً !

أما تقرير حق الإرث والتوريث فقد سبق الحديث عن علته في فصل « التكافل الاجتماعي » وهو يتمشى مع الفطرة التي تحدثنا عنها هنا ، كما يتمشى مع العدالة في مستواها الأعلى ، ومع مصلحة الجماعة في حدود النظرة الشاملة ، التي لاتضع الحواجز بين الجيل والأجيال من بني الإنسان ! وذلك فوق أنه وسيلة من وسائل تفتيت الثروة كما سيبنى .

### طبيعة الملكية الفردية :

ولكن الإسلام لا يدع حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيود ولا حدود - كالنظام الرأسمالي - فهو يقرره ، ويقرر بجواره مبادئ أخرى ، تجعله أداة لتحقيق مصلحة الجماعة بنفس الدرجة التي تتحقق بها مصلحة الفرد المالك سواء ! وهو يشرعه ويشرع له الحدود والقيود ، التي ترسم لصاحبه طرقاً معينة في تنميته وإنفاقه وتداوله .. ومصلحة الجماعة كامنة من وراء هذا كله ، ومصلحة الفرد ذاته كذلك ، في حدود الأهداف الخلقية التي يقيم الإسلام عليها الحياة .

وأول مبدأ يقرره الإسلام - بجوار حق الملكية الفردية - أن الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة ؛ وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكاً ؛ وأن المال في عمومه إنما هو أصلاً حق للجماعة ، والجماعة مستخلفة فيه عن الله ، الذي لا مالك لشيء سواه . والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهداً خاصاً لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة التي استخلف الله فيها جنس الإنسان .

جاء في القرآن الكريم : « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ

فِيهِ» <sup>(١)</sup> .. ولا يحتاج نص الآية إلى تأويل ليؤدى المعنى الذى فهمناه منه ، وهو أن المال الذى فى أيدي البشر هو مال الله ؛ وهم فيه خلفاء لأصلاء . وفى آية أخرى فى صدد المكاتيبين من الأرقاء : « وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » <sup>(٢)</sup> .. فما يعطونهم هذا المال من ملكهم ، ولكنهم يعطونهم من مال الله وهم فيه وسطاء .

وهناك ما هو أصرح من هذا فى حقيقة ملكية المال الفردية ، بوصفها ملكية التصرف والانتفاع - وهذا هو الواقع ؛ فالملكية العينية لا قيمة لها بدون حق التصرف والانتفاع - فشرط بقاء هذه الوظيفة هو الصلاحية للتصرف ؛ فإذا سفه التصرف كان لاولى أو للجماعة استرداد حق التصرف : « وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ » <sup>(٣)</sup> .. فحق التصرف مرهون بالرشد وإحسان القيام بالوظيفة ؛ فإذا لم يحققهما المالك وقفت النتائج الطبيعية للملك وهى حقوق التصرف . ويؤيد هذا المبدأ أن الإمام هو وريث من لا وريث له . فهو مال الجماعة وظف فيه فرد ، فلما انقطع خلقه عاد المال إلى مصدره .

ولست أقرر هذا الأصل لأقرر شيوعية المال - فحق الملكية الفردية حق أساسى واضح فى النظام الإسلامى - ولكنى أقرره لما فيه من معنى دقيق مفيد فى تكوين فكرة حقيقية عن طبيعة الملكية الفردية ، وتقيدها بهذا الأصل العام فى نظرة الإسلام إلى المال ، واختلافها كلية عن النظرية الرأسمالية فى الملكية الفردية . وبلغة أوضح : أقرر أن شعور الفرد بأنه مجرد موظف فى هذا المال الذى فى يده والذى هو فى أصله ملك للجماعة ، يجعله يتقبل الفروض التى يضعها النظام على عاتقه ، والقيود التى يحد بها تصرفاته ؛ كما أن شعور الجماعة بحقوقها الأصلية فى هذا المال ، يجعلها أجراً فى فرض الفروض ، وسن الحدود - دون

(٢) سورة النور : [٣٣] .

(١) سورة الحديد [٧] .

(٣) سورة النساء : [٥] .



تجاوز لقواعد النظام الإسلامى التى أشرنا إليها .. وينتهى بهذا إلى قواعد تحقق العدالة الاجتماعية كاملة فى الانتفاع بهذا المال .

ومبدأ آخر يقرره الإسلام فى ملكية المال ، هو كراهيته لأن يجبس فى أيدي فئة خاصة من الناس ، يتداول بينهم ، ولا يجده الآخرون : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »<sup>(١)</sup> .. ومعنى هذا أن يؤخذ بعض المال من الأغنياء فيملك بالفعل للفقراء . ولهذا النص قصة تفيدنا هنا فى فهم هذا المبدأ الإسلامى العام .

لقد هاجر المهاجرون مع النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ؛ فأما الفقراء فما كان لهم مال ينقلونه معهم ؛ وأما الأغنياء فقد تركوا أموالهم خلفهم ، فهم فقراء كالفقراء . ولقد سخت نفوس الأنصار وارتفعت على الشح الفطرى الكامن فى النفس البشرية ؛ فأخوا المهاجرين فى كل شئ يملكون ، حتى فى أخص خصوصياتهم ، طيبة نفوسهم بذلك ، سمحة قلوبهم : « يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »<sup>(٢)</sup> .. وبذلك كانوا نموذجا رائعا لما تصنعه العقيدة بالنفوس ؛ وضربوا مثلا جميلا للتخلص من ضغط الضرورات والانطلاق إلى أرفع الأشواق .

ولكن الفجوة ظلت واسعة بين أثرياء المدينة ، وفقراء المهاجرين ؛ والنبى - صلى الله عليه وسلم - يرى سماحة الأنصار وسخاءهم ، فلا يجد أن به حاجة لأن يطلب إليهم أكثر مما بذلوا ، ولا أن يكلفهم رد بعض من أموالهم على المهاجرين ، وهم يؤاخونهم فى كل ما يملكون .. إلى أن كانت موقعة « بنى النضير » التى لم تقع فيها حرب ، بل سلمت للنبي صلحا ، فكان فيؤها كله لله وللرسول بخلاف ما يقع فيه الحرب ، فتكون أربعة الأخماس للمقاتلين ، والخمس وحده لله وللرسول . عندئذ رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) سورة المشر : [٧] .

(٢) سورة الحشر : [٩] .

أن يعيد لجماعة المسلمين شيئاً من التوازن في ملكية المال ؛ فنحن فيء بني النضير للمهاجرين خاصة ، عدا رجلين فقيرين من الأنصار ، تنطبق عليهما الحكمة التي أوحى إليه بتخصيص هذا الفيء للمهاجرين .

وفي هذه الواقعة يقول القرآن : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ، وَلِالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَأَبْنِ السَّبِيلِ - كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ - وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ <sup>(١)</sup> » .

ودلالة هذا التصرف من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهذا التعليل لذلك التصرف في القرآن ، غير خافية ولا في حاجة إلى بيان ؛ فهي تقرر مبدأ إسلامياً صريحاً ، هو كراهة انحباس الثروة في أيدي قليلة في الجماعة ؛ وضرورة تعديل الأوضاع التي تقع فيها هذه الظاهرة بتعميلك الفقراء قسطاً من المال . ليكون هناك نوع من التوازن ، و « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ذلك أن تضخم المال في جانب وانحساره في الجانب الآخر ، مثار مفسدة عظيمة ، فوق ما يثيره من أحقاد وأضغان .. فحيثما وجدت ثروة فائضة ، كانت كالطاقة الحيوية الفائضة في الجسد ، لا بد لها من تصريف ؛ وليس من المضمون دائماً أن يكون هذا التصريف نظيفاً ومأموناً ، فلا بد أن تأخذ طريقها أحياناً في صورة ترف مفسد للنفس مهلك للجسد ، وفي صورة شهوات تقضى ، تجد متنفسها في الجانب الآخر المحتاج إلى المال ، يصل إليه عن طريق بيع العرض والاتجار فيه ، ومن طريق الملق والكذب وفناء الشخصية ؛ لإرضاء شهوات الذين يملكون المال ، وتملق غرورهم وخيالاتهم ، والمضطر يركب الصعب ؛

(١) سورة الحشر : [ ٧ ، ٨ ] .

وصاحب المال المتضخم لا يعنيه إلا أن يجد متصرفاً للفائض من حيويته ، والفائض من ثروته .  
وليست الدعارة وسائر ما يتصل بها من خمر وميسر وتجارة رقيق وقوادة ، وسقوط مروءة ،  
وضياع شرف .. سوى أعراض لتضخم الثروة في جانب وانحسارها عن الجانب الآخر ، وعدم  
التوازن في المجتمع نتيجة هذا التفاوت .

ذلك عدا أحقاد النفوس ، وتغير القلوب على ذوى الثراء الفاحش من المحرومين الذين  
لا يجدون ما ينفقون ؛ فهم إما أن يحقدوا ؛ وإما أن تهاوى نفوسهم وتهافت ، وتتضاءل  
قيمهم الذاتية في نظر أنفسهم ؛ قهون عليهم كراماتهم أمام سطوة المال ، ومظاهر الثراء ؛  
ويصبحوا قطعاً آدمية حقيرة صغيرة ، لاهم لها إلا إرضاء أصحاب الثراء والجاه .  
.. وهذا ما وقع في النظام الرأسمالي ..

والإسلام على كثرة ما يشيد بالقيم المعنوية ، لا يغفل أثر القيم الاقتصادية ؛ ولا يكلف  
الناس فوق طاقتهم البشرية ، مهما تسامى بهم عن الضرورات الأرضية . لذلك كره أن  
يكون المال دولة بين الأغنياء فحسب ؛ وجعل هذا أصلاً من أصول نظريته في سياسة المال .  
وأوجب رد بعض هذا المال للفقراء ؛ ليكون لهم مورد رزق مملوك لهم ، يضمن لهم الكرامة  
والذاتية ، ويجعلهم قادرين على القيام بأمانة هذا الدين في التغيير على المنكر من الحكم  
والمحكومين سواء .

على أن هناك نوعاً من الأموال التي لا يجوز احتجازها للأفراد ، عدد الرسول منها  
ثلاثة : الماء ، والكلاً ، والنار ؛ « الناس شركاء في ثلاث : في الماء والكلاً والنار<sup>(١)</sup> » ، بوصفها موارد ومرافق عامة ضرورية لحياة الجماعة في البيئة العربية ، فالانتفاع  
بها للجماعة كلها على وجه الشيوع والمشاركة العامة . والضروريات لحياة الجماعة تختلف في  
بيئة عن بيئة ، وفي عصر عن عصر ، والقياس - وهو أحد أصول التشريع في الإسلام -

---

(١) ذكره صاحب مصابيح السنة في الحسان .

ينفسح لسواها عند التطبيق مما هو في حكمها - على ألا يؤثر ذلك في القواعد الأساسية للنظام الإسلامي ؛ ولا يجرد الأفراد جميعاً من ملكياتهم الخاصة ليصبحوا أجراء عند الدولة ، فإن الدولة عندئذ تملك استرقاقهم واستذلال رقابهم بأشد مما يملك الأفراد الأثرياء ، لأنها تضم قوة المال إلى قوة السلطان !

وهناك جزء من المال هو حق لبعض المحتاجين في الجماعة ، وهو المفروض في صورة زكاة : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » <sup>(١)</sup> .. وهو يخرج من ملكية دافعي الزكاة إلى ملكية مستحقى الزكاة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين .... الخ » وهو حق تأخذه الجماعة ثم ترده مرة أخرى إلى الأفراد المحددين . فتكون وظيفة الجماعة حينئذ هي نقل الملكية الفردية من جهة إلى جهة ، ومن يد إلى يد أخرى ..

نخلاصة الحقيقة عن طبيعة الملكية الفردية في الإسلام : أن الأصل هو أن المال للجماعة في عمومها ؛ وأن الملكية الفردية وظيفية ذات شروط وقيود ؛ وأن بعض المال شائع لاحق لأحد في امتلاكه ، ينتفع به الجميع على وجه المشاركة ، وأن جزءاً منه كذلك حق يرد إلى الجماعة لترده على فئات معينة فيها ، هي في حاجة إليه ، لصالح حالها وحال الجماعة معها .

### وسائل التملك الفردي :

ويرتب الإسلام على نظريته هذه لطبيعة الملكية نتائجها المنطقية ، فيضع الشروط للتملك ، بحيث لا يخرج عن مصلحة الجماعة ، ومصلحة الفرد الداخلة في مصلحة الجماعة لا تنفصل عنها أبداً .

فهو يقرر أولاً أن الملكية لا تكون إلا بسلطان من الشارع . « فالشارع في الحقيقة هو الذي أعطى الإنسان الملك بترتيبه على السبب الشرعي ، ولذا جاء في بعض التعريفات :

---

(١) سورة الماعز [ ٢٤ - ٢٥ ]

« أن الملك حكم شرعى مقدر فى العين أو المنفعة ، يقتضى تمكين من يضاف إليه من انتفاعه بالشئ وأخذ العوض عنه » .

« وهذا المعنى ، وهو أن الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع وتقريره ، أمر متفق عليه بين فقهاء الإسلام ، لأن الحقوق كلها ، ومنها حق الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع لها ، وتقريره لأسبابها ، فالحق ليس ناشئاً عن طبائع الأشياء ، ولكنه ناشئ عن إذن الشارع ، وجعله السبب منتجا لمسببه شرعاً <sup>(١)</sup> » .

ولهذا الحكم قيمته فى توضيح نظرية الإسلام فى حق الملكية ، فهى تمليك من الشارع ، لفرد فى الجماعة ، شيئاً خاصاً ، لم يكن ليحق له ملكه لولا هذا التمليك ، لأن الأصل أن المال مال الله مستخلف فيه بنو الإنسان ، وكل إذن بتخصيصه لابد أن يصدر من الشارع حقيقة أو حكماً .

والعمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك فى الإسلام . العمل بكل أنواعه وألوانه . وفى هذا من العدالة بين الجهد والجزاء مافيه . ولبيان ذلك نقول : إن وسائل التملك ابتداءً للمال التى يعترف بها الإسلام هى :

أولاً : الصيد . وهو الوسيلة البدائية الأولى فى حياة البشرية ؛ وإن كانت مازال وسيلة للحصول على نوع من المال فى الأوساط التى ارتقت وتحضرت ، فصيد السمك والآلئ والمرجان والإسفنج وما إليها موارد ضخمة من موارد الدول والأفراد . وصيد الطير والحيوان هواية وتجارة ...

ثانياً : إحياء الموات من الأرض التى لامالك لها ، بأية وسيلة من وسائل الإحياء . ولابد من أن يقوم الفرد بإحيائها فى ظرف ثلاث سنوات من وضع يده

---

(١) « الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

عليها ، وإلا سقط حق ملكيته لها ، لأن الغرض هو إحياء الموات لتحقيق المصلحة العامة في الاستفادة به ، وثلاث سنوات محك كاف لقدرة واضع اليد على هذا الإحياء ، فإن لم تتبين هذه القدرة عادت الأرض الموات التي لم يكن لها مالك للجماعة ، لا يحتجزها فرد منها : « عادى الأرض لله ولرسوله ، ثم لكم من بعد ، فمن أحيأ أرضاً ميتة فهي له ؛ وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين <sup>(١)</sup> » .

والقانون الإسلامى هنا أحكم من القانون الوضعى المستمد من القانون الفرنسى . ففي هذا القانون يكفى « وضع اليد » مدة خمس عشرة سنة ، لتصبح الأرض ملكاً لو اضع اليد ، سواء أحيأها أم تركها مواتاً فى هذه المدة وفيما بعدها كذلك . فالحكمة هنا متتفية فى تقرير حق الملكية ، ونظرية « الأمر الواقع » هى وحدها التى تتحكم ، وفرق بين النظرة الإسلامية ونظرة القانون الوضعى كبير !

ثالثاً : استخراج ما فى باطن الأرض من المعادن (الركاز) ، وهذا العمل يجعل أربعة أخماس ما يستخرج من معدن ملكاً لمن استخرجه ، والخمس زكاة ، إذ كان هذا الركاز مباحاً يحصل عليه الفرد بمجده وكده . وهنا لابد من كلمة تقال : فقد كان ما يستخرج من الركاز إلى الوقت الذى شرع فيه هذا الحكم هو من المعادن القليلة الاستعمال ، كالذهب والفضة ، وهذه ليست من ضروريات الجماعة كلها كالبتروى والفحم والحديد ، فهل يلحق البتروى والفحم والحديد وما فى حكمها بالضروريات المشاعة كالماء والكلاء والنار ، أم بالركاز الذى كان معروفاً فى أوائل عهد الإسلام ؟ نحن نميل إلى رأى المالكية فى اعتبار هذه الأنواع ملكاً عاماً ، لا تنتقل ملكيته إلى مالك الأرض التى وجد فيها ، لأن تملكه للأرض لا يعنى تملك ما فيها ، إذ ليس لمثلها تملك الأرض وتطلب فى العادة .

---

(١) رواه أبو يوسف فى كتاب الخراج عن ليث عن طاوس .

رابعاً : تصنيع المادة الخامة ، لتفي بحاجة حيوية ، وتحقق منفعة لم تكن تحققها وهي خامة . أو تحسين وظيفتها بحيث تؤدي منفعة أكبر .. وقيمة العمل - بأنواعه - واضحة في هذه العملية .

خامساً : التجارة ، وتتضمن مراحل متعددة قد يقوم بها كلها فرد واحد أو أفراد متعددون . ولكن الغاية التي تتحقق في النهاية هي نقل الأشياء الخامة أو المصنعة من يد إلى يد ، مما يزيد الانتفاع بالخامة أو السلعة .

سادساً : العمل بأجر للآخرين . والإسلام يحترم هذا العمل ويعظمه ؛ ويدعو إلى توفية أجره معجلاً كاملاً غير منقوص . فالقرآن يفرى بالعمل ؛ ويجعله معرضاً للأُنظار ، محلاً للنظر والحكم : « وَقُلِ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> » .. وفي ذلك إغراء بالتجويد والإتقان ، كما أن فيه تعظيماً للعمل يجعله موضع النظر والترقب والتأمل . وفي موضع آخر يحض على السعي والاضطراب في الأرض من أجله : « فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ <sup>(٢)</sup> » .

والرسول الكريم تتوارد أحاديثه تترى عن قداسة العمل : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » <sup>(٣)</sup> . « ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من عمل يده » <sup>(٤)</sup> .

وعلى أساس هذه النظرة للعمل ، يحترم الإسلام حق العامل في الأجر . فهو يدعو أولاً إلى الوفاء به ، وينذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحرب من الله وخصومة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكُل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه

(١) سورة التوبة : [ ١٠٥ ] .

(٢) سورة الملك : [ ١٥ ] .

(٣) من حديث ذكره القرطبي في التفسير .

(٤) البخاري .



أجره»<sup>(١)</sup>. والجمع بين هذه المعاصي الثلاثة، وتوحيد الجزاء عليها، ذو دلالة خاصة، فالمعصية الأولى هي خيانة وغدر لذمة الله، والثانية هي جريمة إهدار لإنسانية حر وأكل ثمنه. والثالثة هي أكل عرق الأجير، وهي كأكل ثمن الحر غدر بالإنسانية، وكخيانة العهد بعد الحلف بالله غدر بذمة الخالق. وكل منها يستحق الحرب من الله والخصومة، لشناعتها ووضوح معنى الغدر فيها.

وهو يدعو ثانياً إلى التعجيل بأداء هذا الأجر، فلا يكفي أدائه كاملاً، بل لابد من أدائه عاجلاً. يقول الرسول الكريم: «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»<sup>(٢)</sup>. والإسلام يلحظ في هذا حاجة نفسية وحاجة واقعية في حياة العامل. فأما الحاجة النفسية فهي إشعاره بالعناية والاهتمام، فالسرعة في أداء الأجر تحمل هذا المعنى، فيشعر بأن جهده مقدر وبأن مكانه في المجتمع محسوب. وأما الحاجة الواقعية فلأن العامل غالباً ما يكون محتاجاً لأجره أولاً بأول، يسد به ضرورياته هو وأهله وعياله؛ وتأخير أدائه يؤذيه؛ ويحرمه ثمرة جهده وعرقه في أنسب أوقاتها عنده؛ ويقلل من نشاطه ورغبته في العمل. والإسلام حريص على أن يعمل كل من يستطيع، بأقصى ما يستطيع، متمتعاً بالرضى النفسي والاكتفاء المادي.

ولقد طلب الإسلام إلى العامل في مقابل هذه العناية بحقه أن يقوم هو من جانبه بتجويد العمل وإتقانه. فلكل حق مقابل من الواجب في الإسلام. وذلك طبيعي من ناحية التعادل بين الجهد والجزاء؛ وطبيعي كذلك من الناحية الخلقية التي يحرص الإسلام على أن تكون أساساً للحياة. فالفسح والإهمال في العمل دليل فساد الذمة ونومة الضمير، واللجاج فيهما والاعتیاد عليهما من شأنه أن يدع تلك الذمة خراباً، وهذا الضمير خواء، فوق ما يصيب مصالح الجماعة كلها من فساد واضطراب.

(١) البخاري.

(٢) ذكره صاحب مصابيح السنة في الصحاح.

ولا ندخل هنا في تفاصيل نسبة أجر العامل . ولا القاعدة التي تقوم عليها . وهل هي الساعات التي تنفق في إنتاج السلعة . أم « الوقت الاجتماعي » كما تقول الماركسية ! فهذه بحوث تفصيلية موضعها الكلام عن « الاقتصاد الإسلامي » في بحوث متخصصة .

سابعاً : الغزو ، وينشأ عنه ملكية السلب وهو كل ما مع القتل المشترك الذي يقتله مسلم : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَسَلَبَهُ لَهُ <sup>(١)</sup> » . كما تنشأ عنه ملكية الغنيمة ؛ وأربعة أخماسها للمحاربين ، وخمسها لله والرسول : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ <sup>(٢)</sup> » .

ثامناً : إقطاع السلطان بعض الأرض التي لامالك لها ، مما آل إلى بيت مال المسلمين ، من المشركين الذين لا ورثة لهم ، فالإمام وليهم ؛ أو من الأرض الموات لامالك لها كذلك . وقد أقطع النبي صلى الله عليه وسلم أبابكر وعمر أرضاً ، كما أقطع الخلفاء من بعده ، مكافأة على جهد بارز وخدمة للإسلام ، ولكن في حدود ضيقة ، ومن الأرض التي لامالك لها والأرض الموات . فلما جاء بنو أمية نهبوا الناس وأقطعوا الأرض لذويهم ، فكانوا ملوكاً ظلمة ، لا خلفاء راشدين كما سيجيء .

تاسعاً : الحاجة إلى المال للحياة ، فالإسلام شرع صرف أموال الزكاة في وجوه معينة : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ؛ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَبْنِ السَّبِيلِ » . فكون الإنسان واحداً من هؤلاء يجعله صاحب حق في ملكية نصيب من أموال الزكاة . وبعضهم لا يعمل شيئاً إلا كونه محتاجاً ! فالحاجة هنا بديل اضطراري من العمل الذي يكرمه الإسلام ، ويجعله السبب الأول والأخير لنيل الامتلاك .

(١) الشيخان والترمذي والنسائي . (٢) سورة الأنفال : [٤١] .

عاشرا : شتى صور « العمل » التى تتجدد ، وتتمثل فى بذل جهد عقلى أو عضلى ... تلك هى الأسباب التى اعترف بها الإسلام سبباً للتملك ابتداء ، فأما ماعداها فهو ينكره ، ولا يعترف به ، فالسلب والنهب والفصب والسرقة ووضع اليد لا تسبب ملكا ، وكذلك المقامرة فهى حرام : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » <sup>(١)</sup> .. والمال الذى يأتى عن طريق المحرم محرم ، لأن القمار ليس عملاً ، إنما هو ابتزاز ، فوق مايقع من العداوة والبغضاء بين المتقارمين مما يتنافى مع خطة الإسلام الأولى فى بث روح المودة والتعاون والإخاء : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » <sup>(٢)</sup> .

وحكمة تلك الأسباب واضحة فى اعتمادها كلها على بذل الجهد ؛ فالجهد له جزاء ، وهو من مقومات الحياة ، وفيه تحقيق لعمارة الأرض ، وإفادة المجتمع ، وتهذيب النفس ، وتطهير الضمير وتصحيح البنية ؛ فليس كالعمل مهذب للروح ، مقوٍ للجسد ، حافظ لكيان الإنسان كله من عوامل الترهل والكسل والخمول .

ومادام العمل – بشتى صوره – هو سبب التملك ، فتقرير حق الملكية الفردية فى الحدود التى بَيَّنَّا لا يضار به أحد ، بل يصبح مجالا لحث الفرد على بذل أقصى الجهد ، ليرضى رغبته فى الاستحواذ ، مادام يعمل فى الحدود المشروعة فلا يضار أحداً . فإذا حاد عن هذه الحدود فالطريق إلى العدل هو رده إليها ، لا وقفه عن النشاط ، وتسويته بالقاعدين والخاملين وضماف الاستعداد ، ولا كفه عن التملك أصلاً بحجة أخذ الطريق على سوء الاستغلال . فسوء الاستغلال له علاجه ويمكن التدخل لكفه بقدر الضرورة .

وتمشياً مع نظرية الإسلام فى ملكية المال ابتداء ، فإنه يتدخل فى طريقة نقل هذه الملكية فلا يدع الحرية فيها مطلقة ؛ ويبدو هذا فى نظام الإرث والوصية والبيع وسائر

( ١ ، ٢ ) سورة المائدة : [ ٩٠ ، ٩١ ] .

العقود، أما الهبة والهدية فهما وحدهما المعفيان من كل قيد، المتروكة فيهما الحرية لصاحب المال أن يهب من ماله أو يهدى وهو حتى كيف شاء؛ لأن لهما قيداً من داخل النفس، هو أن صاحب المال لا يهب عادة ولا يهدى إلا بعض ماله، فلا ضرر على وارث، كما يقع في الوصية، فإذا أسرف كان سيء التصرف، وتعرض للحجر عليه، أي سلب حق التصرف في ملكيته.

فأما حين ترتفع يده عن المال فينتقل إلى من بعده من الورثة أو الموصى إليهم، فإنما ينتقل حسب نظام موضوع له حكمته وله مبرراته: «فلا وصية لوارث»<sup>(١)</sup>. ولا وصية في غير الثلث، وهو الحد الأقصى. وقد شرعت الوصية - كما قلنا - لتلافي بعض الحالات التي يحرم فيها من الإرث أقرباء توجب صلاتهم أن يكون لهم نصيب، ولكن درجاتهم تجعل غيرهم من الورثة يحجبونهم عن الميراث، كما أنها بهذا الاعتبار وجه من وجوه البر والصدقة.

وينتقل المال بالإرث حسب النظام المبين في آيتي الميراث. (وقد سبق نصهما في فصل التكافل الاجتماعي).

والمبدأ العام في الأنصبة: أن للذكر مثل حظ الأنثيين - وقد كشفنا عن حكمة هذا التقسيم من قبل - وأن الوريث العاصب مقدم على ذي الرحم، وإن كانت هناك حالات يخرج فيها ذو الرحم بنصيب أو في. وذلك جزاء وفاق على ترتيب التبغات في مقابل الحقوق. فالوريث العاصب مكلف تجاه المورث بتبغات أكبر. فالولد مثلاً يرث الكل بعد نصيب الجد والجدة، لأنه هو المكلف أولاً أن ينفق على الوالد لو احتاج في حياته. والأخ الشقيق يحجب غير الشقيق، لأنه هو الذي تجب عليه النفقة شرعاً عندما يعجز شقيقه عن الكسب. وهكذا تتوزع المغارم والمغانم أو الواجبات والحقوق في هذا النظام توزيعاً عادلاً.

(١) أبو داود والترمذي.

- ولقد تحدثنا عن حكمة مبدأ الوراثة في فصل التكافل الاجتماعي بما فيه الكفاية ،  
وبينا اتساقه مع مبادئ الإسلام الأساسية في هذا التكافل ، وفي النظرة إلى العلاقات  
بين الأقرباء وبين الجيل والأجيال ، ومراعاته كذلك للفطرة والميول وحاجات الفرد  
والجماعة على السواء .

فها نتحدث عن حكمة نظام الإرث في أحوال الجماعة .  
لقد رأينا أن الإسلام يكره تكديس الثروات ، وانحصارها في أيدي قليلة . ونظام الإرث  
الإسلامي أداة لتفتيت الثروات المتضخمة على توالي الأجيال . فالملكية الواحدة تنتقل إلى  
العديد من الذرية والأقارب بمجرد وفاة المالك ، فتستحيل إلى ثروات متوسطة أو صغيرة ؛  
وقلما تبقى كتلتها موحدة مع هذا النظام إلا في حالات نادرة لا يقاس عليها ، كأن يموت  
المالك وليس له إلا ولد يرث التركة كلها ، لأنه ليس له أب ولا أم ولا زوجة ولا بنت !  
أما في الأحوال الغالبة فالثروة تتوزع على عدة أفراد .

فإذا نحن وازنا بين هذا النظام والنظام الإنجليزي مثلا ، الذي يجعل التركة كلها للابن  
الأكبر ، تبينت لنا حكمة الإسلام واضحة في تفتيت الثروة المتكتلة ، فوق ما في نظامه من  
عدالة بين الورثة ، لا تحقق الصدور على الولد الكبير .

### طرق تنمية الملكية :

وتمشيا مع نظرية الإسلام كذلك في ملكية المال ، يتدخل في طريقة تنميته والتعامل  
به ، فلا يدع الحرية مطلقة لصاحب المال أن يتصرف به في هذا السبيل كيف شاء . فإن وراء  
مصلحة الفرد مصلحة الجماعة التي يتعامل معها .

لكل فرد إذن الحرية في تنمية أمواله ، ولكن في الحدود المشروعة . فله أن  
يفلح الأرض ، وأن يحول المادة الخام إلى مصنوعات ، وله أن يتجر . . . الخ .

ولكن ليس نه أن يفش ، أو يحتكر ضروريات الناس ، أو أن يعطى أمواله بالربا ، أو أن يظلم في أجور العمال ، ليزيد في أرباحه . فذلك كله حرام . إنما هي الوسائل النظيفة وحدها التي يبيحها الإسلام لتنمية المال . والوسائل النظيفة عادة لا تضخم رؤوس الأموال إلى الحد الذي يباعد الفوارق بين الطبقات . إنما تتضخم رؤوس الأموال ذلك التضخم الفاحش الذي نراه في النظام الرأسمالي ، بالغش والربا وأكل الأجور والاحتكار واستغلال الحاجة والابتزاز والنهب والسلب والاعتصاب . . . إلى آخر الجرائم البكامة وراء طرق الاستغلال المعاصرة . وهذا ما لا يسمح به الإسلام . . . فلنأخذ الآن في بيان حكم الإسلام وحكمته في وسائل تنمية المال .

\*\*\*

« ١ » يحرم الإسلام الغش في المعاملة : « من غش فليس مني »<sup>(١)</sup> . « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما »<sup>(٢)</sup> . « فلك أن تبيع وأن تشتري ، على ألا تغش في السلعة ولا في العملة ، فإن كان بها عيب فعليك ببيانه ، وإلا فأنت غاش وربحك عليك حرام ، ولن ينجيك من المؤاخذه أن تتصدق بهذا الربح الحرام ، فالصدقة لا تحسب لك إلا من مالك الحلال : عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يكسب عبد مالا حراما فيتصدق منه ، فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن . إن الخبيث لا يمحو الخبيث »<sup>(٣)</sup> . وقال : « إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به »<sup>(٤)</sup> .

(١) أصحاب السنن .

(٢) الشيخان .

(٣) ذكره صاحب مصابيح السنة مرويا عن ابن مسعود وقال : من الصحاح .

(٤) أخرجه الترمذي والنسائي .

والإسلام في هذا يسير على قواعده الخلقية ، كما يسير على مبادئه في منع الضرر وتحقيق التعاون بين الناس ، فالغش قذارة ضئيلة ، وإضرار بالآخرين ، ورفع الثقة من صدور الناس . ولا تعاون في الجماعة من غير ثقة . فضلاً على أن ثمرة الغش هي الحصول على كسب بلا جهد مشروع . وقاعدة الإسلام العامة هي أن لا كسب بلا جهد ، كما أنه لا جهد بلا جزاء .

« ب » واحتكار ضروريات الناس لا يعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب وتنمية المال : « من احتكر فهو خاطيء »<sup>(١)</sup> . ذلك أن الاحتكار إهدار لحرية التجارة والصناعة ، فالمحتكر لا يسمح لسواه أن يجتلب ما يجتلبه ، أو يصنع ما يصنعه ؛ وبذلك يتحكم في السوق ، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار ، فيكلفهم عتياً ، ويحملهم مشقة ، ويضارهم في حياتهم وضرورياتهم ، فوق أنه يقفل باب الفرص أمام الآخرين ليرتزقوا كما ارتزق ، وليجودوا فوق ما جود ؛ وقد يقع أحياناً أن يسد المحتكر الموارد وأن يتلف البضاعة الفائضة ، حتى يتمكن من فرض سعر إجباري ؛ وفي ذلك إعدام أو نقص في الأرزاق والأقوات العامة التي أتاحها الله للإنسان في الأرض .

ولقد بلغ حرص الإسلام على منع هذه الوسيلة من وسائل تنمية المال ، أن جعل الاحتكار مبيحاً للمحتكر من دائرة الدين : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه »<sup>(٢)</sup> . فما هو بمسلم ذلك الذي يضار الجماعة هذه المضارة ، ويشيع فيها الخوف ، والحاجة إلى الضروري ؛ ليحصل منها على كسب حرام يزيد به ماله الخاص على حساب الصالح العام .

(١) مسلم وأبو داود والترمذي .  
(٢) حديث رقم ٤٨٨٠ مسند أحمد شرح الأستاذ أحمد شاكر .



« ج » والربا وسيلة محرمة يكرهها الإسلام كراهية واضحة ، ويتشعبها تبشيعاً شديداً وينذر أصحابها بأشنع مضر : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » <sup>(١)</sup> .. وليس النهي هنا عن الأضعاف المضاعفة فتحل النسب الصغيرة ، إنما هذا تقرير للواقع ، ووصف لما هو كائن . أما النهي فنصب على أصل الربا ومبدئه المجرد ، يتضح ذلك في الآيات الأخرى : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا . وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » <sup>(٢)</sup> .. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » <sup>(٣)</sup> .

ويبلغ الإسلام في تفضيع الربا إلى حد أن يلعن كل من شارك في صفقة من صفقاته ، ولو كاتباً أو شاهداً . عن جابر قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ؛ وقال : هم سواء » <sup>(٤)</sup> .

يجرى الإسلام في كل هذا على مبادئه في المال والأخلاق ومصالح الجماعة . ~~فالدليل وديعة~~ في يد صاحبه وهو موظف فيه لخير الجماعة جميعاً ، فليس له أن يتلبس الوظيفة لإضراراً بالناس وابتزازاً ، يتحين ساعة احتياجهم ، ويستغل ضعفهم ، فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم ؛ وقد تكون الحاجة هي حاجة الطعام ، وحاجة الدواء للعلاج ، وحاجة النفقة للعلم وغير

(٢) سورة البقرة : [ ٢٧٥ ] .

(٤) رواه مسلم .

(١) سورة آل عمران : [ ١٣٠ ] .

(٣) سورة البقرة : [ ٢٧٨ - ٢٧٩ ] .

العلم ؛ فإما أن يتعطل هذا كله ، وإما أن يتحكم صاحب المال في المحتاج إلى المال فيمنحه القليل ، ويسترد منه الكثير ؛ ويظلمه بذلك جهده ؛ فيكد ويعمل ليؤدى للمرابى رباؤه، أو يتضاعف الدين عاماً بعد عام .

هذا الجزء الفائض يستمتع به صاحب المال ، وهو لم يعمل شيئاً سوى أنه صاحب مال ! إنه العرق والدم بلغ فيهما بشراة ، ويمتصهما في نهم وهو قاعد . والإسلام الذى يقدر العمل ، ويجعله السبب الأساسى للملك والربح ، لا يسيغ أن يفيد المال قاعد ، ولا أن يلد المال المال . إنما يلد المال الجهد ، وإلا فهو حرام !

ويلحظ الإسلام طهارة خلق الفرد كما يلحظ المودة بين الجماعة ؛ فما يأكل الربا فرد له خلق وضمير ، وما يشيع الربا فى الجماعة وتبقى فيها مودة وتعارف . والذى يمنحنى الدينار ليسترده منى درينارين هو عدوى ، فما أطيب له نفسا ، وما أحمل له ودا . والتعاون أصل من أصول المجتمع الإسلامى ، يهدمه الربا ويوهن أساسه . لذلك يكرهه الإسلام .

وثمة حكمة أخرى تبرز لنا فى هذا العصر الحديث لتحريم الربا ، ربما لم تكن بارزة حينذاك ؛ ذلك أن الربا وسيلة لتضخيم رؤوس الأموال تضخيماً شديداً . لا يقوم على الجهد ؛ ولا ينشأ من العمل ؛ مما يجعل طائفة من القاعدين يعتمدون على هذه الوسيلة وحدها فى تنمية أموالهم وتضخيمها ، فيشيع بينهم الترهل والبطالة والترف على حساب الكادحين الذين يحتاجون للمال فيأخذونه بالربا فى ساعة العسرة . وينشأ عن ذلك مرضان اجتماعيان خطران : تضخيم الثروات إلى غير حد ، وتفريق الطبقات علوا وسفلا بغير قيد ؛ ثم وجود طبقة متعطلة مترهلة مترفة لا تعمل شيئاً ، وتحصل على كل شيء ؛ وكأنما المال الذى فى يديها فخاخ لصيد المال ، دون أن تتكلف حتى الطعم لهذه الفخاخ ؛ إنما يقع فيها المحتاجون عفواً ، ويساقون إليها بأقدامهم تدفعهم الضرورات ! ذلك إلى أن أكل الربا يخالف القاعدة الأساسية للتصور

الإسلامي وهي أن المال لله ، جعل الناس فيه خلفاء ، وفق شروط المستخلف - وهو الله سبحانه - لا كما يشاء الناس !

« إنه يقوم ابتداء على أساس أن لاعلاقة بين إرادة الله سبحانه وحياة البشر . فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ؛ وهو غير مقيد بعهد من الله ؛ وغير ملزم باتباع أوامر الله .

« ثم إن الفرد حرق وسائل حصوله على المال ، وفي طرق تنميته ، كما هو حر في التمتع به . غير ملتزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط ، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين . ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزائنه ورصيده ما يستطيع إضافته . وقد تتدخل القوانين الوضعية أحيانا في الحد من حرته هذه - جزئيا - في تحديد سعر الفائدة مثلا وفي منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب والغش والضرر . ولكن هذا التدخل يعود إلى ما يتواضع عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم إليه أهواؤهم ؛ لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية !

« كذلك يقوم على أساس تصور خاطئ فاسد : هو أن غاية الغايات للوجود الإنساني هي تحصيله للمال - بأية وسيلة - واستمتاعه به على النحو الذي يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به ، ويدوس في الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !

« ثم ينشئ في النهاية نظاما يسحق البشرية سحقا ، ويشقيها في حياتها أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا ، لمصلحة حفنة من المرائين ؛ ويحطها أخلاقيا ونفسيا وعصبيا ؛ ويحدث الخلل في دورة المال ونمو الاقتصاد البشري نموا سويا .. وينتهي - كما انتهى العصر الحديث - إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة من أحط خلق

الله وأشدّهم شراً؛ وشر ذمة ممن لا يرعون في البشرية إلّا ولا ذمة، ولا يراقبون فيها عهداً ولا حرمة..

«وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفراداً، كما يداينون الحكومات والشعوب - في داخل بلادهم وفي خارجها - وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها، وكذا الآدميين وعرقهم ودمائهم، في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم جهداً فيها! وهم لا يملكون المال وحده.. إنما يملكون النفوذ.. ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور ديني أو أخلاقي؛ بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادئ؛ فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال، ولا تقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم.. وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات، التي يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه، حيث تسقط الفلوس في المصائد والشباك النصوبة! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة، مهملين هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد؛ وإلى انحراف الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرائين الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية!

«والكارثة التي تمت في العصر الحديث - ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية - هي أن هؤلاء المرائين - الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية - قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخفية داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها.. سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها.. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر الساكنين الذين

يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوى..  
هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعى المعقول .  
والأساس الصحيح الذى لا أساس غيره للنمو الاقتصادى ؛ وأنه من بركات هذا النظام  
وحسناته كان هذا التقدم الحضارى فى الغرب . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من  
الخياليين - غير العمليين - وأنهم إنما يعتمدون فى نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية  
ومثل خيالية لارصيد لها من الواقع ؛ وهى كفيلة بإفساد النظام الاقتصادى كله لو سمح لها أن  
تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوى من هذا الجانب للسخرية من  
البشر الذين هم فى حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد  
العالمى نفسه ، الذى تضطره عصابات المرايين العالمية لأن يجرى جريانا غير طبيعى ولا سوى ،  
ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف عن أن يكون نافعا للبشرية كلها ، إلى أن يكون  
وقفا على حفنة من الذئب قليلة !

إن النظام الربوى نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة - وقد بلغ من سوءه  
أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ؛ وهم قد نشأوا فى ظله ، وأشربت  
عقولهم وثقافتهم تلك السموم التى تبثها عصابات المال فى كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق .  
وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة «دكتور  
شاخ» الألمانى ومدير بنك الريخ الألمانى سابقا . وقد كان مما قاله فى محاضرة له بدمشق  
عام ١٩٥٣ إنه بعملية رياضية ( غير متناهية ) يتضح أن جميع المال فى الأرض صائر إلى عدد  
قليل جدا من المرايين . ذلك أن الدائن المرابى يربح دائما فى كل عملية ؛ بينما المدين معرض  
للربح والخسارة . ومن ثم فإن المال كله فى النهاية لابد - بالحساب الرياضى - أن يصبر إلى  
الذى يربح دائما ! وأن هذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الأرض  
الآن يملكه - ملكا حقيقيا - بضعة ألوف ! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون

من البنوك والعمال ، وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويحظى ثمرة  
كدهم أولئك الألو ف !

« وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة . فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس  
الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة  
ومشا كسة مستمرة . فإن المرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال  
حتى يزيد اضطراب التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد  
العاملون في التجارة والصناعة أنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدر عليهم  
ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء .. عندئذ ينكش حجم المال المستخدم في هذه  
المجالات التي تشتغل فيها الملايين ؛ وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل  
القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، ويجد المرابون أن الطلب على المال  
قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرابا . فيقبل عليه العاملون  
في الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء .. وهكذا دواليك  
تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها  
كالسائمة !

« ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين . فإن أصحاب الصناعات  
والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم  
يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب  
المرابين في النهاية . أما الديون التي تقرضها الحكومات من بيوت المال لتقوم  
بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية  
كذلك . إذ أن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون  
وفوائدها . وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف ..

وقلما ينتهى الأمر عند هذا الحد ، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون.. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار ! »<sup>(١)</sup>

وإنه ليستوى أن يكون الدين للاستهلاك أو الإنتاج فى عرف الإسلام ؛ فإنه إن كان للاستهلاك أى لينفقه المستدين على حاجاته الضرورية ، فإنه لا يجوز أن يرهق برد فائض عن دينه ، فحسبه أن يرد أصل الدين عند الميسرة ؛ وإن كان للإنتاج ، فالأصل أن الجهد الذى يبذله هو الذى ينال عليه الربح ، لا المال الذى يستدينه - إلا عن طريق المشاركة - القائم على احتمال الربح والخسارة . لذلك يحرم الربا فى جميع الأحوال ، ويحتم إقراض المستقرض لضروراته فى جميع الأحوال .

فإن اقترض المقرض وأعسر « فَظَرَّةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ »<sup>(٢)</sup> . وأناأرى أن الصيغة للأمر لأنها شرط وجواب : « وإن كان ذو عُسرةٍ فَظَرَّةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » وهذه الصيغة تفيد الأمر لا الندب ؛ وبحوارها التحبيب فى التيسير والسماحة كقول الرسول : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى »<sup>(٣)</sup> . فالسماحة فى الاقتضاء تحفظ للمدين كرامته ، وتغرس المودة فى نفسه لدائنه ، وتحثه على الجهد فى الأداء قدر طاقته . وقال : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه »<sup>(٤)</sup> . وقال : من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »<sup>(٥)</sup> .

ويفرض الإسلام فى مقابل هذا على المدين أن يجتهد فى رد دينه ، إبراء لدمته ورداً لفضل الإقراض بفضل الوفاء ، وتمكيناً للثقة فى المعاملات بين الأفراد : « من أخذ أموال

(١) مقتطف من ظلال القرآن الجزء الثالث ص ٧٣ - ص ٧٦

(٢) سورة البقرة : [٢٨٠] . (٣) البخارى والترمذى .

(٤) مسلم . (٥) الترمذى .



الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله <sup>(١)</sup> . فمن أخذها يريد أداءها جد وكد ليكسب ويسترزق ، وغالباً ما يكسب المجد الصادق العزيمه ؛ ومن أخذها يريد إتلافها استمر أن يعيش بأموال الناس ، وقعد عن العمل والجهد ، فاسترخى وسقطت همته وآض إلى تلف وبوار . وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « مطل الغنى ظم » <sup>(٢)</sup> وقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفر الله عني خطاياي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . . ثم قال : « كيف قلت ؟ فأعاد عليه ، فقال : « نعم إلا الدّين ، فإن جبريل أخبرني بذلك » <sup>(٣)</sup> . وهكذا لا يجزى عن المدين القادر على الأداء أن يقاتل فيقتل في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، لأن الدين يتعلق بحق الآخرين في عنقه لاحق الله وحده ، مادام قادراً على أدائه . فأما العاجز فله من الزكاة نصيب : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ . . . وَالْغَارِمِينَ » وعليه تجوز الصدقة ليوفى دينه . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا عليه » ، فتصدق الناس عليه ، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : « خذوا ما وجدتم ، وليس لكم إلا ذلك » <sup>(٤)</sup> .

ولقد خطا النبي صلى الله عليه وسلم خطوة أخرى عند ما تهيأت له الأموال بعد الفتوح ، فكان يقضى دين المدينين بعد وفاتهم من المال العام . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : هل ترك

(٢) رواه الخمسة .

(١) البخارى .

(٤) الترمذى بسند صحيح .

(٣) مالك ومسلم والترمذى والنسائى .

لدينه قضاء» ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه ، وإلا قال للمسلمين : « صلوا على صاحبكم » . فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات عليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » <sup>(١)</sup> .

وهكذا يحرص الإسلام على رد الحقوق لأصحابها ، حرصه على إغاثة المضطر والتيسير عليه في الأداء ، فيجمع الأمر من أطرافه ، ويضمن المصالح جميعاً ، ويعدل في القسمة بين الحقوق والواجبات .

### طريق الإنفاق

تلك هي الحدود التي يضعها الإسلام لتنمية المال بالتعامل . أما إنفاقه فلا يدعه كذلك بلا ضوابط ، فصاحب المال ليس حراً في غل يده فيه كما يشاء ، أو في الإنفاق منه كما يشاء . ومع أن مثل هذا التصرف ذاتي ، إلا أن الفرد - في الإسلام - ليس متروكاً لذاته يصنع بها ما يشاء ، فله حريته ولكن داخل إطار من الحدود ؛ ثم إنه قلما يكون هناك تصرف شخصي لا علاقة له بالآخرين - وإن لم تكن علاقة مباشرة أو واضحة .

فاليد المغلولة كاليد المرسفة كلتاها لا يقبلها الإسلام ، لما في كليهما من ضرر عائد على النفس وعلى الجماعة : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » <sup>(٢)</sup> . « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » <sup>(٣)</sup> .

(١) الشيخان والترمذي والنسائي

(٢) سورة الإسراء : [٢٩] .

(٣) سورة الأعراف [٣١] .

فأما غل اليد فحرمان للنفس من المتاع المشروع ، والإسلام يكلف الفرد تمتيع ذاته في الحدود المشروعة . ويكره للناس أن يحرموا في غير محرم ، لأن الحياة لا بد أن تستساغ ، وأن تجمل ، وأن تكون بهيجة في غير هو ولا إسراف . والإسلام لا يوجب التزمت والزهد والحرمان من طيبات الحياة ؛ فهو يأمر بنى آدم بأن يتزينوا الزينة اللائقة كما مر في الآية الكريمة . ويقول القرآن في لهجة استنكارية بعد ذلك : « قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١) .

والإسلام يطلب الاستمتاع بمباهج الحياة المعقولة للناس جميعاً : كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم . لذلك وجه الخطاب هنا إلى « بنى آدم » . فإذا دعا في بعض الأحيان إلى الصبر والرضى فليست هذه دعوة إلى الزهد والحرمان . إنما هي دعوة لاحتفاظ النفس بطمأنيتها على الشدائد إلى أن تزول أو تزال . أما بعد ذلك فكل فرد مطالب بأن يستمتع المتاع الحلال ؛ والجماعة مطالبة أن تهيب هذا المتاع لأفرادها جميعاً ، فلا تحرمهم مما يدعوهم الله أن يستمتعوا به في الحياة .

لذلك قرر للفقراء - وهم الذين يملكون مادون نصاب الزكاة - نصيباً يعطونه من الزكاة للتوسعة عليهم في الرزق ، لا مجرد الكفاف ، فهم يملكون الكفاف . ذلك أن الإسلام لا يدعو للكفاف وحده ، إنما يدعو للمتاع بالحياة ، والمتاع فوق الكفاف .

فإذا كان الإسلام يعطى الفقير فضلة من أموال الزكاة يوسع بها على نفسه ويستمتع بما

---

(١) سورة الأعراف : [ ٣٢ - ٣٣ ] .

هو فوق ضروراته ، فأولى أن ينفق الواجد ، وأن يتمتع بالحياة متاعاً معقولاً ، وأن لا يحرم نفسه من طبيعتها ، وهي كثيرة ، لتغدو الحياة بهيجة جميلة ، ولتنطلق النفس إلى ما هو فوق الضرورة من التفكير العالى والإحساس الراقى ، والتأمل فى الكون والخلق ، والنظر إلى الجمال والكمال . والرسول الكريم يقول : « إذا آتاك الله مالا فليرأثر نعمة الله عليك وكرامته » <sup>(١)</sup> . فيعد الشطف والتربة - مع القدرة - إنكاراً لنعمة الله ، يكرهه الله .

هذا كله من ناحية ، وثمة ناحية أخرى يلحظها الإسلام فى حبس المال عن التداول والإنفاق . فحبسه هكذا تعطيل لوظيفته . والجماعة فى حاجة إلى تداول أموالها العامة ، لتنمى الحياة فى شتى مظاهرها ، وتضمن الإنتاج فى أوسع ميادينه ، وتهيئ للعاملين وسائل العمل ، وللإنسانية طريق النشاط . وحبس الأموال يعطل هذا كله فهو حرام فى نظر الإسلام ، لما فيه من تعطيل للصالح الخاص والصالح العام .

أما الإسراف فهو الطرف الآخر ، وهو مفسدة للفرد والجماعة كذلك . ونبادر أولاً فنقرر أن إنفاق المال فى سبيل الله ولو أتى عليه كله ليس إسرافاً ، لما مر من حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن جبل الذهب ، وتمنيه أن لو كان له لما أبقي منه مقدار قيراطين ، ولأنفقه كله فى سبيل الله . إنما الإسراف هو الإسراف فى الإنفاق على النفس ، وهذا ما عناه الإسلام .

والإسراف بهذا المعنى هو الترف الذى يكرهه الإسلام كراهية شديدة ؛ ويبغض أن يكون المال دولة بين الأغنياء لئلا يؤدى تضخم الثروة لإنفاقها فى سبيله ؛ ويعده مصدر شر لصاحبه وللجماعة التى يعيش فيها ؛ وبهذا يكون منكرًا يجب على الجماعة أن تغيره وإلا عرضت نفسها إلى الهلكة بسببه .

---

(١) أبو داود والنسائى .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية في كراهة الترف وتحريمه متواترة كثيرة بصفة بارزة ، تشعر أنه من أكره الحرام إلى الله ورسوله . والإسلام الذى يحض الناس على التمتع بطيبات الحياة ، ويكره أن يحرموها على أنفسهم وهى لهم حلال ، ويدعو إلى جعل الحياة بهيجة مقبولة لا قائمة ولا منبوذة ... هذا الإسلام نفسه يكره السرف والترف تلك الكراهية الشديدة العنيفة .

فالقرآن يصف المترفين أحياناً بسقوط الهمة وضعف القوة وهبوط الأريحية: «وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَأْكُلْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » (١) .

وإذا عرفنا حرص الإسلام على الجهاد وحثه عليه وتعظيم من يتطوعون له ، حتى ليقول الرسول الكريم : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » (٢) أدركنا فى الجانب الآخر كم يحتقر أولى الطول هؤلاء لتخلفهم وقعودهم عن صفوف المجاهدين . ولا غرابة فى هذا ، فالمترف مترهل ضعيف الإرادة ناعم قليل الرجولة ، لم يعتد الجهد فسقطت همته ، وفترت أريحيته ؛ والجهد فى الجهاد يعطل عليه متاعه الشهوانى الرخيص ، ويحرمه لذاته الحيوانية فترة من الوقت ، وهو لا يعرف قيمة فى الحياة سوى هذه القيم الداعرة الشائنة !

ثم يتحدث أحياناً عن المترفين فى التاريخ ، فإذا هم دائماً يقفون فى سبيل الهدى لأنفسهم ولأتباعهم المستضعفين ؛ وما دام هناك مترفون فهناك مستضعفون ، يملقون خيلاءهم ، ويحققون شهواتهم ، ويفنون فيهم فناء الحشرات : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ، إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » (٣) .. « وَقَالَ الْمَلَأُ

(٢) مسلم وأبو داود والنسائي .

(١) سورة التوبة : [ ٨٦ ] .

(٣) سورة سبأ : [ ٣٤ ] .

مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا تُخَاسِرُونَ<sup>(١)</sup> . . . » وَقَالُوا : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ، وَالْعَنَهُمُ اللَّهُ كَبِيرًا<sup>(٢)</sup> . ولا غرابة في هذا فالمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة ، حريصون على شهواتهم ولذائذهم ، حريصون على أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم ؛ والهدى والدين والإيمان يحرمهم الكثير مما يحرصون عليه ويحدد لهم سبل المتاع المباح - وهو بالقياس إليهم قليل ضئيل لا يرضى مرض نفوسهم وترهل شهواتهم - ويرفع قيم الناس جميعاً فلا يكون لهم من السلطان المطلق على المستضعفين ، ما يجعلهم أدوات خاضعة وآلات منفذة ؛ ويحرمهم الخرافات والأوهام والأساطير التي يحيطون بها أنفسهم ، ويستغلونها في المجتمعات الضالة الجاهلة المستسلمة . . . لذلك هم أعداء كل هدى وكل عرفان ، ذلك فضلاً على ما يصنعه الترف بالضمير ، وما يحدثه المتاع الغليظ من جهود في المشاعر : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَيِّقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ؟ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ، حَتَّى نَسُوا اللَّهَ كَرًّا ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا<sup>(٣)</sup> » . فالمتاع المترف الطويل الموروث عن الآباء ينسى الذكر ، ويؤدي إلى الجذب والضحالة . والتعبير بأنهم « كانوا قومًا بوراً » تعبير مصور عجيب عميق الدلالة ، فالأرض البور هي الأرض المجذبة التي لا تنتج ولا تثمر ، وكذلك قلوبهم ونفوسهم وحياتهم جذبة باثرة صلبة ، لا تنبض فيها حياة .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - يسمى بيوت المترفين بيوت الشياطين ، لما ينبع فيها من

(٢) سورة الأحزاب : [ ٦٧ - ٦٨ ] .

(١) سورة المؤمنون : [ ٣٣ - ٣٤ ] .

(٣) سورة الفرقان : [ ١٧ - ١٨ ] .

الفساد ، ولما يخرج منها من الفتنة : « تكون إبلى للشياطين ، وبيوت للشياطين . فأما إبلى الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج<sup>(١)</sup> » وإذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رآها إبلى للشياطين ، لا حاجة بأصحابها إلى ركوبها ، بينما النقطعون لا يجدون ما يركبون ، فنحن نجد لها سيارات نفحة تروح وتغدو للتأفه الصغير من الأمور ، وألوف لا يجدون أجرة الترام ، ومئات لا يجدون حتى أرجلهم للمشى بها ، فهي مقطوعة ذهبت بها الآفات ! أما البيوت التي رآها محمد - صلى الله عليه وسلم - في الأقفاص التي تستر الناس بالديباج ، فنحن نراها ووسائل الترف فيها لم تخطر على قلب بشر في ذلك الزمان !

لا جرم إذن يكون الترف سبب الهلاك على مدى التاريخ . فالترف سبب للبطر : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا : فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(٢)</sup> » .

ولا جرم يكون الترف سبب العذاب في الآخرة بما يؤدي إليه من معصيات : « وَأَصْحَابُ الشُّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشُّمَالِ : فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ، وَكَانُوا يُصْرُثُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ<sup>(٣)</sup> » !

ولكن الهلاك والعذاب لا يصيبان الفرد المترف وحده ، بل يصيبان الجماعة التي تسمح بوجود المترفين : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا<sup>(٤)</sup> مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ

(٢) سورة القصص : [ ٥٨ ] .

(٤) أمرنا هنا بمعنى أكثرنا .

(١) أبو داود .

(٣) سورة الواقعة : [ ٤١ - ٤٨ ]



عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » . . ذلك أن وجود المترفين في الجماعة ، وسماع الجماعة بوجودهم ، وسكوتها عليهم ، وقعودها عن إزالة أسباب الترف ، وتركها المترفين يفسدون . . . كل ذلك أسباب تؤدي حتما إلى الهلاك والتدمير بطبيعة وجودها . وهذا معنى الإرادة في الآية، أى تتبع النتائج للمقدمات ، وإيقاع المسببات إذا وجدت الأسباب، حسب السنة التي أرادها الله لاكون والحياة .

فالجماعة هي المسؤولة عن هذا المنكر الذي يقع فيها. فالترف لا بد أن يؤدي إلى المنكر بحكم وجوده في الجماعة ؛ وقد أبتنا أن الطاقة الفائضة لا بد لها من متصرف . فهناك مال فائض . وهو طاقة . وهناك حيوية جسد فائضة كذلك . وهى طاقة . وهناك فضلة زمن فائضة بلا عمل ولا تفكير . وهى طاقة. والفتية المترفون والفتيات المترفات ، وهم يجدون الشباب والفراغ والجدة ، لا بد أن يفسقوا ؛ ولا بد أن يبحثوا عن مصارف أخرى لطاقة الجسد وطاقة المال وطاقة الوقت؛ وغالبا ماتكون مصارف تافهة ، تأخذ طابعها من الزمن والبيئة ، ولكنها تلتقى عند حد التفاهة والميوعة والقذارة الحسية والمعنوية .

وفي الجانب الآخر المستغلون والمستربحون والمحتاجون، من تجار الرقيق ، والمهرجين، والذبول ، وحواشى المترفين، ينشرون الدعارة والترهل، ويرخصون كل قيم الحياة الجادة، التي لا تروق للمترفين والمترفات .

ثم يسرى الداء إلى سائر مرافق الحياة . . ثم تكون العاقبة التي لا بد منها وهى شيوع الفاحشة في الأمة، وانتشار الإباحية ، وترهل الأجسام والعقول ، وانحطاط المعنويات والروحيات .. عندئذ يحق أمر الله فيدمر هذه الجماعة تدميرا !

ذلك رأى الإسلام في جريمة الترف . جريمة تبدأ فردية ، فإذا سكنت عنها الجماعة ، ولم تزل هذا المنكر باليد واللسان والقلب ، آتت الجريمة ثمراتها ، وأفرخ الوباء في جسم الجماعة ، وعرضها للهلاك في النهاية ، بحكم ترتب النتائج

على المقدمات ، والمسببات على الأسباب « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا <sup>(١)</sup> » .

ولكن ماهو حد الترف والحرمان ، وما هو القصد بينهما والاعتدال ؟

إذا رجعنا إلى أول نشأة الإسلام ، وجدنا بيئة محرومة يبدو فيها الشظف والفقر ، ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى عن لبس الحرير : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة <sup>(٢)</sup> » . ويروى على — كرم الله وجهه — أن الرسول نهاه عن القسّيّ والمعصر من الثياب ؛ كما نهى عن خاتم الذهب . . . كل ذلك للرجال . أما النساء فأبيح لهن الحرير والذهب ، وإن كان الرسول كره لابنته فاطمة أن تلبس الذهب . . فهذه خصوصية كان يأخذ بها النبي أهل بيته ولا يلزمها الناس .

ولكننا نحسب أننا لا نحل حراماً حين نقول : إن الإسلام لا يدعو إلى الشظف حين لا تدعو إليه ظروف البيئة وأحوال الجماعة . وحقيقة أن لبس الحرير والمعصر من الثياب والمرقش كثيراً ما يزرى بقيمة الرجال ، ويدعوهم إلى الطراوة ، وبخاصة في زمن الجهاد ، ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يطق أن يصل الشظف إلى حد المنظر الزرى والإهمال للزى ، فقد روى جابر قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً ، فرأى رجلاً شعناً قد تفرق شعره ، فقال : « أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ » . ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال : « أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ » . وروى أبو الأحوص الجشمي عن أبيه قال : رآني النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أطمار فقال : « هل لك من مال ؟ » قلت نعم ! قال : « من أى المال ؟ » قلت : من كل قد آتاني الله ، من الشاء والإبل ، قال : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته وكرامته عليك <sup>(٣)</sup> » . وقال صلى الله

(٢) البخارى .

(١) سورة الأحزاب : [٦٢] .

(٣) أبو داود والنسائي .

عليه وسلم : إن الله طيبٌ يحبُّ الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفئيتكم ولا تشبهوا باليهود <sup>(١)</sup> .

وقد مر بنا أمر الله لبني آدم : أن يأخذوا زينتهم عند المساجد ، وألا يحرموا الطيبات التي أحلت لهم . فالذي نستخلصه من هذا أن مستوى المعيشة العام للجماعة هو الذي يحدد الترف والحرمان . وحين فتح الله الأمصار على المسلمين وزادت الثروة العامة وارتفع مستوى المعيشة ، تغيرت أزيائهم ، واستمتعوا بما لم يكونوا يستمتعون ، فلم ينكر ذلك عليهم أحد ، إلا أن يتجاوزوا الوسط . والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « كلٌ ماشئت . والبس ماشئت ما خطئتك اثنتان : سرف أو مخيلة <sup>(٢)</sup> » .

ولكن نحب - مع ذلك - أن نقرر أن البساطة في الحياة هي طابع الإسلام الذي يحرص عليه ؛ وأن استعلاء النفس على المتاع هو السمة التي يريدها الإسلام لأهله ؛ فلا يصبحون عبيدا لهذا المتاع .

« تعس عبد الدرهم . تعس عبد الدينار . تعس عبد القطيفة . تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » ... ( أخرجه البخاري )

فالاستعلاء على المتاع مع مزاوله الوسط منه هو طابع الإسلام ، والقلب المسلم يتذوق ويدرك متى يقف عند حد الوسط !

### فريضة الزكاة

والآن فلنتحدث عن الزكاة، الركن الاجتماعي البارز من أركان الإسلام، فحديث الزكاة أدخل شيء في سياسة المال في الإسلام .

الزكاة حق المال ، وهي عبادة من ناحية ، وواجب اجتماعي من ناحية أخرى ؛ فإذا

(٢) البخاري .

(١) رواه الترمذي بسند حسن

جربنا على نظرية الإسلام في العبادات والاجتماعيات ، قلنا : إنها واجب اجتماعي تعبدى ؛ لذلك سماها «زكاة» ، والزكاة طهارة ونماء . فهي طهارة للضمير والذمة بأداء الحق المقروض . وهي طهارة للنفس والقلب من فطرة الشح وغريزة حب الذات ، فالمال عزيز ، والملك حبيب ، فحين تجود النفس به للآخرين ، إنما تطهر وترتفع وتشرق . وهي طهارة للمال بأداء حقه وصيرورته بعد ذلك حلالا . ولأن في الزكاة معنى العبادة ، بلغ من لطف حس الإسلام ألا يطلب إلى أهل الذمة من أهل الكتاب أدائها ، واستبدل بها الجزية ، ليشاركوا في نفقات الدولة العامة ، دون أن تفرض عليهم عبادة خاصة من عبادات الإسلام إلا أن يختاروها .

والزكاة حق الجماعة في عنق الفرد ، لتكفل لطوائف منها كفايتهم أحيانا ، وشيئا من المتاع بعد الكفاف أحيانا ، وبذلك يحقق الإسلام جانبا من مبدئه العام : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » . . . ذلك أن الإسلام يكره للناس الفقر والحاجة ؛ ويحتم أن ينال كل فرد كفايته من جهده الخاص وموارده الخاصة حين يستطيع ، ومن مال الجماعة حين يعجز لسبب من الأسباب .

يكره الإسلام الفقر والحاجة للناس ، لأنه يريد أن يعفيهم من ضرورات الحياة المادية ليفرغوا لما هو أعظم ؛ ولما هو أليق بالإنسانية وبالكرامة التي خص الله بها بني آدم : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجْدِ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا <sup>(١)</sup> » .

ولقد كرمهم فعلا بالعقل والعاطفة ، وبالأشواق الروحية إلى ما هو أعلى من ضرورات الجسد ؛ فإذا لم يتوافر لهم من ضرورات الحياة ما يتيح لهم فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية ، ولهذه المجالات الفكرية ، فقد سلبوا ذلك التكريم ؛ وارتكسوا

---

(١) سورة الإسراء : [٧٠] .

إلى مرتبة الحيوان . لا بل إن الحيوان ليجد طعامه وشرابه غالباً ؛ وإن بعض الحيوان ليختال ويقفز ويمرح ، وإن بعض الطير ليغرد ويستسق فرحاً بالحياة . بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب .

فما هو إنسان وما هو بكريم على الله ، ذلك الذى تشغله ضرورات الطعام والشراب عن التطلع إلى مثل ما يناله الطير والحيوان ، فضلاً على ما يجب للإنسان الذى كرمه الله . فإذا قضى وقته وجهده ، ثم لم ينل كفايته ، فتلك هى الطامة التى تهبط به دركات عما أراد به الله ؛ والتى تصم الجماعة التى يعيش فيها ، بأنها جماعة هابطة لا تستحق تكريم الله ، لأنها تخالف عن إرادة الله .

إن الإنسان خليفة الله فى أرضه ؛ قد استخلفه عليها لينمى الحياة فيها ، ويرقيها ؛ ثم ليجعلها ناضرة بهيجة ؛ ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها ؛ ثم ليشكر الله على أنعمه التى آتاه . والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئاً ، إذا كانت حياته تنقضى فى سبيل اللقمة ولو كانت كافية ، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية ؟

ويكره الإسلام أن تكون الفوارق بين أفراد الأمة بحيث تعيش منها جماعة فى مستوى الترف ، وتعيش جماعة أخرى فى مستوى الشظف ، ثم أن تتجاوز الشظف إلى الحرمان والجوع والعري . فهذه أمة غير مسلمة ، والرسول يقول : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله »<sup>(١)</sup> .. أو يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(٢)</sup> .. يكره الإسلام هذه الفوارق لما وراءها من أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع ؛ ولما فيها من أثره وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ؛ ولما فيها من اضطراب المحتاجين : إما إلى السرقة والغصب ، وإما إلى الذل وبيع الشرف والكرامة... وكلها منحدرات يتجافى الإسلام بالجماعة عنها .

(١) مسند أحمد شاكر ( ٤٨٨٠ ) . (٢) متفق عليه .

ويكره الإسلام أن يكون المال دولة بين الأغنياء في الأمة ، وألا تجد الكثرة ماتنفق .  
لأن ذلك ينتهى في النهاية بتجميد الحياة والعمل والإنتاج في هذه الأمة . بينما وجود الأموال  
في أيدي أكبر عدد منها يجعل هذه الأموال تنفق في شراء ضروريات الحياة لهذا العدد  
الكبير ؛ فيكثر الإقبال على السلع ، فينشأ من هذا كثرة الإنتاج ، فتترتب عليها العمالة الكاملة  
للأيدي العاملة . . وبذلك تدور عجلة الحياة والعمل والإنتاج والاستهلاك دورتها  
الطبيعية المثمرة . .

لهذه المعاني جميعها شرع الزكاة ؛ وجعلها فريضة في المال ، وحقا لمستحقها ، لا تفضلا  
من مخرجها ؛ وحدد لها نصابا في المال يجعل الواجدين جميعا يشتركون في أدائها . ذلك  
أن أقصى حد للإعفاء منها عشرون مثقالا ذهباً أى ما يعادل ثلاثين جنيها بعملتنا ، على  
أن تكون فائضة عن الحاجات الضرورية للمالكها وعن الدين وحال عليها الحول . وذلك  
بديهي لأن الإنسان لا يطالب بالزكاة وهو مستحق للزكاة ! أما في الزرع والثمار فهي موسمية  
موقوتة بمواسم الحصاد ، وهي في عروض التجارة تقوّم بالذهب أو الفضة ، وفي الحيوان  
بنسب معينة تعادل نسبتها في المال ، وهي ربع العشر على وجه التقريب . وفي الركاك الخمس .  
على خلاف في أنواع الركاك ، أتكون لصاحب الأرض ، أم للجماعة ...

أما المستحقون لها فهم كما نص عليهم في القرآن : الفقراء ، وهم الذين يملكون أقل من  
النصاب ، أو يملكون نصابا مستغرقا في الدين ، وظاهر أن هؤلاء يملكون شيئا ، ولكنه  
شيء قليل ، والإسلام يريد أن ينال الناس كفايتهم ، وشيئا فوق الكفاية يعينهم على  
المتاع بالدنيا على قدر الإمكان .

والمساكين . وهم الذين لا يملكون شيئا . وهم بطبيعة الحال أجدر بالعطاء من الفقراء .  
ولكنني ألمح أن ذكر الفقراء قبلهم في الآية يرمى إلى أن وجود شيء قليل للفقراء لا يكفي ،

فكانهم كالمساكين ، لأن هدف الإسلام ليس مجرد الكفاف الضروري . ولكن شئ  
فوق الكفاف كما قدمت .

والعاملون عليها . وهم جباتها ، وهؤلاء - وإن كانوا أغنياء - يعطون جزاء  
العمل ، فهو راتب الوظيفة وذلك داخل في نظام الجهد والأجر ، لافي باب الحاجة  
وسدها .

والمؤلفة قلوبهم . وهم الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً ، لتقوية قلوبهم ، واجتذاب  
من عداهم . ولكن هذا المصرف قد أقفل بعد أن أعز الله الإسلام عقب حروب الردة في  
أيام أبي بكر ولم يعد الإسلام في حاجة إلى تأليف القلوب بالمال . ومع أن هؤلاء قد نصت  
عليهم آية قرآنية ، فإن عمر لم يجد حرجاً في التصرف .

وفي الرقاب . وهم الأرقاء المكاتبون ، الذين يستردون حريتهم نظير قدر من المال  
متفق عليه مع مالكيهم تيسيراً لهم لينالوا الحرية .

والغارمين . وهم الذين استغرق الدين ثرواتهم ، على ألا يكون هذا الدين في معصية  
فلا يكون الترف وما يشبهه سبباً فيه . وإعطائهم قسطاً من الزكاة فيه سداد لديونهم ،  
وتخليص لرقابهم منها ، وفيه إعانة لهم على الحياة الكريمة .

وفي سبيل الله . وهو مصرف عام تحدده الظروف ، ومنه تجهيز المجاهدين ، وعلاج  
المرضى ، وتعليم العاجزين عن التعليم ، وسائر ما تتحقق به مصلحة جماعة المسلمين . والتصرف  
في هذا الباب يتسع لكل عمل اجتماعي في سائر البيئات والظروف .

وابن السبيل . وهو المنقطع عن ماله الذي لا يجد ما ينفق ، كالمهاجرين من  
الحروب والغارات والاضطهاد ، الذين خلفوا أموالهم وراءهم ، ولا سبيل لهم إلى  
هذه الأموال .

والإسلام لا يقرر لهذه الطوائف حقها في الزكاة إلا بعد أن تستنفد هي وسائلها الخاصة



في الارتزاق ؛ فالإسلام حريص على الكرامة الإنسانية ومن ثم هو حريص على أن يكون لكل فرد مورد رزق يملكه ، ولا يخضع فيه حتى للجماعة !

لذلك حث على الاستغناء عن طريق العمل ؛ وجعل واجب الجماعة الأول أن تهيب العمل لكل فرد فيها . فقد جاء سائل إلى النبي يستجديه ، فأعطاه درهما وأمره أن يشتري به حبلا ليحتطب به فيعيش من عمل يده . وقال : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » (١) .

فهذه الإعانة من الزكاة هي وقاية اجتماعية أخيرة ، وضمانة للعاجز الذي يبذل طوقه ثم لا يجد ، أو يجد دون الكفاية ، أو يجد مجرد الكفاف ، ثم هي وسيلة لأن يكون المال دولة بين الجميع لتحقيق الدورة الكاملة السليمة للمال بين الإنتاج والاستهلاك والعمل من جديد ... وفي هذا يجمع الإسلام بين الحرص على أن يعمل كل فرد بما في طاقته ، وألا يرتكن على الإعانة الاجتماعية فيتبطل ؛ والحرص على أن يعين المحتاج بما يسد خلته ، ويرفع عنه ثقل الضرورة ووطأة الحاجة ، ويسر له الحياة الكريمة . ثم الحرص على ضمان الدورة الصحيحة لرأس مال الأمة كما أسلفنا .

... إن الزكاة هي قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن ؛ الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوي في أي جانب من جوانب حياته .

وقد بهتت صورة « الزكاة » في حسن الأجيال التعيسة التي لم تشهد نظام الإسلام مطبقا في عالم الواقع ؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ، ثم يقيم لها النظام الذي تتنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية . ويجعل « الزكاة » قاعدة هذا

---

(١) الشيخان .

النظام ، في مقابل نظام الجاهلية الذى يقوم على القاعدة الربوية . ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقى عن طريق الجهد الفردى ، أو التعاون البرىء من الربا !

وبهتت هذه الصورة فى حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ التى لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صور الإنسانية . إنما ولدت وعاشت فى غمرة النظام المادى ، القائم على الأساس الربوى . وشهدت الكزازة والشح ، والتكالب والتطاحن ، والفردية الأثرة التى تحكم ضمائر الناس ، فتجعل المال لا ينتقل إلى من يحتاجون إليه إلا فى الصورة الربوية الخسيسة ! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات ، مالم يكن لهم رصيد من المال ؛ أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من ماله فى مؤسسات التأمين الربوية ! وجعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذى تقوم به ، مالم تحصل عليه بالطريقة الربوية ! فوقر فى حس هذه الأجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام إلا هذا النظام ؛ وأب الحياة لا تقوم إلا على هذا الأساس !

بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحسانا فرديا هزيلا ، لا ينهض على أساسه نظام عصرى ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهى تتناول اثنين ونصفا فى المائة من أصل رؤوس الأموال الأهلية مع ربها<sup>(١)</sup> ؟ ويؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة ، ويربهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذى يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه ! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقا مفروضا ، لا إحسانا فرديا : وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ؛ حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة فى كل حالة ؛ وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان دينيا تجاريا أو غير تجارى ، من حصيلة الزكاة .

(١) ترتفع هذه النسبة إلى ٥ ٪ وإلى ١٠ ٪ وإلى ٢٠ ٪ فى الزروع والكنوز .

وليس المهم هو شكلية النظام . إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذى يرييه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته ، متكامل مع التشريعات والتوجيهات ، ينبع التكافل من ضائره ومن تنظيماته معاً متناسقة متكاملة . وهذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشأوا وعاشوا فى ظل الأنظمة المادية الأخرى . ولكنها حقيقة نعرفها نحن - أهل الإسلام - ونتذوقها بذوقنا الإيماني . فإذا كانوا هم محرومين من هذا الذوق لسوء طالعهم ونكد حظهم - وحظ البشرية التى صارت إليهم مقاليدها وقيادتها - فليكن هذا نصيبهم ! وليحرموا من هذا الخير الذى يشر الله به : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. ليحرموا من الطمأنينة والرضى ، فوق حرمانهم من الأجر والثواب . فإنما بجهالتهم وجاهليتهم وضاللم وعنادهم يحرمون !

### فرائض غير الزكاة

.. ومع ذلك فالزكاة ليست وحدها حق المال ...

وإننا لنلاحظ شبه تواطؤ بين من يتحدثون عن الزكاة فى هذه الأيام ، على اعتبارها الحد الأقصى الذى يطلبه الإسلام دائماً من رؤوس الأموال ! لذلك ينبغى أن نكشف هذا التواطؤ ، الذى يتعمده رجال الدين المحترفون ؛ كما يتعمده من يريدون إظهار النظام الإسلامى بأنه غير صالح للعمل فى عصر « الحضارة » !

إن الزكاة هى الحد الأدنى المفروض فى الأموال ، حين لا تحتاج الجماعة إلى غير حصيلة الزكاة . فأما حين لا تفى ، فإن الإسلام لا يقف مكتوف اليدين ، بل يمنح الإمام الذى ينفذ شريعة الإسلام ، سلطات واسعة للتوظيف فى رؤوس الأموال - أى الأخذ منها

بقدر معلوم - في الحدود اللازمة للإصلاح . ويقول بصريح الحديث : « إن في المال حقاً سوى الزكاة <sup>(١)</sup> » .

ودائرة « المصالح المرسله » و « سد الذرائع » دائرة واسعة تشمل تحقيق كافة المصالح للجماعة ، وتضمن دفع جميع الأضرار .

ونحن نكتفي في بيان حدودها بما ورد عنهما في كتاب : « الإمام مالك » للأستاذ الشيخ « محمد أبو زهرة » أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

المصالح المرسله : « إن المصالح التي ليس لها نص خاص يشهد لنوعها بالاعتبار تسمى المصالح المرسله ، وكونها أصلاً فقهيًا موضع نظر بين الفقهاء ، وقد ادعى القرافي أن الفقهاء جميعاً أخذوا بها واعتبروها دليلاً في الجزئيات ، وإن أنكر أكثرهم كونها أصلاً في الكلّيات ، وقد قال في ذلك :

« المصلحة المرسله ، غير نايصرح بإنكارها ، ولكنهم عند التفريع يجهلون يعلمون بمطلق المصلحة ، ولا يطالبون أنفسهم عند الفروق والجوامع بإبداء الشاهد لها بالاعتبار ، بل يعتمدون على مجرد المناسبة ، وهذا هو المصلحة المرسله » .

« وسواء أصبحت تلك الدعوى أم لم تصح ، فمن المؤكد أن اعتبار المصالح التي لا يشهد لها نص خاص بالاعتبار - نظر العلماء إليها يختلف ، فإن لم يكن في أصل الأخذ ، فعلى الأقل في مقدار الأخذ ، كما يحسب القرافي .

« وقد انقسمت أقوال العلماء في ذلك إلى أربعة أقسام :

« ( القسم الأول ) الشافعية ومن نحاً نحوهم ، وهؤلاء لا يأخذون بالمصالح المرسله التي يوجد شاهد من الشارع باعتبارها ، لأنهم لا يأخذون إلا بالنصوص ، والحمل عليها لقياس الذي يكون أساسه وجود ضابط يضبط ما بين الأصل والفرع ، أي ما بين المنصوص

(١) الترمذى .

عليه ، والملحق به ، وإن سايرنا القرأني فإننا نقول : إنه يندر أن يأخذوا بمصلحة مرسله من غير قياس .

« ( القسم الثاني ) الحنفية ومن شاكلهم ممن يأخذون بالاستحسان مع القياس ، فإن الاستحسان مهما يكن قولهم فيه لا يخلو من اعتماد على المصالح المطلقة ، ولو أنصفنا الحقيقة لقلنا : إن مجيء المصالح في استنباطهم أكثر من الشافعية ، وإن كان القدر في ذاته قليلا ، حتى لم تحسب تلك المصالح أصلا من أصولهم لندرة اعتمادهم المجرد عليها .

« ( القسم الثالث ) الغلاة في الأخذ بالمصالح ، حتى قدموا المصلحة على النص في معاملات الناس ، واعتبروها مخصصة له ، بل اعتبروها مخصصة للإجماع ، أى أن العلماء إذا أجمعوا على أمر بنص ، ووجد مخالفاً للمصلحة في بعض وجوه قدم اعتبار المصلحة ، واعتبر ذلك أيضاً تخصيصاً ، وقد قال هذا القول الطوفي .

« ( القسم الرابع ) المعتدلون ، وهم الأصح بصرأً ، وأولئك اعتبروا المصالح المرسله في غير موارد النص المقطوع به ، وأولئك أكثر المالكية .

« وكان مالك في أخذه بالمصالح المرسله أصلا مستقلا متبعلا مبتدعا .

١ - « فقد وجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقومون بأمر من بعده لم تكن في عهده ، فجمعوا القرآن الكريم في المصحف ، ولم يكن ذلك في عهد الرسول ، لأن المصلحة تقاضتهم ذلك الجمع ، إذ خشوا أن ينسى القرآن بموت حفاظهم ، وقد رأهم عمر رضى الله عنه يتهافتون في حرب الردة ، فخشى نسيان القرآن بموتهم فأشار على أبى بكر يجمعه في المصحف ، واتفق الصحابة على ذلك وارتضوه .

٢ - « واتفق أصحاب الرسول من بعده على حد شارب الخمر ثمانين جلدة ، مستندين في ذلك

إلى المصالح ، أو الاستدلال المرسل ، إذ رأوا الشرب ذريعة إلى الافتراء وقذف المحصنات ، بسبب كثرة الهذيان .

٣ - « واتفق الخلقاء الراشدون على تضمين الصنيع ، مع أن الأصل أن أيديهم على الأمانة ، ولكن وجد أنهم لو لم يضمنوا لاستهانوا بالمحافظة على أمتعة الناس وأموالهم ، وفي الناس حاجة شديدة إليهم ، فكانت المصلحة في تضمينهم ، ليحافظوا على ماتحت أيديهم ؛ ولذلك قال عليّ في تضمينهم : « لا يصلح الناس إلا ذاك » .

٤ - « وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشاطر الولاة الذين يتهمهم في أموالهم ، لاختلاط أموالهم الخاصة بأموالهم التي استفادوها بسلطان الولاية ، وذلك من باب المصلحة المرسله أيضاً لأنه رأى في ذلك صلاح الولاة ، ومنعهم من استغلال سلطان الولاية لجمع المال . وجبر المغنم من غير حل .

٥ - « وحكى عنه رضى الله عنه أنه أراق اللبن المغشوش بالماء ، تأديباً للغاش ، وذلك من باب المصلحة العامة ، لكيلا يفسدوا الناس .

٦ - « وقد نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قتل الجماعة بالواحد إذا اشتركوا في قتله ، لأن المصلحة تقتضى ذلك ، إذ لا نص في الموضوع ، ووجه المصلحة أن القتل معصوم ، وقد قتل عمداً ، فإهداره داع إلى خرم أصل القصاص ، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السعى بالقتل ، إذا علم أنه لا قصاص فيه ، فإن قيل : هذا أمر بدعى ، وهو قتل غير القاتل ، لأن كل واحد لا يعد قاتلاً بمفرده ، قيل في رد ذلك إن القاتل : الجماعة من حيث الاجتماع ، فقتلها كلها قتل كالقاتل بمفرده ، إذا قتل مضاف إليها كما ضافته إلى الشخص الواحد ، فنزل الأشخاص المجتمعون لغرض القتل منزلة الشخص الواحد ، وقد دعت إلى هذا المصلحة ، إذ فيه حقن الدماء ، وصيانة المجتمع ...

« ومن ملاحظة المصلحة في المسائل العامة أنه إذا خلا بيت المال ، أو ارتفعت

حاجات الجند ، وليس فيه مايكفيهم ، فللإمام أن يوظف على الأغنياء مايراه كافياً لهم في الحال ، إلى أن يظهر مال في بيت المال ، أو يكون فيه ما يكفي ، ثم له أن يجعل هذه الوظيفة في أوقات حصاد الغلات ، وجنى الثمار ، لكيلا يؤدي تخصيص الأغنياء إلى إحاش قلوبهم . ووجه المصلحة أن الإمام العادل لو لم يفعل ذلك لبطلت شوكته ، وصارت الديار عرضة للفتنة وعرضة للاستيلاء عليها من الطامعين فيها ، وقد يقول قائل : إنه بدل أن يقوم الإمام بفرض هذه الوظيفة يستقرض لبيت المال ، وقد أجاب عن ذلك الشاطبي فقال : « الاستقراض في الأزمات ، إنما يكون حيث يرجى لبيت المال دخل ينتظر ، وأما إذا لم ينتظر شيء ، وضعفت وجوه الدخل بحيث لا يغني ، فلا بد من جريان حكم التوظيف » .

الذرائع : « الذريعة معناها الوسيلة . ومعنى سد الذرائع رفعها ، ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم محرمة ، ووسيلة الواجب واجبة ، فالفاحشة حرام ، والنظرة إلى عورة الأجنبية حرام ، لأنها تؤدي إلى الفاحشة ؛ والجمعة فرض ، فالسعي لها فرض ، وترك البيع لأجل السعي فرض أيضاً ؛ والحج فرض والسعي إلى بيت الله الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله .

« والأصل في اعتبار سد الذرائع هو النظر في مآلات الأفعال ، وماتنتهى في جملتها إليه ، فإن كانت تتجه نحو المصالح التي هي المقاصد والغايات من معاملات بني الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب هذه المقاصد ، وإن كانت لاتساويها في الطلب . وإن كانت مآلاتها تتجه نحو المفساد ، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفساد ، وإن كان مقدار التحريم أقل في الوسيلة .

« والنظر في هذه المآلات لا يكون إلى مقصد العامل ونيته ، بل إلى نتيجة العمل وثمرته ، وبحسب النية يثاب الشخص أو يعاقب في الآخرة ، وبحسب النتيجة والثمرة يحسن







« ومنها أنه صلى الله عليه وسلم منع المتصدق شراء صدقته ولو وجدها تباع في السوق، سدا لذريعة العود فيما خرج عنه الله ولو بعوضه . وإن المتصدق إذا منع من أخذ صدقته بعوضها، فأخذها بغير عوض أشد منعاً ، وإن في تجوز أخذها بعوض ذريعة إلى التحايل على الفقير بأن يدفع إليه صدقة ماله ، ثم يشتريها منه بأقل من قيمتها، ويرى المسكين أنه قد حصل له شيء من حاجته ، فتسمح نفسه بالبيع .

« وهكذا كثرت الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد ساق ابن القيم في « إعلام الموقعين » نحو تسعين شاهداً من الآثار ، ثبت فيها النهي سدا للذرائع .

« ولقد عدت الذرائع في شرائع الإسلام نصفها » .

\*\*\*

مبدأ المصالح المرسله ، ومبدأ سد الذرائع ، عند تطبيقهما في محيط أوسع ، يمنحان الإمام الذي ينفذ شريعة الله سلطة واسعة لتدارك كل المضار الاجتماعية ، بما في ذلك « التوظيف » في الأموال . رعاية للصالح العام للأمة وتحقيق العدالة الاجتماعية الكاملة .

فبدأ حق الملكية الفردية في الإسلام ، لا يمنع تبعاً لهذا أن تأخذ الدولة نسبة من الربح أو نسبة من رأس المال ذاته . على أن تظل قاعدة النظام الإسلامي مرعية . وهي أن تكون للناس ملكياتهم الخاصة ، واستثماراتهم الخاصة ، مقيدة بطرق التنمية المشروعة . وأن يكون التوظيف في الأموال الخاصة ، بقدر الضرورة الطارئة حتى لا تستوحش قلوب الناس ، ولا تفتر همهم ، ولا يقل اهتمامهم بتنمية الثروة وتحسين الإنتاج . وقبل ذلك كله ، وأهم من ذلك كله أن تبقى لهم طمأنينتهم على أرزاقهم ، وألا يصبحوا عبيداً للدولة يخشون إن هم نصحوها أو عارضوها قطع أرزاقهم . فالمسلم - كل مسلم - مكلف أن يراقب الحاكم،

وأن يكفه عن الانحراف عن شريعة الله .. فأنتى له هذا إذا كان رزقه ليس في يده . ولا مال له .  
إلا ما يسمح له به ١٩

وبيان هذا ضرورى ، لكشف هذا التواطؤ الذى يبدو فى تركيز القول كله حول الزكاة ،  
كأنما هى كل حق المال فى الإسلام ، وكشف أولئك المحترفين الذين يشترون بآيات الله ثمناً  
قليلاً . وما يأكلون فى بطونهم إلا النار ! وكشف أولئك الذين يصغرون من شأن الضمانات  
فى النظام الإسلامى ، ويقولون بعدم كفايتها ، ليقولوا بعد ذلك بعدم كفاية النظام الإسلامى  
للحياة الحديثة !

وكله رجم وافتراء ، وجهل بحقيقة الإسلام ، ونظام الإسلام . وبالواقع التاريخى الذى  
سجله هذا النظام ..

\*\*\*

وبعد ، فنحن لا نكتب هنا عن « النظام الاقتصادى فى الإسلام » حتى نلم  
بكل جوانب هذا النظام . إنما نحن نكتب عن « سياسة المال » فيما يتعلق بموضوع  
« العدالة الاجتماعية » .. وحقيقة أنه لا يمكن فصل جانب عن جانب فى المنهج  
الإسلامى الشامل المتكامل للحياة ؛ ولكن طبيعة الموضوع الذى يعالجه هذا الكتاب  
لا تسمح بالتوسع أكثر من هذا فى عرض تفصيلات « النظام الاقتصادى  
الإسلامى » .

فنكتفى إذن بالقول بأن القواعد الأساسية لهذا النظام تتلخص فى :

١ - قيامه على أساس قاعدة « الاستخلاف المشروط » .. فالله سبحانه هو الخالق  
المالك لكل ما فى الأرض من أقوات وأرزاق وأموال .. وقد استخلف فى الأرض  
« الإنسان » كجنس - على شرط أن يتصرف فى هذا الملك بشريعة الله . فأما خروج  
على هذا الشرط فهو مبطل للتصرف ، ناقض لعهد الاستخلاف .





ولكن صعوبة هذا المرتقى ، وتعذر الاستواء عليه طويلاً . . لا يعنى أن الإسلام فكرة شاعرية خيالية ، ومثل وجدانى تدركه الأشواق وتقصردونه الأعمال ، فذلك الأفق الأعلى الذى نتحدث عنه لا يكلفه كل إنسان فى جميع الأزمان ؛ إنما هو هدف مرسوم لتحاولة البشرية اليوم ، كما تحاوله غداً ، وكما حاولته بالأمس ، فبلغت إليه أحياناً ، وقصرت عنه أحياناً . وهو مثل فيه من الثقة بالإنسان وضميره وطاقاته قدر كبير ، وفيه الدليل على أن الإنسانية غير ميؤوس منها فى المستقبل القريب أو البعيد . ودون ذلك مجال فسيح للعمل والواقع المستطاعين للأكثرين و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها<sup>(١)</sup> » وسماحة الإسلام تقبل من الجميع ما يستطيعون فى حدود مرسومة ، لا تهبط عنها الحياة « ولكل درجات مما عملوا<sup>(٢)</sup> » والطريق إلى الأفق الأعلى أبداً مفتوح . والفرائض والتكاليف بذاتها تكفى لاستقامة الحياة وصلاحها .

ولقد كان لذلك الروح الذى أشرنا إليه أثر فى واقع الإسلام التاريخى ، فاستحال الإسلام - وهو عقيدة وتصور - شخصيات ووقائع ؛ ولم يعد نظريات مجردة ، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مثلاً وأخيلة ؛ إنما عاد نماذج إنسانية تعيش ؛ ووقائع عملية تتحقق ، وسلوكاً وتصرفات تشهد بالعين ، وتسمع بالأذن ، وتترك آثارها فى واقع الحياة ، وفى أطوار التاريخ ؛ فكأنما كان روحاً يتلبس بهذه الشخصيات فيحولها ، ويصوغها صياغة جديدة ، وينشئها نشأة أخرى .

وهذا هو التفسير الأصديق لكل هذا الحشد من الشخصيات العجيبة التى احتفظ بها تاريخ الإسلام فى نشأته ، وعلى مدى عصوره . ولكل تلك الوقائع والأحداث التى يكاد المرء يحسبها أساطير ابتدعها خيال محلق ؛ ولم تكن ذات يوم حقائق سجلها الواقع ، ووعاها التاريخ !

(١) سورة البقرة : [٢٨٦] .

(٢) سورة الأنعام : [١٣٢] .



ونماذج التطهر الروحي ، والشجاعة النفسية ، والتضحية المؤثرة ، والفناء في العقيدة ،  
والومضات الروحية والفكرية البارة ، والبطولات الحية في شتى مناحي الحياة .. لا يكاد  
يحصيها التاريخ .

ولا بد أن نعقد الصلة جملة بين هذه البطولات والخوارق المتناثرة على مدار التاريخ ،  
وبين روح الإسلام القوى الفعال ، الذي يعد مصدر هذه الطاقة المنبثة في أطوارها  
جميعاً .

أما دراسة هذه البطولات والخوارق مفرقة ، دون وصلها بهذا المنبع الأصيل ، فأخشى  
أن تكون ناقصة ومضللة عن الحقائق الأساسية في الـكون والحياة ، برجعها سر عظمة  
كل شخصية إلى عبقرية خاصة بها ، وإهمال الروح الأول المشع المؤثر ، ذلك الروح الذي  
مس أرواح الأبطال ، كما مس عجلة الزمن ، وطبائع الأحداث ، ودفعها جميعاً في تيار حي  
قوى جياش ، تنغمز في لجة العبقریات والوقائع والأحداث !

ولن نكون مخطئين حين نرد انبعاث هذه العبقریات كلها ، وبروز تلك البطولات  
جميعها ، إلى فعل ذلك الروح القوى ؛ فهو حركة كونية شاملة ، تتوافى مع هذه  
الطاقات ، الفردية في الظاهر ، الكونية في الحقيقة . ومقياس عظمة كل عبقرية منفردة  
هو استعدادها لتلقى ذلك الفيض الكوني ؛ فلا عجب أن كانت أكبر عظمة هي نبوة  
محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - فهي التي تلقت ذلك الفيض كله واستوعبته ؛ وأطاعت  
تلقيها كاملاً والصبر عليه طويلاً ، لأنها في صميمها قوة كونية لا طاقة فردية .

- ثم تتدرج العظمت تحت أفق النبوة ، في أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -  
وفي معتنقي دينه على مدار التاريخ ، كل بقدر ما فيه من استعداد لتلقى ذلك الروح الكامن  
في ذلك الدين العظيم .

هذه النظرة الشاملة هي التي تكشف لنا عن مس ذلك الروح لأرواح البشر ؛ وما نبه





نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . » الخ .<sup>(١)</sup>

ولقد كان السفيران حاضرين ، وفيهما عمرو ، لاتنقصه ذلاقة اللسان ولاسعة الخيلة ، فلم يكذبا جعفرأ في تصويره لحال الجزيرة قبل الإسلام ، ولحقيقة الدين الجديد ومثله ؛ فهي صورة صحيحة صادقة لما كان وما صار .

تلك شهادة من بطون التاريخ عن الجزيرة العربية ، وهذه شهادة أخرى من رجل غير مسلم في العصر الحديث عن العالم كله إذ ذاك . يقول ( ج . هـ . دينسون ) في كتابه « Emotions as the Basis of Civilisation » « العواطف كأساس للحضارة » : « ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من القوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ؛ وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهياب بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه » .<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

و بعد فإن الحديث يطول ، وليس موضوع هذا الكتاب هو « الإسلام » إنما هو « العدالة

---

(١) من رواية ابن إسحق عن أم سلمة في السيرة لابن هشام الجزء الأول .

(٢) عن كتاب « الإسلام والنظام العالمى الجديد » تأليف مولاي محمد علي وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

الاجتماعية في الإسلام » فبحسبنا أن نعرض نماذج من الواقع التاريخي في هذا الموضوع  
الخاص .

\*\*\*

ولكننا لن نبدأ النماذج في هذا الاتجاه حتى نعرض بعضها في شأن آخر أعمق في  
ضمير الإسلام ، وعليه قامت كل أساس الإسلام .

قلنا منذ قليل عن تلك اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على ضمير الفرد ،  
والحساسية المرفهة التي يثيرها في شعوره . ولقد حفظ الواقع التاريخي للإسلام نماذج لتلك  
اليقظة الدائمة ، وهذه الحساسية المرفهة ، أكثر من أن نأتي هنا بها ، والنماذج القليلة المتنوعة  
تغني عن الكثير .

عن بريدة قال : « جاء معاذ بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله  
طهرني ، فقال : ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ، ثم جاء فقال :  
يا رسول الله طهرني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال  
رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فسأل رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس  
بمجنون . فقال : أشرب خمرأ ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر . فقال :  
أزنيبت ؟ قال نعم ! فأمر به فرجم . فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فقال : استغفروا لماعز ابن مالك ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم . ثم جاءته  
امرأة من غامد من الأزدي ، فقالت : يا رسول الله طهرني . فقال : ويحك ! ارجعي فاستغفري  
الله وتوبي إليه . فقالت : تريد أن تردني كما رددت معاذ بن مالك ! إنها حبلى من الزنا !  
فقال : أنت ؟ قالت نعم . قال لها : حتى تضعي مافي بطنك . قال : فكفلها رجل من  
الأنصار حتى وضعت ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية ، فقال :  
إذن لا نرجعها وندع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه . فقام رجل من الأنصار فقال : إلى





وطبيعته من الإشراف على الدقائق والجزئيات ، استجابة لحساسية ضميره بالتبعات <sup>(١)</sup> .

ولسائل أن يسأل : ولم أبقى أبو بكر على خالد إذن وهذا خطؤه ؟  
إن أبا بكر لم يسؤ ظنه بخالد إلى الحد الذي بلغه ظن عمر ؛ فقد رأى أنه أخطأ في التأويل ، ولم يقصد خطيئة ولا إثماً ؛ فوسعه عفوه ، وإن غضب على فعلته ، وبخاصة الثانية ، فكتب له كتاباً « يقطر دماً » . ولكن لما كان تقديره أن عمل خالد يقع في دائرة الخطأ ، عفا عنه وأبقاه .

هذا هو التفسير الصحيح الذي يتفق وحساسية الضمير الإسلامي في تلك الفترة .  
وأعجب العجب ما أورده رجل كالكثور هيكل في تعليل موقف أبي بكر وموقف عمر ، من خالد ابن الوليد ، مما يتجافى مع روح الإسلام ، وإن كان يتفق مع الأعيب السياسة العصرية في هذه الأيام . قال في كتابه « الصديق أبو بكر » ص ١٥٠ - ١٥٢ :  
« بلغ اختلاف الرأي بين أبي بكر وعمر في حادث مالك ابن نويرة ما رأيت . وكلا الرجاين كان يريد للإسلام والمسلمين الخير ولا ريب . أفكان اختلافهما مع ذلك راجعاً إلى خلاف في تقدير ما صنع خالد ، أم كان اختلافاً على السياسة التي يجب أن تتبع في هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين . موقف الردة وقيام الثورة بها في أنحاء شبه الجزيرة ؟ !  
الرأي عندي في هذا الخلاف أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تتبع في هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرئ مسلم ، ونزاعاً على امرأته قبل انقضاء عدتها ؛ فلا يصح بقاؤه في الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ؛ ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلي . ولو صح أنه تأول فأخطأ في أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد <sup>(٢)</sup> . وليس ينهض عذراً له

(١) عن كتاب « خالد ابن الوليد » للأستاذ صادق عرجون .

(٢) لو كان هذا صحيحاً لأقام عليه الحد في خلافته .



أنه سيف الله ، وأنه القائد الذي يسير النصر في ركابه . فلو أن مثل هذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين في احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبي بكر ويلح حتى استدعى خالداً ، وعنفه على فعلته .

أما أبو بكر فكان يرى أن الموقف أخطر من أن تقام لمثل هذه الأمور وزن . وما قتل رجل أو طائفة من الرجال خطأ في التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيط بالدولة كلها . والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها . وهذا القائد الذي يتهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يدفع بها البلاء ، ويتقى بها الخطر ؟ ! وما التزوج بامرأة إعلی خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع هذا من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه<sup>(١)</sup> ! إن التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابع والعطاء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر . ولقد كان المسلمون في حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا في حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنفه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح في أربعين ألفاً من بني حنيفة ؛ وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ؛ وكان قد تغلب على عكرمة ابن أبي جهل من قواد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد في الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك ابن نويرة ، أم من أجل ليلي الجميلة التي فتنت خالداً ، يعزل خالد وتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له !! إن خالداً آية الله وسيف الله . فلتكن سياسة أبي بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره في الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

« هذا في رأي هو التصوير الصحيح لما كان بين أبي بكر وعمر من خلاف في هذا

---

(١) هذا كلام رجل يجهل بديهيات الشريعة الإسلامية . فإذا كان خالد عدا على امرئ مسلم فلا بد من إقامة الحد عليه . ثم مادام هذا المرء مسلماً فزوجه لا تسب في حرب !!





ملايسات القرن العشرين ، وما فيه من التواءات واحتيالات وانتهازات فرص على حساب الضير أو حساب الحق أو حساب الدين .

وما ظن هيكل بعمر ؟ أفكان عمر مبقياً على خالد لوكان الظرف غير الظرف ، ولو كانت الفرصة غير الفرصة ؟ وهو يعتقدينه وبين ضميره - كما صورته هيكل « باشا » - أن خالداً آثم في حق مالك ابن نورية وفي حق الله والدين ؟

أهو عمر ذلك الرجل الذي يقيم وزناً لهذه الاعتبارات ، ويحني لها رأسه . وهو الذي كان يثنى الشواهد ولا يثنى ، ويواجه العاصفة بالآيمان ولا ينحني !

مثل هذا قد يصنعه ملوك بني أمية أو ملوك بني العباس ، ويعده الناس منهم دهاء وسعة حيلة ؛ فأما عمر فلا ، وأما أبو بكر فلا كذلك . وإنما يظن بعضهم بهما هذا الظن لضحالة روح العصر وهبوط مقاييسه ومعاييره !

وبعد فقد أسهبت في عرض هذا اللون من التفكير وتفنيده ، لأصحح الخطأ العميق الذي يقع فيه من يريدون تصوير طرائق التفكير والشعور في عصر ارتفاع الروح الإسلامى ، على ضوء التفكير والشعور في عصرنا المادى البعيد عن ذلك الروح المرفه . وما يجره هذا الخطأ من سوء الفهم لحقائق الضمير البشرى ، وطاقته في السمو والحساسية . وما أريد أن ألبس أولئك الرجال ثوباً فضفاضاً ، ولا أن أصورهم معصومين من كل ضعف بشرى ؛ ولكنما أريد أن أرد الثقة بالضمير البشرى إلى نفوس الناس ؛ كما أريد أن أصور هذه الفترة من حياة المسلمين في صورتها الصحيحة التى يستشعرها بقوة كل ضمير فيه استعداد لتطلع إلى هذا الأفق البعيد !

ثم لنمض في استعراض نماذج الحساسية المرفهة في شتى المناحي .

هذا عمر بن الخطاب خليفة يقبل حاملاً قربة ماء ، فيسأله ابنه في استنكار : لم فعلت هذا فيجيب : « أعجبتنى نفسى فأحببت أن أذلها » . يالها من حساسية ! لقد

استشعرت نفس الرجل شيئاً من الزهو في أعماقها بالخلافة وبالفتوح وبالعظمة المقبلة ، فكره لها أن تلج في هذا الزهو ، فبادر بذلها . وبذلها على مرأى من الناس . ولا يبالي أنه الخليفة الحاكم على رقعة تضم إلى بلاد العرب معظم إمبراطوريتي كسرى وقيصر !

وهذا على ابن أبي طالب خليفة يرعد من البرد في الشتاء ، وعلى جسده ثوب صيفي لا وقاء له سواء . وبيت المال في يده ، تذوده عنه تلك اليقظة في الضمير ، وذلك الإرهاف في الشعور .

ثم هذا أبو عبيدة مع جنده في عمواس ، وقد أخذها الطاعون الفاتك ، ويخاف عمر على « أمين الأمة » فيدعوه ليلتمس له مخرجاً من الهلاك في كتاب يقول له فيه : « أما بعد ، فإنني قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشفئك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك ، حتى تقبل إليّ » . وينظر أبو عبيدة في الكتاب فيدرك قصد عمر ، ويشعر أنه إنما أراد أن يستله من الوباء الفتاك ، فيقول : « يفر الله لأمر المؤمنين ! » ثم يكتب إليه : « إني قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم ، حتى يقضى الله فيّ وفيهم أمره وقضائه ، فخللني من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعني في جندی » . ويقرأ عمر الكتاب فيبكي ؛ فيسأله من حوله : أمات أبو عبيدة ؟ فيجيب والدمع يخنقه : « لا . وكان قد » . . وقد كان !

أهو الإيمان العميق بقدر الله يمسك أبا عبيدة في مرداه ! إنه لهو ، ومعه تلك الحساسية ألا يفر بنفسه ويدع جنده ، وهو وإياهم جند في سبيل الله .

وهذا بلال ابن رباح مؤذن الرسول ، يرجوه أخوه في الإسلام « أبو رويحة الخثعمي » أن يتوسط له في الزواج من قوم من أهل اليمن فيقول لهم : « أنا بلال ابن رباح ، وهذا أخي





النظرية وتأصلها في بناء الفكرة الإسلامية عن المجتمع الإنساني ، فالآن ننظر كيف طبقت هذه النظرية في واقع الحياة .

كان الرقيق في كل مكان على وجه الأرض طبقة غير طبقة الأحرار ، وكذلك كان في الجزيرة العربية . فأما محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - فقد زوج ابنة عمته « زينب بنت جحش » سليمة قریش الهاشمية من مولاه زيد . والزواج مسألة حساسة ترتفع فيها قضية المساواة إلى أفق دونه كل أفق ؛ وما كان أحد غير هذا النبي ، ولا كانت قوة غير قوة هذا الدين ، بكافية أن تحقق هذه المعجزة التي لا تتحقق إلى اليوم في غير بلاد الإسلام . ونحن نشهد في الولايات المتحدة التي بطل فيها الرق بحكم القانون ، أن الزنجي لا يحرم عليه الزواج بالبيضاء - أية بيضاء - فحسب ، بل يحرم عليه دخول المدارس والجامعات والمطاعم ، والجلوس إلى جوار البيض في المركبات العامة ، والنزول معهم في المشاوي والفنادق حتى الآن !

وحينما آخى محمد - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار في أول الهجرة كان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة ابن زيد أخوين ، وأبو ربيعة الخثعمي وبلال ابن رباح أخوين . ولم تكن هذه الأخوة مجرد لفظ ، ولكنها صلة الحياة التي تعدل صلة الدم : صلة القربى في النفس والمال وسائر مظاهر الحياة .

ثم يبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - يزيد مولاه قائداً للغزوة مؤتة ؛ ثم بابنه أسامة قائداً للغزو الروم في جيش يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وفيهم عمر ، وزير الرسول وصاحبه ، واخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد ابن أبي وقاص وهو ذو قربي من رسول الله إذ كان من أخواله بني زهرة ومن أسبق قریش إلى الإسلام ، شرح الله له



صدره وهو ابن سبعة عشر عاماً ، وهو ذو مال ونعمة وقدرة على الحرب وعبقريّة في الجهاد .

فإذا قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصر أبو بكر على إرسال جيش أسامة ، ثبت قائده الذي اختاره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم سار يودعه إلى ظاهر المدينة ، أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل ، فيستحي أسامة أن يركب وهو شاب وخليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى وهو شيخ ، فيقول : « يا خليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن » فيقسم الخليفة : « والله لا تنزل ، والله لا أركب . وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ؟ » .. ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر ، وقد حمل عبء الخلافة على عاتقه ؛ ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة ، وأسامة هو الأمير ، فلا بد من استئذانه فيه ، فإذا الخليفة يقول : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » .

يا الله ! .. إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل .. إنها آفاق عوال ، لا يرقى إليها تعليق أو مقال .

ثم تمضي عجلة الزمن فترى عمر بن الخطاب خليفة يولي عمار ابن ياسر على الكوفة - وهو أحد الموالى - ويقف بباب عمر سهيل ابن عمرو ابن الحارث ابن هشام ، وأبوسفيان ابن حرب وجماعة من كبراء قريش ؛ فيأذن قبلهم لصهيب وبلال ، وهما موليان فقيران ، لأنهما كانا من أهل بدر ومن السابقين من الصحابة ؛ فتورم أنف أبي سفيان من الغضب لهذا التقديم ؛ وينطلق لسانه يدعو بدعوى الجاهلية يقول : « لم أركاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ، ويتركنا على بابه » !

ويمر عمر ابن الخطاب يوماً بمكة فيرى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم ، فيغضب ، ويقول لساداتهم مستنكراً : « ما تقوم يستأثرون على خدامهم ؟ » ثم يدعو الخدم للأكل مع السادة في جفنة واحدة !





ولكن هذا الأفق من المساواة الإنسانية لا يتم تمامه حتى نعلم كيف كان المجتمع الإسلامي يعامل الأعلين من الناس فيه ، فإنه لا يكفي أن يحترم الأدنى ويسودّه ، إن لم ينزل الأعلى إلى مستوى واحد معه لا يفضله فيه إلا بالعمل ، والعمل وحده ، لا بالحسب والنسب ، والجاه والمال .

قال أبو يوسف في كتاب « الخراج » : حدثني عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء قال : كتب عمر رضى الله عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم ، فوافوه ، فقام وقال : يا أيها الناس إني أبعث عمالي هؤلاء ، ولالة بالحق عليكم ؛ ولم استعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم ؛ فمن كانت له مظنة عند أحد منهم فليقم . قال : فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد ، فقال : يا أمير المؤمنين : عاملك ضربني مائة سوط . فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه : فقام إليه عمرو ابن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم ؛ وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أقيده منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه . قال فقال : دونكم . قال : فأرضوه بأن اشتريت منه بمئتي دينار ، كل سوط بدينارين !

ولقد اتقاها عمرو بن العاص عن سواه ، ولم يستطع أن يتوقاها عن ابنه حينما لطم ابن المصري فأقادله منه عمر ، وهو يقول للمصري : « اضرب ابن الأكرمين » وكاد عمرو نفسه يذوقها لولا أن كف المصري وعفا !

ولقد جلس عمر ذات يوم يقسم مالا بين المسلمين ، فازدحم الناس عليه ؛ فأقبل سعد ابن أبي وقاص - وقد مرّ بنا نسبه وبلاؤه في الإسلام - فزاحم الناس حتى زحمهم وخلص إلى عمر ، فعلاه عمر بالدرة وهو يقول : « لم تهب سلطان الله في الأرض فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك » .

ولعل قائلًا أن يقول : إنما هذا خليفة !

فلننظر الآن ماذا يلقي الخلفاء والملوك من رعاياهم من حرية في القول والشعور ، منشؤها ذلك التحرر الوجداني الذي بثه الإسلام في الضمير ؛ وتلك المساواة المطلقة التي حققها في القول والعمل . وذلك النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي كفل لكل فرد وجوده وكرامته وكفل له العدل والنصفة من الأعلياء قبل الضعفاء !

هذا عمر يخطب الناس وهو خليفتهم فيقول : « إن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوتوني » فيندب له رجل من عامة المسلمين يقول : « لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقوتناه بحد سيفنا » ، فما يزيد عمر على أن يقول : « الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوته بحد سيفه » ! وغنم المسلمون أيراداً يمانية ، فخصه برد ، وخص ابنه عبد الله برد - كأي رجل من المسلمين - ولما كان الخليفة في حاجة إلى ثوب ، فقد تبرع له عبد الله ببرده ليضمه إلى برده فيصنع منهما ثوبا . ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب . فقال : « أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا » . فوقف سلمان فقال : لا سمع لك علينا ولا طاعة . قال عمر : ولم ؟ قال سلمان : من أين لك بهذا الثوب ، وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ قال : لا تعجل ، ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد ( فكلهم عبد الله ! ) قال : يا عبد الله ابن عمر . قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : ناشدتك الله البرد الذي اتزرت به أهو برؤدك ؟ قال : اللهم نعم . قال سلمان : الآن مر نسمع ونطع .

وبعد ، فلعل قائلًا أن يقول : إنما هذا عمر !

فذا أبو جعفر المنصور ينشئ دولة في ظل الإرهاب والبطش - ولكنه لا يستطيع أن يمضي في ذلك إلى بعيد ، وسلطان الإسلام قائم يحمي الناس حتى من ذوى البطش والإرهاب ! . . هاهو ذا يقيم دولة في هذا الجو فيدخل عليه سفيان الثوري فيقول : « ... فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ، ومال أمة محمد بنير إذههم . وقد





وفي أيام الظاهر بيبرس كان الشيخ محي الدين النووي بدمشق ، وكان كثير الوعظ للظاهر ، يكتب إليه بما يراه إن كان بمصر ، ويصدع بكلمة الحق أمامه إن كان الظاهر بدمشق . .

وقد سجل السيوطي في حس المحاضرة طائفة كبيرة من تلك المكاتبات ، وأكثرها خاص بطلب ترك بعض الضرائب المفروضة لضيق الحال ، وخشية المآل ، فيقول في إحداها: « إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حال ، بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشى ، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ، ونصيحتهم ( أى ولي الأمر ) في مصلحته ومصلحتهم ؛ فإن الدين النصيحة » .

وقد رد السلطان هذه النصيحة ردا عنيفا ، واستنكر على العلماء موقفهم منه ، وسكوتهم يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل في عهد التتار عندما استولوا على الشام ؛ فردد الشيخ أيضاً رداً قويا مؤكدا قوله ونصيحته ، ومبيناً أنها الميثاق الذى أخذه الله على العلماء ليبيننه ، ويقول - رضى الله عنه - ردا عليه وعلى تهديده : « وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ؟ وبأى شيء كنا نذكر طغاة الكفار ، وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا . . . وأما أنا فلا يضرني التهديد ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإنني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله . . . وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كان ، وألا نخاف في الله لومة لائم ؛ ونحن نحب السلطان في كل الأحوال ، وما ينفعه في آخرته ودنياه » .

وقد توالى كتب الشيخ بهذه القوة الرفيقة ، ولكن لم ينتصح الظاهر بنصيحته ،



واستمر في جباياته لأنها الحرب التي تحتاج إلى المال والعتاد ؛ وقد جمع السلطان فتاوى العلماء في تأييد عمله ، فكتبوا بما أراد ماعدا الشيخ محي فان ذلك زاده استمسا كما برأيه وشدة فيه ؛ فأحضره الظاهر ليوقع على ما وقعوا ؛ فعندئذ أجابه جوابا عنيفا ، بعد تلك الكتب الرفيعة . قال له : « أنا أعرف أنك كنت في الرق للأسير بندقدار ، وليس لك مال ، ثم من الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة <sup>(١)</sup> من ذهب ، وعندك مائة جارية ، لكل جارية حق من الحلى ، فإن أنفقت ذلك كله ، وبقيت ممالكك بالبند الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفيتتكت بأخذ المال من الرعية » .

فغضب الظاهر ، وقال : اخرج من بلدى (أى دمشق) فقال : السمع والطاعة . وخرج إلى نوى بالشام ، فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، ومن يقتدى به ، فأعده إلى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ ، وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر <sup>(٢)</sup> .

وقد وعى التاريخ القريب نماذج من هذه الكرامة نذكر منها حادثين سمعتهما من أفواه الرواة ، ولا أعلم أنهما قد دوّنا . والأول رواه لى المرحوم أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف عن عصر إسماعيل ، والثانى يرويه الكثيرون لقرب عهده في أيام الخديو توفيق .

فأما الحادث الأول فكان عند مازار السلطان عبد العزيز مصر في أيام إسماعيل . وكان إسماعيل حفيا بالزيارة ، لأنها كانت جزءاً من برنامج له للحصول على لقب خديو ، مع عدة امتيازات في نظام الحكم بمصر . وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل السلطان العلماء

(١) الحياصة : الثياب الموشاة بالذهب في مضايقها .

(٢) عن كتاب « ابن تيمية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

في السراى . ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد ، منها أن ينحنى الداخل إلى الأرض ، ويأخذ « تعظيماً تركياً » ثلاث مرات ، ثم ما أدرى ماذا من تلك التقاليد العتيقة السخيفة المنافية لروح الإسلام . . فقد كان حتماً على رجال السراى أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، كي لا يخطئوا في حضرة السلطان !

وعندما حان الموعد دخل السادة العلماء الأجلاء ؛ ففسوا دينهم واشتروا به دنياهم ؛ وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ؛ وأخذوا من الأرض السلام إلى رؤوسهم ، ثم منها إلى أفواههم ، ثم منها إلى صدورهم . وخرجوا موجهين ظهرهم إلى الباب ووجههم إلى السلطان ، كما أمرهم رجال التشريفات .. ! إلا عالماً واحداً هو الشيخ حسن العدوى ؛ ذكر دينه ونسى دنياه ؛ واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله . دخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال المؤمنون بالله ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : « السلام عليكم يا أمير المؤمنين » وابتدأه بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالم الحاكم . دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذاب الله ، والعدل والرحمة بين رعاياه . . فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس كما يخرج الرجال المؤمنون بالله !

وأسقط في يد الخديو ورجال السراى ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لابد غاضب ، فضائعة تلك الجهود التي بذلوا ، فذهبت تلك الآمال التي نسجوا ... !

ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدى ؛ فلا بد أن تصدع القلوب قوية حارة ، كما انبعثت من مكنها قوية حارة . وهكذا كان . فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلع عليه دون سواه !

وأما الحادث الثانى فوقع فى « دار العلوم » بين الخديو توفيق باشا والشيخ حسن الطويل .

كان الرجل يلبس جلباباً وجبة غير مشقوقة ، وهو أستاذ في الدار . وفي يوم علم الناظر أن الخديو سيزور مدرسته ، فأخذ أهبطه ، وزين مدرسته ، وكان من بين الأهبة أن يغير الشيخ حسن الطويل زيّه ، ويستحضر له قفطاناً وجبة مشقوقة ، حتى يظهر في الزي الذي يليق أن يقابل به الحكماء !

وسمع الشيخ طلب الناظر فوافق بالإيماء . وفي الصباح حضر الشيخ كما هو ومعه منديل « محلاوى » به حزمة ملابس . ولما رآه الناظر هكذا سىء وجهه ، وقال والغضب والألم يبدوان عليه : أين الجبة والقفطان ياسيدنا الشيخ ؟ فأشار إلى المنديل وقال : هنا ؟ وترك الناظر يفهم أنه سيرتديهما عند قدوم الزائر العظيم ! فاطمأن الناظر إلى هذا التصرف الغريب !

ومر الوقت واهتزت أركان الدار بقدوم الزائر المرتقب . وهنا كانت المفاجأة العظمى للناظر وللأساتذة وللجميع . . تقدم الشيخ من الخديو ويده الحزمة وهو يقول في بساطة وثقة واعتداد : قالوا لا بد أن تحضر بالجبة والقفطان ، فحضرت بالجبة والقفطان ، فإن كنت تريد الجبة والقفطان فهما ، وإن كنت تريد « حسن الطويل » فهذا هو حسن الطويل ! قال الخديو طبعاً إنه يريد حسن الطويل !

هذه نفوس مؤمنة لاتعتز إلا بعزة الإسلام ؛ وقد تحررت وجداناتها وضمائرها من كل القيم الزائفة ، والاعتبارات الفانية . لقد فهمت الإسلام على حقيقته ، واستشعرته في صميمه ، واستلهمت روحه القوية العالية ، فلم تعد في حاجة إلى استرضاء إنسان . وهذا هو الإسلام .

\*\*\*

وبعد فلعل مما يتصل بالمساواة الإنسانية والتحرر الوجداني والعدالة المطلقة أن نتحدث عن الواقع التاريخي في معاملة البلاد المفتوحة ، والطوائف غير الإسلامية في بلاد الإسلام .

فهذا لوزن المساواة والعدل يتجاوز الأفراد إلى الجماعات؛ ويتجاوز حدود الإسلام إلى حدود الإنسان .

إن الحديث عن البلاد المفتوحة ليسوقنا إلى الحديث عن طبيعة الفتح الإسلامى وأسبابه وغاياته . وهو مبحث طويل ، نجتزئ منه بالقليل الذى لا بد منه ، والذى له علاقة وثيقة بالعدالة الاجتماعية فى محيطها الإنسانى .

لقد قامت دعوة الإسلام على مخاطبة العقل والضمير والوجدان ؛ وتجردت من وسائل القهر ، حتى القهر المعنوى بالخوارق المعجزة التى صاحبت الأديان الأولى ؛ فالإسلام هو الدين الذى أحترم القوى المدركة الشاعرة فى الإنسان ، فاكتمى بخطابها بلا قهر ولا إعجاز بخوارق الطبيعة ، فمن باب أولى ألا يجعل القهر المادى بالسيف أداة من أدواته . . « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ <sup>(١)</sup> » . . « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ <sup>(٢)</sup> » .

ولكن قريشاً وقفت أول الأمر بالقوة المادية فى طريق الدين الجديد ؛ وأدت من شرح الله صدره للإسلام ؛ وشردت المسلمين القلائل من أرضهم وديارهم وأبنائهم ؛ وتآمرت عليهم أن تقاطعهم فى الشعب حتى يهلكوا جوعاً ؛ ولم تدع وسيلة من وسائل القوة المادية إلا استخدمتها للصد عن هذا الدين . فلم يكن بد أن يدفع الإسلام عن نفسه ؛ وأن يرد هذا الظلم عن أهله : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَيْنَهُمْ ظَالِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ <sup>(٣)</sup> » . . « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ <sup>(٤)</sup> » .

ثم خلصت جزيرة العرب للإسلام ، فامتدت الفتوح الى ما وراء الجزيرة . فقيم كانت هذه الفتوح ؟

(٢) سورة النحل : [١٢٥] .

(٤) سورة البقرة [١٩٠]

(١) سورة البقرة : [٢٥٦] .

(٣) سورة الحج : [٣٩] .

إن الإسلام كما أسلفنا عقيدة عالمية ، ودين عام ؛ فهو لا يحصر نفسه في حدود الجزيرة ، إنما يريد أن يفيض على الإنسانية كلها في جميع أقطارها . ولكنه يجد أمامه قوة الدولة في إمبراطوريتي كسرى وقيصر المتاخمتين له ، تقف له بالمرصاد ؛ فلا تسمح لدعاته أن ينتشروا في الأرض ، ليكشفوا للناس عن حقيقة هذا الدين . ولا بد له أن يزيل هذه القوة - قوة الدولة - ويقيم مكانها النظام الإسلامى القائم على عبودية الناس لله وحده ، وخروجهم من العبودية للعباد ، ليخلى بين الهدى والناس ، وليسمع كلمته خالصة ؛ فمن شاء استمع إليها وهو حر الإرادة ؛ ومن شاء أعرض عنها وهو مالك لأمر نفسه ، بعد أن تزول قوة الدولة المادية من الطريق . وبعد أن تصبح الدينونة لله وحده - بسيادة شريعته ونظامه - ولا تكون لأحد من العباد . وهذا معنى أن يكون « الدين » كله لله حسب التعبير القرآنى الكريم : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »<sup>(١)</sup> فالدين هنا يعنى الدينونة . والمقصود به أن تكون حاكمية الله هى وحدها التى يدين لها الناس ، وأن يخرجوا من حاكمية العباد ثم يختاروا عقيدتهم بلا إكراه ..

هذه الفتوح الإسلامية إذن لم تكن غزواً للشعوب بالقوة ؛ ولا استعماراً للاستغلال الاقتصادى على نسق الاستعمار فى القرون الأخيرة . إنما كانت إزالة للقوة المادية للدولة التى تحول دون الشعوب ودون العقيدة الجديدة . كانت غزواً روحياً للشعوب ، وغزواً مادياً للحكومات التى تقهر هذه الشعوب ، وتصدّها عن الدين الجديد بالقوة المادية والجبروت ، وتخضعها للمتألهين من الحكام .

وتبعاً لحقيقة أن الإسلام دين للبشر كافة وأنه لا يعتمد على القهر المادى ، فإنه وضع شعوب الدنيا أمام ثلاث طرق ، لكل أن يسلك إحداها : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال .

---

(١) سورة الأقال : [ ٣٩ ]

فأما الإسلام ، فلا أنه الهدى ، ولأنه التصور الجديد الكامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ؛ وهو المجاز الذى يعبره غير المسلم ، فإذا هو منذ اللحظة الأولى أخ لجميع المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، لا يرتفعون عليه بحسب أو نسب أو مال أو جاه ، ولا يختلف عنهم بجنس أو لون أو أمة أو عشيرة .

وأما الجزية ، فلأن الفرد المسلم يؤدي ضريبة الدم لحماية الدولة ؛ ثم يؤدي للدولة الزكاة لحماية المجتمع . والفرد غير المسلم يتمتع بالأمن فى ظل الدولة الإسلامية ، وبالحماية الداخلية والخارجية ، وبسائر المرافق التى تهيئها الدولة للسكان ، كما يتمتع بالضمان الاجتماعى عند العجز والشيخوخة . فيجب عدلا أن يساهم فى هذا كله بالمال . ولما كانت الزكاة عبادة إسلامية فوق أنها فريضة مالية ، فإن الإسلام - زيادة فى حساسيته تجاه الذين لا يعتقونه - لم يشأ أن يرغمهم على أداء عبادة إسلامية ، فأخذ منهم الفريضة المالية فى صورة جزية ، لا فى صورة زكاة ، منظورا فى تقديرها إلى ضريبة الدم التى لا يؤديها إلا المسلمون . ثم إن الجزية علامة تسليم ، أى عدم مقاومة للإسلام بالقوة ، وتخلية بينها وبين الناس . وهذا ما يهدف إليه الإسلام .

وأما القتال ؛ فلأن إباء الإسلام والجزية دليل على الإصرار الواضح على الحيولة دون الإسلام وأفكار الناس . فيجب إذن أن يزال هذا الإصرار المادى بالقوة المادية ، لأن هذا هو الطريق الوحيد الأخير .

ولقد حقق الإسلام أهدافه كاملة فى البلاد المغزوة ؛ فكفل لأهلها المساواة المطلقة بأهل الجزيرة فى حالة الإسلام ؛ وكفل لهم حقوق الإنسانية الكريمة فى حالة دفع الجزية ؛ وكفل لهم المعاملة الإنسانية العادلة فى حالة القتال .

أقر الإسلام بعض حكام البلاد المفتوحة على حكمها إذ صاروا من المسلمين . فهذا « بازان » الفارسى يقره أبو بكر على حكم اليمن . وهذا « فيروز » يقيمه حاكما على

صنعاء ، فلما أجلاه عنها قيس بن عبد يغوث العربي ، رده إليها أبو بكر منتصراً للمسلم الفارسي على المسلم العربي !

كذلك أقر الحكام المسلمون كثيراً من الموظفين في بلادهم المفتوحة على وظائفهم التي هي دون الولاية ، ممن بقوا على دينهم ولم يسلّموا ، وأخلصوا في العمل للصالح العام .

ومع أن نصوص الإسلام تبيح للفاتحين أن يستأثروا بكل ما يملك المحاربون الذين يأبون الإسلام والجزية ويقاتلون المسلمين ، فإن عمر ابن الخطاب حين فتحت فارس على أيامه ، تصرف بما أملت عليه روح الإسلام ، فاستبقى الأرض لأهلها وفرض عليها الخراج ، مراعيًا في ذلك مصلحتين : مصلحة أهل البلاد المفتوحة - ولو أنهم قاتلوا المسلمين - لتبقى لهم وسيلة ارتزاقهم وعملهم ؛ ومصلحة الأجيال القادمة من المسلمين ؛ فلا يستأثر بالأرض دونهم الفاتحون في جيل واحد ؛ بل يؤخذ منها الخراج فينفق في مستقبل الأجيال على المصالح العامة ؛ وينال منه المستحقون بقدر ما يستحقون في الزمن الطويل .

وهناك ظاهرة واضحة في معاملة الإسلام للبلاد المفتوحة . فلقد عاملها على الأساس الإنساني الكريم ؛ فأباح لها كل ما فيه من خير ؛ وأتاح لها التمتع بمزاياه جميعاً دون قيد ولا شرط ؛ بل دعاها بكافة الوسائل إلى الانتفاع بذلك الخير والتمتع بهذه المزايا . ولم يقم حاجزاً من اللون أو الجنس أو الدين أو اللغة أمام أحد ؛ فاستطاع الجميع أن يبذلوا نشاطهم الطبيعي لخير الجميع . وقد أسلفنا كيف نبغ الموالى وأبناء البلاد المفتوحة في خاصة ما يختص بالإسلام وهو الفقه والحديث ؛ فلم يكن مرفق من مرافق الحياة العامة موقوفاً على أبناء الجزيرة الفاتحين ؛ حتى الولاية العامة كانت من نصيب بعضهم في بعض الأحيان . كما أن أموال كل بلد كانت تنفق في مصالحه أولاً ؛ فلا يرسل إلى بيت

المال إلا ما فضل منها . فلم تكن البلاد المفتوحة مستعمرة يعيش الفاتحون من دماء أهلها وأموالهم .

ومما يتصل بهذه الظاهرة الواضحة تلك الحرية التي كفلها الإسلام لأهل البلاد المفتوحة في مزاولة شعائرهم الدينية ؛ وهذه الحماية التي فرضها لبيعهم وكنائسهم ومعابدهم وأحبارهم ورهبانهم ؛ وهذا الوفاء بالعهود المقطوعة لهم وفاء نادر المثال لم تعرفه الإنسانية في معاملاتها الدولية في القديم أو الحديث . وما تزال تقاليد الإسلام إلى اليوم عاملة في هذا المجال .

وإن الإسلام ل يبدو فارعاً سامقاً رفيعاً كريماً في واقعه التاريخي في جميع العصور ، حينما تقاس إليه الحضارة الغربية القائمة ، وما تصنعه بالبلاد التي يوقعها سوء الطالع في أوهاق الاستعمار ، حيث يحال بين هذه البلاد وبين المزايا الحقيقية للحضارة الغربية في التربية والتعليم ، وفي الاقتصاد والتعمير ، كي تبقى أطول أمد ممكن بقرة حلوبا للمستعمرين . وذلك فوق الإذلال لكل كرامة إنسانية ، فردية أو جماعية ؛ وفوق الفساد الخلقى الذي ينشر عن قصد وسوءنية ؛ وفوق الفتن الحزبية والطائفية التي تبذر بذورها ويتعهد غرسها ؛ وفوق سائر ألوان اللصوصية والنهب والسلب للأفراد والجماعات والشعوب . فأما الحرية الدينية التي يتشدد بها بعضهم في هذا الزمان ، فقد سبقها فظائع محاكم التفتيش في الأندلس ، وفظائع الحروب الصليبية في الشرق . وما تزال هذه الحرية الدينية شكلية . فقد كان المبشرون المسيحيون في السودان الجنوبي إلى عهد قريب جداً تجند لهم كل قوى الدولة ، بينما يحظر دخول المسلمين حتى للتجارة ، وهذا « أللنبي » القائد الإنجليزي في الحرب العظمى الماضية يعبر عن نفس كل أوربي وهو يدخل بيت المقدس فيقول : « الآن فقط انتهت الحروب الصليبية » وهذا هو الجنرال كاترو الفرنسي يقف في دمشق في ثورتها الأخيرة عام ١٩٤٠ فيقول : « نحن أحفاد



الصلبيين ، فمن لم يعجبه أن نحكم فليرحل » ويقول مثلاً زميل له في الجزائر سنة ١٩٤٥ .  
فأما في الكتلة الشيوعية فالمسلمون يصب عليهم الإفناء بالجملة ، فيتناقص عددهم في ربع قرن  
من اثنين وأربعين مليوناً إلى ستة وعشرين مليوناً في روسيا ، ويخزمون الآن بطاقات التموين  
التي يستحيل على الأفراد أن يحصلوا على ضرورياتهم بدونها . ويقال لهم : لكم  
أن تصلوا لله إذا شئتم ، ولكن لا طعام لكم من الدولة فاطلبوا من الله هذا الطعام !  
وشبيه بهذا ما يصيبهم في الصين ويوغسلافيا وفي كل مكان .

لقد كان الإسلام قمة في العدل الاجتماعي الإنساني الشامل لم تبلغها بعد الحضارة  
الأوروبية . ولن تبلغها أبداً ، لأنها حضارة المادة الجامدة . حضارة القتل والقتال والغلب  
والنضال !<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ولقد سبق الحديث عن منهج الإسلام في الرحمة والبر والتكافل الاجتماعي الشامل  
بين القادرين والعاجزين ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الحاكم  
والمحكوم ؛ بل بين جميع أبناء الإنسان . فالآن نعرض نماذج من الواقع التاريخي ، مما  
حفل به تاريخ الإسلام الطويل .

فهذا أبو بكر كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وقد ربح  
الكثير من التجارة بعد إسلامه ؛ فلما هاجر إلى المدينة مع صاحبه - صلى الله عليه وسلم -  
لم يكن قد بقي له من كل مدخره سوى خمسة آلاف درهم . لقد أنفق ماله المدخر في افتداء الضعفاء  
من الموالى المسلمين الذين كانوا يذوقون العذاب ألواناً من ساداتهم الكفار ، كما أنفق في بر  
الفقراء والمعوزين .

وهذا عمر ابن الخطاب - وإنه لرجل فقير - يصيب أرضاً بخير ، فيجىء

---

(١) يراجع بتوسع كتاب « السلام العالمي والإسلام » وفصل : « طبيعة الفتح الإسلامي » في كتاب  
« دراسات إسلامية » للمؤلف .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول : أصبت أرضاً بخير لم أصب مالا قط أنفس عندي منه . فما تأمر به ؟ فيجيبه الرسول : « إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها » فيجعلها عمرو قفا على الفقراء والقربى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضعيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم صديقاً غير متمول فيها . ويخرج بذلك من أعز ماله تصديقاً لقول الله : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »<sup>(١)</sup> . وهذا عثمان - قبل الخلافة - ترد غير له من الشام في وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجذب ، فإذا هي ألف بعير موسوقة براً وزيتاً وزيباً ، فيجيئه التجار يقولون : بعنا من هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس . . فيقول : حبا وكرامة . كم تربحوني على شرائي ؟ فيجيبون : الدرهم درهمين . فيقول : أعطيت أكثر من هذا . فيقولون : يا أبا عمرو ، مابقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذي أعطاك ؟ فيجيب : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ فيقولون : لا . فيشهد الله على أن هذه العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين . وهذا على وأهل بيته يتصدقون بثلاثة أرغفة من سوق كانت لهم ، على مسكين ویتيم وأسیر ، ثم يبيتون على الطوى ، وقد شبع المسكين والیتيم والأسیر . وهذا الحسين يثقله الدين وهو يملك عين أبي نذر ، فلا يبيعها ، لأن فقراء المسلمين يستقون منها ، فهي لهم ، وليحتمل ثقل الدين وهو الكريم ابن الكرام من ذروة هاشم . وهؤلاء الأنصار في المدينة يشركون المهاجرين في أموالهم ومساكنهم ، ويؤاخذونهم فيعقلون معاقبتهم ، ويفقدون عانيهم ، ويخلطونهم بأنفسهم « وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »<sup>(٢)</sup> . كما وصفهم القرآن الكريم .

(٢) سورة الحشر : [٩] .

(١) سورة آل عمران : [٩٢] .

وتظل روح الإسلام عاملة في هذا الاتجاه ما بعدت دار الإسلام عن التأثير بالحضارة الغربية المادية ، فيروى الأستاذ عبد الرحمن عزام في كتابه « الرسالة الخالدة » عن قبيلة الطوارق يقول :

« رأيت بعض قبائل الطوارق في شمال إفريقية يحيون حياة هذا التكافل السعيد ؛ فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وإنما لجماعته ، وأعظم ما يفخر به ويعتز ، هو ما يصنع لهذه الجماعة . وأول ما لفت نظري لحالتهم هذه أن رجلا من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ، ونزل بينهم في فزان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ؛ ثم خرج يطلب الرزق ، ويريد أن يرد الجميل ، وترك أسرته في جوار هذه الجماعة الإسلامية . غير أن النحس لازمه ، ولم يستطع كسبا ، فجاءنا في « مصراتة » يستمدنا ، فأعناه ليعود إلى أهله ، ولكنه عاد إلى بعد نحو سنة مرة أخرى ، فظننت أنه رجع من أهله ، فقال : لا . وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلي . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : بعد لقائنا الأخير اتجرت بما حصلت عليه ، وأصبح الآن في يدي ما أعود به إلى جماعة الطوارق . فقلت : إلى أولادك أم إلى جماعة الطوارق ؟ قال : إلى الطوارق أولا ، فهم آووا أولادي في غيبتى ، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائبا منهم ، وأقسم ما أعطى الله بين أولادي وأولاد جيراني . فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟ قال : كلنا في الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ، والواحد من جماعتنا يستحق أن يعود إلى النجع خاليا ، لا حياء من أهل بيته ، بل حياء من جيرانه الذين ينتظرون عودته ، كأهل بيته سواء بسواء »

ثم يعقب على هذه المشاهدة بكلمة صادقة تمثل الحقيقة الواقعة :

« ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ، ولا هي من مستلزمات عصبيتها ، وإنما هي الروح الإسلامية أكثر ظهوراً

في هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية . وقد وجدت هذه الروح في الدساكر والقرى الإسلامية التي لا تزال مطبوعة بالطابع الإسلامي ، سواء أكان أهلها عرباً أم عجماء ، بيضاً أم سوداً ، في المشرق أم في المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين في كثير منها لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر . . لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة ، من عشرات الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ، ولو انقضت جماعتهم ؛ ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم فضلاً عن جيرانهم . »

هذا التكافل الذي توحى به روح الإسلام لم يكن متروكاً للوجدان الفردي والجماعي وحده . فقد كان الحاكم يلزم به ويطبقه . فهذا عمر ابن الخطاب يفرض للمفطوم والسن والمريض فريضة من بيت المال - وذلك غير مصارف الزكاة المعروفة . وهذا هو يدرأ حد السرقة في عام الرمادة حين جاع الناس . لأن في الجوع شبهة الاضطرار إلى السرقة ، والحدود تدرأ بالشبهات .

ولعل الحادثة التالية عن عمر ذات معنى حاسم في التطبيق العملي للتكافل ، ولحق الملكية الفردية وحدوده في محيط الجماعة !

« روى أن غلماناً لا بن حاطب ابن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر ، فأقرؤا ، فأمر كثير ابن الصلت بقطع أيديهم ، فلما وليّ رده ، ثم قال . أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجميعونهم ، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، لقطعت أيديهم ثم وجه القول إلى عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة فقال : وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغر منك غرامة توجعك ! ثم قال : يا مزني ، بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعائه . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة » وأعفى الغلمان السارقين من الحد ، لأن صاحبهم اضطرهم إلى السرقة لجوعهم ، وحاجتهم إلى سد رمقهم .

ومما يزيد في جلال هذا التكافل الاجتماعي في تاريخ الإسلام أن يتعدى الدائرة الإسلامية إلى الدائرة الإنسانية .

رأى عمر شيخاً ضريراً يسأل على باب فسأل ، فعلم أنه يهودى فقال له : ما أباك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال : انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من مساكين أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

ولما سافر إلى دمشق مر بأرض قوم مجذمين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت .

وهكذا اترفع روح الإسلام بعمر إلى هذا الأفق الإنساني الكريم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ؛ فيجعل الضمان الاجتماعي حقاً إنسانياً ، لا يتعلق بدين ولا ملة ، ولا تعوقه عقيدة ولا شرعة .

ألا إنه الأفق البعيد السامق الذي تطلع البشرية اليوم دون مرتقاه !

\*\*\*

فأما سياسة الحكم وسياسة المال من الوجهة الرسمية في الدولة ، فقد شهد الواقع التاريخي عنهما فترة فريدة في حياة الإسلام ، لم تعمر طويلاً مع الأسف الشديد . وسنرى فيما بعد علة هذا ، لنرى إن كانت العلة كامنة في طبيعة النظام الإسلامي في هاتين الناحيتين كما يزعم الزاعمون أم إنها الملابسات الأخرى التي لا علاقة لها بطبيعة هذا النظام . ولنبدأ بالحديث عن سياسة الحكم ، إذ كانت سياسة المال في الواقع التاريخي تبعاً لها ، وفرعاً عن تصورهما .

حينما حضرت النبي صلى الله عليه وسلم الوفاة دعا بأبي بكر ليصلي بالناس ؛ فلما

راجعته عائشة ، لأن أبا بكر رجل أسيف ، فإذا قام في الناس لم يسمعا صوته .. أخذه الغضب ، وذكر صويحبات يوسف ! وأصر على دعوة أبي بكر ليصلي بالناس .

أفكان ذلك استخلاقاً من الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحبه في الفار ؟ وهل فهم المسلمون منه ذلك فهماً صريحاً ؟

نستبعد نحن هذين الفرضين . فلو شاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يستخلف ، ولو كان هذا الاستخلاف من فرائض هذا الدين ، لجهر بالاستخلاف كما جهر بكل فريضة أخرى من فرائض دينه . ولو أن فهم المسلمون منه فهماً صريحاً أنه يستخلف أبا بكر ما ثار الجدل في السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، فما كان الأنصار ليجادلوا في أمر رسول الله . كان الأمر إذن للشورى بين المسلمين ، وللإقناع وللإقتناع بمن هو أحق الناس بالخلافة . ولئن كان الجدل يوم السقيفة قد انتهى إلى أن تكون الخلافة في المهاجرين ، فما كان ذلك فرضاً إسلامياً ؛ ولكنه تواضع واتفق بين جماعة المسلمين ، كان الأنصار يملكون رده ولا تثريب عليهم ، لولا أنهم ارتضوه لأنه أصلح خليفة ، ولأن المهاجرين أسبق إلى الإسلام ، ولعوامل محلية واقعة بين الأوس والخزرج كذلك في المدينة .

وإذا كان التراضي قد تم يومذاك أن تكون الخلافة في المهاجرين ، فما كان هناك ما يلزم أن تكون في قريش خاصة ؛ ولو كان الأمر كذلك ما قال عمر ابن الخطاب وهو يعين أهل الشورى بعده : « ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته » فسالم ليس قرشياً عن يقين ! وروح الإسلام ومبادئه تأبى أن تجعل لقريش درجة فوق درجة المسلمين ، لجرد أنها قريش ، أو أن فيها نسب الرسول . والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » (١) .

ولقد استخلف أبو بكر عمر ، ولكن هذا لم يكن إلزاماً منه للمسلمين ؛ فلقد كانوا في

---

(١) مسلم وأبو داود والترمذی

حلّ من رد هذا الاستخلاف . وعمر لم يصبح خليفة بحكم استخلاف أبي بكر له ، بل بمبايعة الناس إياه . وكذلك عين عمر بعده ستة للشورى على أن يختاروا منهم واحداً ، وما كان المسلمون بملزمين أن يختاروا واحداً من الستة ، وإنما هم التزموا لأن الواقع كان يشهد بأن الستة هم الأفضل ، وأن تعيين عمر لهم يتفق مع هذا الواقع .. من هنا جاء الالتزام . فأما البيعة لعليّ ؛ فقد ارتضاها قوم ، وأباها آخرون ، فكانت الحرب للمرة الأولى بين المسلمين . وأعقبها الكوارث التي حاقت بروح الإسلام ومبادئه في الحكم والمال ، وفي غير الحكم والمال .

هذا الاستعراض السريع يكشف لنا عن قاعدة الإسلام الأصلية في الحكم . وهي أن اختيار المسلمين المطلق هو المؤهل الوحيد للحكم . وهذا ما فهمه المسلمون وهم يؤخرون علياً ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرب الناس نسباً إليه . ولقد يكون عليّ قد غبن في تأخيرهِ - وبخاصة بعد عمر . ولكن هذا التأخير كان له فضله في التقرير العملي لنظرية الإسلام في الحكم ، حتى لا تقوم عليها شبهة من حق الوراثة ، الذي هو أبعد شيء عن روح الإسلام ومبادئه . وأيا كان الغبن الذي أصاب شخص الإمام كرم الله وجهه فإن تقرير هذه القاعدة كان أكبر منه على كل حال !

فلما جاء الأمويون ، وصارت الخلافة الإسلامية ملكاً عضوياً في بني أمية ، لم يكن ذلك من وحي الإسلام ، إنما كانت من وحي الجاهلية الذي أطفأ إشراقة الروح الإسلامي . ويكفي أن ثبت هنا بعض الروايات عن الملابس التي صاحبت البيعة ليزيد ابن معاوية : كان معاوية بعد أخذ البيعة ليزيد في الشام قد كلف سعيد ابن العاص أن يمثّل لإقناع أهل الحجاز ، فعجز ، فسار معاوية إلى مكة ومعه الجند والمال . ودعا وجهاء المسلمين فقال لهم :

« قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم بيزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن

تقدموا يزيد باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمزون وتجبون المال وتقسمونه «  
فأجابه عبد الله ابن الزبير غيبراً بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف أحداً ،  
أو كما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل  
الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . فاستشاط معاوية  
غضباً وهو يقول : « هل عندك غير هذا ؟ » قال : لا . والتفت معاوية إلى الآخرين  
يسألهم : فأنتم ؟ قالوا على ما قال ابن الزبير . فقال يتوعدكم : « أعذر من أنذر .  
إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحل ذلك  
وأصفح . وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع  
إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ؛ فلا يبقين رجل إلا على نفسه !

فأما الذى كان بعد ذلك ، فهو أن أقام صاحب حرس معاوية رجلين على رأس كل  
وجه من وجهاء الحجاز المعارضين ، وقد قال له معاوية : « إن ذهب رجل منهم يرد على  
كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما » .

ثم رقى المنبر فقال : « هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبرم أمر دونهم ولا  
يقضى إلا على مشورتهم . وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد ، فبايعوه على اسم الله <sup>(١)</sup> »  
فبايع الناس !!!

على هذا الأساس الذى لا يعترف به الإسلام البتة قام ملك يزيد . فمن هو يزيد ؟  
هو الذى يقول فيه عبد الله ابن حنظلة : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن  
نرمى بالحجارة من السماء . إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب  
الخمر ، ويدع الصلاة . والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً » .

(١) ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٦ هـ . ونحن لا نحب أن نجزم بصدق مثل هذه الرواية ولكن تبرئة  
للإسلام فى ذاته نقول : لأنها إن صحت كان هذا مخالفة أساسية لطبيعة المنهج الإسلامى فى الحكم لا  
تبررها حجة ، ولا يقوم لها عذر !



فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد ، فإن تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد ، من قتل للحسين - رضى الله عنه - على ذلك النحو الشنيع ، إلى حصار البيت ورميه ... إلخ تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا كثيراً فيما قالوه !

وأيا ما كان الأمر فإن أحدا لا يجرؤ على الزعم بأن يزيد كان أصالح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة والتابعون . إنما كانت مسألة وراثته الملك في البيت الأموي . وكان هذا الاتجاه طعنة نافذة في قلب الإسلام ، ونظام الإسلام ، واتجاه الإسلام .

وفي سبيل تبرئة الإسلام : روحه ومبادئه ، من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداء في الإسلام نقرر هذه الحقائق لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته .

\*\*\*

ولكى ندرك عمق هذه الحقيقة ، يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر . وعلى أيدي عثمان ومروان . وعلى أيدي الإمام . ثم على أيدي الملوك من أمية . ومن بعدهم من بني العباس . بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام .

حينما ندب المسلمون أبا بكر ليكون خليفة رسول الله ، لم تزد وظيفته في نظره على أن يكون قائماً بتنفيذ دين الله وشريعته بين المسلمين ! فلم يخطر له أن هذه الوظيفة تبيح له شيئاً لم يكن مباحاً له وهو فرد من الرعية ، أو تمنحه حقاً جديداً لم يكن له ، أو تسقط عنه تكليفاً واحداً مما كان يكلفه ، سواء لنفسه أو لعشيرته أو لإلهه !

وقف عقب انتهاء البيعة له بالسقيفة فقال : « أما بعد - أيها الناس - فإنني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حق إن شاء الله ، والقوى

فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ؛ ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

وكان منزل أبي بكر بالسنح على مقربة من المدينة منزلاً صغيراً متواضعاً . فلما ولي الخلافة لم يغيره ولم يغير فيه . وكان يمشي على قدميه من منزله بالسنح إلى المدينة غدواً ورواحاً ؛ وربما ركب فرساً له لا من أفراس بيت المال ؛ حتى إذا زادت أعباء عمله انتقل إلى المدينة .

وكان يعيش من رزقه في التجارة ، فلما أصبح أراد أن يغدو على تجارته . فأمسكه المسلمون ، وقالوا : إن هذا الأمر لا يصلح مع التجارة . فسأل - كأنما لا يعلم طريقاً آخر للقوت - ومم أعيش ؟ ففقدوا في الأمر ؛ ثم جعلوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله ، جزاء قعوده عن التجارة ، واحتباسه للوظيفة .

ومع هذا فقد أوصى عند ما حضرته الوفاة أن يحصى ما أخذه من بيت المال ، فيرد من ماله وأرضه ، تورعاً وتعقفاً عن مال المسلمين . وكان يعد نفسه مسؤولاً عن حاجة كل فرد في الرعية ، مدفوعاً إلى هذا باليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على ضمير الحاكم والمحكوم ، والحساسية المرفهة التي يثيرها في ضمير الجميع . وقد وصل في هذا إلى حد أنه قد كان يحلب للضعفاء ممن حوله بالسنح أغنامهم ؛ فلما ولي الخلافة سمع جارية تقول : اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ! فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم . فكان يحلبها ، وربما سأل صاحبها : يا جارية ! أتخبين أن أرغى لك أم أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرح . فأى ذلك قالته فعل .

وكان عمر بن الخطاب - في خلافة أبي بكر - يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ؛ فكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجاتها ؛ فترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو

الذى يكفيها مؤونتها ، لا تشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها . عندئذ صاح عمر حين رآه :  
« أنت هو لعمرى ! » .

هذه لمحة من تصور أبي بكر للحكم . فلما أن خلفه عمر لم يختلف هذا التصور ، ولم يفهم عمر أن منصبه الجديد يرتب له حقوقاً جديدة من أى نوع - غير أن يزيد في تبعاته في القيام بتنفيذ شرع الله .

خطب عقب البيعة له فقال : « أيها الناس : ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أننى كرهت أن أرى أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم » .

وخطب خطبته الثانية فقال فيها : « ولكم على أيها الناس خصال أذكركم بها لكم نخذونى بها : لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ؛ ولكم على إذا وقع فى يدي ألا يخرج منها إلا فى حقه ؛ ولكم على ألا أقيم فى الممالك ولا أجركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال » .

وكان يقول : « إني أنزلت مال الله منى بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنييت عفت عنه ؛ وإن افتقرت أكلت بالمعروف » .

سئل يوماً عما يحل له من مال الله فقال : « أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان : حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وما أحجج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قرىش ، ليس بأغنام ولا بأققرهم ، ثم أنا رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » .

وكذلك عاش ، ولكنه كثيراً ما كان يتخرج حتى مما أحل لنفسه .. اشتكى يوماً فوصف له العسل وفى بيت المال عكة منه ، فلما كان على المنبر قال : « إن أذنتم لى فيها ، وإلا فإنها على حرام » ، فأذنوا له .

ورأى المسلمون ما هو عليه من الشدة ، فذهب بعضهم إلى ابنته حفصة أم المؤمنين

فقالوا لها : « أبى عمر إلا شدة على نفسه وحصرا ، وقد بسط الله فى الرزق ، فليسط فى هذا النىء فيما شاء منه ، وهو فى حل من جماعة المسلمين ». فلما كلمته حفصة فى ذلك كان جوابه : « يا حفصة بنت عمر . نصحت قومك وغششت أباك ، إنما حق أهلى فى نفسى ومالى ، فأما فى دينى وأمانتى فلا ! » .

وكان يشعر شعوراً عميقاً بوجوب المساواة بينه وبين أفراد رعيته ؛ فلما جاع الناس فى عام الرمادة ، آلى على نفسه : لا يذوق سمناً ولا لحماً حتى يحيا الناس . وظل كذلك حتى اسود جلده وبسر من أكل الزيت ؛ ثم جاءت السوق عكة من سمن ووطب من لبن فاشترى ما غلام له بأربعين درهما ، وذهب إليه ينبئه أن الله أحله من يمينه ، وأن قد قدمت السوق عكة من سمن ووطب من لبن وقد اشتراها له ، فلما علم الثمن قال له : « أغليت فتصدق بهما ، فإنى أكره أن آكل إسرافاً » وأطرق هنيهة ثم قال : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسنهم ؟ » .

لقد كان يرى أن يحرم نفسه حرمان رعيته ، ليحس بما يمسنها كما قال ؛ ولأنه فى أعماق نفسه ما كان يرى أن قيامه بالحكم يجعل له حقوقاً وامتيازات ليست لسائر الناس ؛ وأنه إن لا يعدل فى هذا فما هو بمستحق طاعة الرعية ؛ وقصة البرود اليمانية ، وإقراره بسقوط طاعته حتى يثبت عدله قد سبق أن ذكرناها ؛ وهى تقرر مبدأ من مبادئ الحكم فى الإسلام : أن لا طاعة لإمام غير عادل ؛ ولو كان يقر أن الحاكمية لله وحده ويحكم بشريعة الله ، ولكنه لا يعدل فى الأحكام .

ولقد كان هذا الشعور الإسلامى عميقاً فى نفسه ، مصاحباً له فى كل ملابسة . فقد ساوم رجلاً على فرس ، ثم ركبه ليجربه فعطب ، فأراد أن يرده إلى صاحبه فأبى ، فتحاكما إلى شريح القاضى ، فسمع حجة كل منهما ، ثم قال : « يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت ،

أورد كما أخذت . فقال عمر : « وهل القضاء إلا هكذا ؟ » . ثم أقام شريعاً على قضاء الكوفة جزاء ما قضى بالحق والعدل .

\*\*\*

فإذا فهم عمر الحكم على أساس هذا التصور ، فلا مجال لأن يكون لقرابة الحاكم امتيازات ما على سائر أفراد الرعية . فإذا تناول ابنه عبد الرحمن الخمر فلا بد من الحد ، وقصته في ذلك معروفة ؛ وإذا عدا ابن عمرو بن العاص على المصري فلا بد من القصاص . فأما في المال فعماله مسؤولون عن كل ما زاد في أموالهم بعد الولاية ، خشية أن يكون نموها على حساب مال المسلمين ، أو بسبب من جاه الولاية . و « من أين لك هذا » كان قانونه الذي عامل به عماله واحداً واحداً كلما وجد مبرراً لأن يعاملهم به ، فقد قاسم عمرو ابن العاص واليه في مصر ، وسعد ابن أبي وقاص واليه في الكوفة ، كما ضم مال أبي هريرة واليه في البحرين . ولقد كان قوام تصور الحكم في نفس عمر باختصار هو : الطاعة والنصح في حدود الدين من الرعية ، والعدل والحسن كذلك من الراعي . ولقد قبل من رجل من رعيته أن يقول له : « لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » فأقر بذلك مبدأ حق الرعية في تقويم الراعي . كما خطب الناس يوماً فقال : « إني لم أستعمل عليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ، وليشتمو أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ؛ ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم . فمن ظلمه عامل بمظلمة ، فلا إذن له عليّ ، ليرفعها إليّ حتى أقصه منه » . فأقر بذلك حدود الحاكم على الناس لا يتعداها .

ولشعوره العميق بتبعات الحاكم لم يشأ أن يحملها اثنان من أسرة الخطاب ، فنفذ أن يكون ابنه عبد الله مرشحاً لها . وإن جعله من أهل الشورى . وقال قولته المشهورة التي تنطق بحقيقة تصوره للخلافة : « لا أرب لنا في أموركم ، وما حدثها فأرغب فيها لأحد

من يتى ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد .

\*\*\*

هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئاً ما دون شك على عهد عثمان - وإن بقي في سياج الإسلام - لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير . ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام . كما أن طبيعة عثمان الرخية ، وحذبه الشديد على أهله ، قد ساهم كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله ، وكانت لها معقبات كثيرة ، وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً .

منح عثمان ، من بيت المال ، زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مئتي ألف درهم . فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين ، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع ، فسأله أن يعفيه من عمله ؛ ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين ، قال مستغرباً : « أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحمي ؟ » فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف : « لا يا أمير المؤمنين . ولكن أبكي لأنني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله . والله لو أعطيته مئة درهم لكان كثيراً ! » فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له : « ألق بالمفاتيح يا ابن أرقم فإننا سنجد غيرك ! »

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات ؛ فقد منح الزبير ذات يوم ستمئة ألف ، ومنح طلحة مئتي ألف ، ونقل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية . ولقد عاتبه في ذلك ناس من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب ، فأجاب : « إن لي قرابة ورحماً » فأنكروا عليه وسألوه : « فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم ؟ » فقال : « إن أبا بكر

وعمر كانا محتسبان في منع قرابتهما ، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي « فقاموا عنه غاضبين يقولون : « فهديهما والله أحب إلينا من هديك » ..

وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابه عثمان . وفيهم معاوية الذي وسع عليه في الملك فضم إليه فلسطين وحمص ؛ وجمع له قيادة الأجناد الأربعة ومهد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليّ وقد جمع المال والأجناد . وفيهم الحكم ابن العاص طريد رسول الله الذي آواه عثمان وجعل ابنه مروان ابن الحكم وزيره المتصرف . وفيهم عبد الله ابن سعد ابن أبي السرح أخوه من الرضاعة ... الخ .

ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب ، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام ، وإنقاذ الخليفة من المحنة ؛ والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان . وإنه لمن الصعب أن تنهم روح الإسلام في نفس عثمان ؛ ولكن من الصعب كذلك أن نغفيه من الخطأ ، الذي نلتبس أسبابه في ولاية مروان الوزارة ؛ في كبرية عثمان .

ولقد اجتمع الناس ، فكلفوا عليّ ابن أبي طالب أن يدخل إلى عثمان فيكلمه ، فدخل إليه فقال : « الناس ورأى وقد كلوني فيك . والله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما نعلم ؛ ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ؛ ولا خلونا بشيء فنبلغك ؛ وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره . وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ؛ ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ؛ وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ؛ ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينال ؛ ولا سبقاك إلى شيء . فالله الله في نفسك ؛ فإنك والله ما تبصر من عمى ؛ ولا تعلم من جهل ؛ وإن الطريق لواضح بيني ؛ وإن أعلام الدين لقائمة . تعلم يا عثمان

أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهُدَى ؛ فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ؛ فوالله إن كلاً كَبِينٌ ؛ وإن السنن لقائمة لها أعلام ؛ وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به ؛ فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى في جهنم <sup>(١)</sup> » .

فقال عثمان : « قد والله علمت ليقولن الذي قلت . أما والله لو كنت مكانى ماغنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ؛ وماجئت منكراً أن وصلت رجماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا على . هل تعلم أن المغيرة ابن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم ، قال : أتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ قال على : سأخبرك . إن عمر كان كل من ولى فإنما يظأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لاتفعل . ضعفت ورقفت على أقربائك . قال عثمان : وأقربائك أيضاً ! قال على : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته ، فقال على : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر ، من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال على : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت لاتعلمها ، فيقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية ! »

وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان ، واختلط فيها الحق بالباطل ، والخير بالشر . ولكن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام ، ويستشعر الأمور بروح الإسلام ، أن يقرر أن تلك الثورة فى عمومها كانت فورة من روح الإسلام ؛ وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودى ابن سبأ عليه لعنة الله !

(١) ذكره الطبرى فيما يرويه فى سنة أربع وثلاثين هجرية .



واعذارنا لعثمان رضى الله عنه : أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة ، فكانت العصبية الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين ، فكان موقفه كما وصفه صاحبه على بن أبي طالب : « إني إن قعدت في بيتي قال : تركتني وقرابتي وحقى ؛ وإن تكلمت فحجاء ما يريد ، يلعب به مروان ، فصار سيقه له يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد كان من جراء مهاكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبية الأموية على يدى الخليفة الثالث في كبرته ، أن تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول . وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأموية ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام ؛ وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان ( كما سيجىء ) وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية في وقت مبكر شديد التبكير .

ومع كل ما يحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين ، تكشف عن نقلة بعيدة جدا في تصور الناس للحياة والحكم ، وحقوق الأمراء وحقوق الرعية ، إلا أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى .

\*\*\*

مضى عثمان إلى رحمة ربه ، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما يمكن لها في الأرض ، وبخاصة في الشام ، وبفضل ما يمكن للبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام ، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع ، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام . وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية - إن حقاً وإن باطلاً - أن الخليفة يؤثر أهله ، ويمنحهم مئات الألوف ؛ ويعزل أصحاب رسول الله ليولى أعداء رسول الله ؛ ويبعد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال ، وأنكر الترف الذي يحب فيه الأثرياء ، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الإنفاق والبر والتعفف ..

فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار ، إن حقاً وإن باطلاً ، أن تثور نفوس ، وأن تنحل نفوس. تثور نفوس الدين أشربت نفوسهم روح الدين إنكاراً وتأثماً ، وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً ، ولم تخالط بشاشته قلوبهم ، والذين تجرفهم مطامع الدنيا ، ويرون الانحدار مع التيار . وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان .

فلما أن جاء على - كرم الله وجهه - لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هواده . وقد علم المستنفعون على عهد عثمان ، وبخاصة من أمية ، أن علياً لن يسكت عليهم ، فأنحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية .

جاء على ليرد التصور الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس . جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها ، ويختم هو على جراب الشعير ويقول : « لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم » . وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام ، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثراً عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء . جاء ليعيش كما روى عنه النضر ابن منصور عن عقبة ابن علقمة قال : دخلت على عليّ عليه السلام ، فإذا بين يديه لبن حامض ، أذنتي حموضته ؛ وكسر يابسة . فقلت : « يا أمير المؤمنين ! أتناكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل أيس من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما آخذ به خفت ألا ألقى به » . أو كما روى عنه هارون ابن عنترة عن أبيه قال : دخلت على عليّ بالخورنق ، وهو فصل شتاء ، وعليه خلق قطيفة ، وهو يردد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً ، وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً ، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة » .

وما يصنع عليّ هذا بنفسه وأهله ، وهو يجهل أن الدين يبيح له فوق ما يصنع ، وأنه لا يحتم التزهد والحرمان والشطف ، وأن حظه من بيت المال في ذلك الحين - كفرد

من المسلمين - يبلغ أضعاف ما يأخذ ، وأن راتبه كأمر المؤمنين يؤدي خدمة عامة ، أكبر من هذا لو شاء أن يأخذ مثلما خصصه عمر لبعض ولاته على الأقاليم ، إذ قدر لعمار ابن ياسر حين ولاه الكوفة ستائة درهم في الشهر له ولمساعديه ، يزداد عليها عطاؤه الذي يوزع عليه كما توزع الأعطية على نظرائه ، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق ؛ كما قدر لعبد الله ابن مسعود مئة درهم وربع شاة لتعليمه الناس بالكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، ولعثمان ابن حنيفة مئة وخمسين درهما وربع شاة في اليوم مع عطائه السنوي وهو خمسة آلاف درهم . . .

ما يصنع عليّ بنفسه ما صنع وهو يحبل هذا كله . إنما كان يعلم أن الحاكم مظنة وقدوة . مظنة التبجح بالمال العام إذ كان تحت سلطانه ؛ وقدوة الولاة والرعية في التخرج والتعفف . فأخذ نفسه بعزائم أبي بكر وعمر في هذا الأمر . فالأفق الأعلى كان هو الأجرى بخلفاء رسول الله على دين الله .

وسار عليّ - كرم الله وجهه - في طريقه يرد للحكم صورته كما صاغها النبي - صلى الله عليه وسلم والخليفتان بعده . . . « وجد درعه عند رجل نصراني ، فأقبل به إلى شريح قاضيه ، يخاضمه مخاضمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعي ولم أبع ، ولم أهب . فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصراني : ما الدرع إلا درعي ، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب ! فالتفت شريح إلى عليّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك عليّ وقال : أصاب شريح . مالي بينة افقضى بالدرع للنصراني ، خذها ومشى ، و « أمير المؤمنين » ينظر إليه . . . إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعتك

يأمر المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ؛ فخرجت من بعيرك الأورق .  
فقال عليّ : أما إذ أسلمت فهي لك <sup>(١)</sup> .

ولقد كان منهاجه الذي شرعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له :  
أيها الناس . إنما أنا رجل منكم ، لي مالكم ، وعليّ ما عليكم ، وإني حاملكم  
على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به . . ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان ، وكل مال  
أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال . فإن الحق لا يبطله شيء . ولو وجدته قد  
تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق في البلدان لرددته . فإن في العدل سعة ومن ضاق  
عليه الحق فالجور عليه أضيق .

« أيها الناس . . ألا لا يقولن رجال منكم غدا - قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار  
وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة - إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون  
فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : « حرمتنا ابن أبي طالب حقوقنا » . ألا وأيما رجل  
من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن  
الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق  
ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ،  
والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله  
أحسن الجزاء » .

ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن علي ، وألا يقنع بشرعة المساواة من  
اعتادوا التفضيل ، ومن مردوا على الاستئثار . فأنحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر الآخر :  
معسكر أمية ، حيث يجدون فيه تحقيقاً لأطماعهم ، على حساب العدل والحق  
الذين يصر عليهما علي - رضي الله عنه - هذا الإصرار !

---

(١) عبقرية الإمام ، للأستاذ العقاد .

والذين يرون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونهما في علي ؛ ويعززون إليهما غلبة معاوية في النهاية ، إنما يخطئون تقدير الظروف ، كما يخطئون فهم عليّ وواجبه . لقد كان واجب عليّ الأول والأخير ، أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها ؛ وأن يرد إلى الدين روحه ؛ وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كبرة عثمان . ولو جرى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية ؛ ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين . إن عليّاً إما أن يكون عليّاً أو فلتذهب الخلافة عنه ، بل فلتذهب حياته معها . وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغيب عنه - كرم الله وجهه - وهو يقول - فيما روى عنه إن صحت الرواية - : « والله ما معاوية بأدهى مني ولسكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » .

\*\*\*

ومضى عليّ إلى رحمة ربه ، وجاء بنو أمية .  
فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزاً أمام أمية .. لقد انهار هذا الحاجز .. وانفتح الطريق للانحراف .  
لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد ، ولكن روحه انحسرت بلا جدال . ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين ، وفيض عارم في طاقته الروحية ، لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل . ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب ، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار .

غير أنه منذ أمية اتساحت حدود بيت مال المسلمين ، فصار نهباً مباحاً للملوك والهاشية والمتملقين ؛ وتخلخت قواعد العدل الإسلامي الصارم ، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ، ولأذياتها منافع ، ولهاشيتها رسوم ؛ وانقلبت الخلافة ملكاً ، وملسكا عضواً ،

كما قال عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وثبة من وثبات الاستشفاف  
الروحي العميق .

وعندنا نسمع عن الهبات للمتملقين والملمهين والمطربين ، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف  
دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد - من ملوك العباسيين - إسماعيل بن جامع المغني في صوت  
واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلا نفيس الأثاث والرياش ... وتنطلق الموجة في طريقها لاتقف  
إلا فترة بين الحين والحين .

ولا بد أن نذكر هنا عهد عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - فقد كان بقية من عهد  
الخلافة ، وإشعاعه مضيئة تنير الطريق . لقد بدأ عهده برد الحكم المنصوب إلى صاحب الحق  
الأول فيه : إلى الأمة المسلمة ، التي يجب أن تختار إمامها حرة طائعة مختارة ، لا بقوة الجند،  
ولا بسلطان الوراثة .. صعد المنبر فقال :

«أيها الناس . إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا  
مشورة من المسلمين . وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختروا لأنفسكم » فصاح  
الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل الأمر باليمن والبركة .  
وبذلك رد الأمر إلى نصابه في ولاية الأمر ، فلا ولاية بغير شورى ورضى  
وقبول .

عندئذ خطب الناس فقال : « أيها الناس . إنه قد كان قبلي ولاية تجترون مودتهم بأن  
تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم . ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . من أطاع الله وجبت  
طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة  
لي عليكم .. » .

وحينما باشر سلطته بدأ برد المظالم ، مبتدئا بنفسه . فقال : « إنه لينبغي ألا أبدأ بأول  
من نفسى . فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم كان

في يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه ، مما جاء من أرض المغرب فردّه . وخرج  
مما كان في يده من القطائع ، وكان في يده قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورد  
باليمن ، وفدك ، فخرج من ذلك كله ، وردّه إلى المسلمين . إلا أنه ترك عيناً بالسويداء ،  
وكان استنبطها بعطائه . فكانت تأتيه غلتها كل سنة . مئة وخمسون ديناراً أو أقل  
أو أكثر .

« ولما أزمع أن يرد ماله أمر فنودي في الناس : الصلاة جامعة ؛ وصعد المنبر  
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان  
ينبغي لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها ؛ وإن ذلك قد صار إلى ،  
ليس على فيه دون الله محاسب ، ألا وإنني قد رددتها ، وبدأت بنفسى وأهل  
بيتى . اقرأ يامزاحم - وقد جىء قبل ذلك بسقط فيه تلك الكتب - فجعل  
مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر ، ويبيده مقص فيقصه به ، حتى لم يبق فيه  
شئ إلا شقه .

« ثم ثنى بزوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لها به  
أبوها لم ير مثله ، فقال لها : اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى  
فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وهو فى بيت واحد ، قالت : لا ، بل أختارك يا أمير  
المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى . فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين . فلما  
مات عمرو استخلف يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك ، قالت :  
فإنى لأشأؤه ، طببت عنه نفساً فى حياة عمرو أرجع فيه بعد موته ! لا والله أبداً . فلما رأى ذلك  
قسمه بين أهله وولده .

« ولم يكتف عمر برد ما كان فى يده من المظالم ، بل ذكروا أنه كان لا يأخذ  
من بيت المال شيئاً ، ولا يجرى على نفسه من النىء درهما ؛ وكان عمر بن الخطاب

يجرى على نفسه في ذلك درهمين في كل يوم ، فقيل لعمر ابن عبد العزيز : لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغني .

« كذلك حمل بنى مروان على النزول عما كان في أيديهم من الأموال بغير استحقاق ، وردّها إلى ذويها . روى أنه جاءه رجل ذمى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : العباس ابن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي - والعباس جالس - فقال له : يا عباس ماتقول ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، كتب لي بها سجلا ، فقال : ماتقول يا ذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك . يا عباس اردد عليه ضيعته . فردّها عليه .

« وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، وكان نشأ في البادية فكانه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر يخاصون روحا في حوانيت بحمص - وكانت لهم ، أقطعه إياها أبوه الوليد - فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : إنها لي بسجل الوليد ، قال : ما يغني عنك سجل الوليد ، الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البيئة عليها ، خل لهم حوانيتهم . فقام روح والحمصي منصرفين فتواعد روح الحمصي ، فرجع إلى عمر فقال : هو والله يتوعدني يا أمير المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد - وهو على حرسه - اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذاك ، وإلا فأتني برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، فذكر له الذي أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا فقال له : قم فخل له حوانيته ، قال : نعم نعم ! فخل له حوانيته .

« وتتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظمة إلا ردّها سواء كانت في يده



أوفى يد غيره ، حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما صار إليهم ظلماً . وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتب باليسير ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس . وقد ذكروا أنه أنفذ بيت مال العراق في رد المظالم حتى حمل إليها من الشام .

« وكان سليمان ابن عبد الملك قد أمر لعنبة ابن سعيد ابن العاص - من البيت الأموي - بعشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها ، فتوفي سليمان قبل أن يقبضها ، كان عنبة صديقاً لعمر ابن عبد العزيز ، فغدا يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بني أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه . فدخل عنبة عليه فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها ، فتوفي على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندي ، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان ؛ فقال له عمر : كم ذلك ؟ قال عشرون ألف دينار . قال عمر : عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله مالي إلى ذلك من سبيل . قال عنبة : فرميت بالكتاب الذي فيه الصك ، فقال لي عمر : لا عليك أن يكون معك ، فعله أن يأتيك من هو أجراً على هذا المال مني فيأمر لك به ! فأخذته وخرجت إلى بني أمية فأعلمتهم ما كان من ذلك ، فقالوا ليس بعد هذا شيء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ؛ فرجعت إليه فقلت : يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ما كان من قبلك يجري عليهم . فقال عمر : والله ما هذا المال لي ومالي إلى ذلك من سبيل . قلت : يا أمير المؤمنين ، فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان . قال : ماشاءوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم . قلت : وأنا أيضاً ؟ قال : وأنت أيضاً قد أذنت لك ؛ ولكني أرى

لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك في ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقت فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف ، فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتي ألف دينار ، وحبست الصك ؛ فلما توفي عمر وولى يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ لي ما كان فيه .

« وجمع عمر بنى مروان فقال لهم : إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأمواالا ، وإنى لأحسب شطرا أموال هذه الأمة أو ثلثها في أيديكم ، فأدّوا ما في أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئوني إلى ما أكره فأحلكم على ما تكرهون . فلم يجبه أحد منهم . فقال : أجيبيوني . فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آباءنا فننفقها ببناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا . فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت حدودكم عاجلاً . ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقاني الله لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله » (١) .

ولكنه لم يعش ليرد لكل ذى حق حقه كما كان يريد ؛ فجاء من بعده يسرون على نهج أمية ، ولا يسرون على نهج عمر ! فلما أن جاء بنو العباس جاءوا ملوكا وقد فسدت الأرض ، وبعد الناس عن تقاليد الدين ، بما باعدت أمية بينهم وبينه ذلك الأمد الطويل . وما كان ملوك بنى العباس خيراً من ملوك بنى أمية ، فإنه كذلك الملك العضوض !

\*\*\*

وإذ كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية ، ولكن الروح الإسلامى فى الحكم ، فإننا نكتفى فى إبراز مظاهر التحول والانحسار فى هذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك . وبموازنتها بالخطب الثلاث التى سبقت فى عهد الخلفاء يتبين الفارق العميق .

---

(١) من كتاب « عمر بن عبد العزيز » للأستاذ أحمد زكى صفوت .

خطب معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح فقال :

« يا أهل الكوفة ! أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون ، وتزكون ، وتحجون ؟ ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم ؛ وقد آتاني الله ذلك ، وأنتم كارهون . ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شرطته ، فتحت قدمي هاتين » .

وخطب كذلك في أهل المدينة فقال :

« أما بعد ، فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي . ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ؛ وأردتها على سنيات عثمان ، فأبت عليّ ؛ فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة ؛ مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تهملوني خيركم ، فإنني خير لكم ولاية . . . »

وخطب المنصور العباسي - وقد فعلت الموجة الأموية فعلها في تصور الحكم حتى انتهت به أيام العباسيين إلى نظرية الحق الإلهي المقدس التي لا يعرفها الإسلام . فقال .  
« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوقيفه وتأيدته ؛ وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ؛ إن شاء أن يفتحني ففتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يقفلني عليه أقفلني !  
وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائياً من دائرة الإسلام ، وتعاليم الإسلام .

\*\*\*

فأما سياسة المال فكانت تبعاً لسياسة الحكم ، وفرعاً عن تصور الحكم لطبيعة الحكم وطريقته ، ولحق الراعي والرعية . فأما في حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصاحبيه وفي خلافة علي بن أبي طالب ، فكانت النظرة السائدة هي النظرة الإسلامية :

وهى أن المال العام مال الجماعة ؛ ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئاً إلا بحقه ؛ ولا أن يعطى أحداً منه إلا بقدر ما يستحق، شأنه شأن الآخرين . وأما حين انحراف هذا التصور قليلاً في عهد عثمان ، فقد بقيت للناس حقوقهم ؛ وفهم الخليفة أنه في حل - وقد اتسع المال عن المقررات للناس - أن يطلق فيه يده يبرأهله ومن يرى من غيرهم حسب تقديره . وأما حين صار الحكم إلى الملك العضوض ، فقد انهارت الحدود والقيود، وأصبح الحاكم مطلق اليد في المنع والمنح ، بالحق في أحيان قليلة وبالباطل في سائر الأحيان . واتسع مال المسلمين لترفع الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومماقيهم إلى غير حد ، وخرج الحكام بذلك نهائياً من كل حدود الإسلام في المال .

هذه صورة مجملة نعرض لها نماذج تفصلها من وقائع التاريخ .

كانت موارد بيت المال منذ أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - هي :

الزكاة المفروضة على المسلمين في أموالهم بحسب فئاتها المعروفة في الذهب والفضة والزرع والثمار، وفي الماشية، وفي عروض التجارة، وفي الركاز . . والمتوسط العام فيها هو نصف العشر، وتنفق في مصارفها الثمانية المعروفة .

والجزية على الرؤوس للمصالحين عليها من الذميين . وهى مقابل ضريبة الدم وضريبة الزكاة التى يدفعها المسلمون .

والفداء، وهو ما يصل إلى المسلمين من المشركين عفواً بغير قتال، وكله لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل بنص القرآن .

والغنيمة ، وهى ما يصل إلى المسلمين من المشركين بالحرب . وأربعة أخماسها للمحاربين، وخمسها كالفىء في مصرفه .

أو الخراج - بدل الغنيمة - وهو مال مقرر على الأراضى التى كانت في يد المشركين

واستولى عليها المسلمون حرباً ، أوصولح عليها المشركون وبقيت في أيديهم ، كالنظام الذي اتبعه عمر ابن الخطاب في أرض فارس .

وفي أيام الرسول لم تكن موارد بيت المال وفيرة ، لأن المهاجرين قد تركوا أديارهم وأموالهم ، فوسعهم الأنصار وشاركوهم وآخوهم . وكان عدد المسلمين بعد محدوداً ؛ وقبل الغزو لم يكن لبيت المال إلا مورد التطوع للإِنفاق في سبيل الله .

فلما بدأت الغزوات وفرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة وجد المورد الأساسي - وهو الزكاة - ومورد آخر هو مورد الغنيمة الذي يحصل المحاربون على أربعة أخماسه . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي الرجل سهماً والفارس سهمين - وقيل ثلاثة - مقررأ مبدأ « الرجل وبلاؤه » كما كان يعطي الأعزب سهماً والمتزوج سهمين مقررأ بذلك مبدأ : « الرجل وحاجته » . وأما الخمس فكان يوزع حسب مصارفه التي ذكرنا .

ثم حدث أن وقع أول فيء في غزوة بني النضير ، فجعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - للمهاجرين خاصة ، لم يعط إلا رجلين من الأنصار فقيرين ؛ وجاء القرآن بعد ذلك فقرر المبدأ الإسلامي العام : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ثم أخذت موارد المسلمين تتسع باتساع رقعة الإسلام وتوالي الفتوح ، فأخذ الرخاء يشمل شيئاً فشيئاً جموع المسلمين على السواء . إذ كانوا جميعاً شركاء في موارد بيت المال ، بالأنصبة التي حددها الإسلام .

وحين لحق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى ، وارتد من ارتد ومنعوا الزكاة ، وقف أبو بكر وقفته المشهورة وقال قوله الخالدة « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » مخالفاً في ذلك رأى عمر ابن الخطاب الذي كان يرى - قبل أن يفىء إلى رأى أبي بكر ويشرح الله له صدره ويعلم أنه الحق - أن تقوم يقولون : لا إله إلا الله . . فلا يجوز قتالهم . وقد بلغ من معارضته أن ( ١٥ - العدالة )

يقول في شيء من الحدة : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : فمن قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » . فأجابه أبو بكر في تصميم : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة هي حق المال » . وعندئذ يقول عمر : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

وبهذا الموقف الخالد تقرر نهائياً في الواقع التاريخي أصل من أصول سياسة المال في الإسلام . هو القتال والقتل لتقرير حق الجماعة في المال في الحدود التي شرعها الله . وبالمقادير التي حددها الله .

وسار أبو بكر في توزيع أموال الزكاة على مصارفها المعهودة سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكذلك في أخماس الغنيمة وسائر الموارد . فكان يأخذ لنفسه ذلك القدر الضئيل الذي فرضه له المسلمون - وقيل إنه درهمان في اليوم - ثم يعطي أصحاب الفرائض فرائضهم ، وما بقي في بيت المال ينفق في تجهيز الجيوش للجهاد .

وقد حدثت في عهد أبي بكر سابقة اختلف عليها هو وعمر . فقد رأى أبو بكر أن يسوى في القسمة بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام ، وبين الأحرار والموالي ، وبين الذكور والإناث . ورأى عمر مع جماعة من الصحابة أن يقدم أهل السبق في الإسلام على قدر منازلهم ؛ فقال أبو بكر : « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل ، فما أعرفني بذلك . وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » . وظلت هذه المساواة مرعية ، واليسر يفيض على المسلمين سواء ، كلما اتسعت الموارد ، حتى كان عهد عمر بن الخطاب فظل مستمسكاً برأيه الذي رآه : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » .

وقد حدث أن جاءه يوماً عامله بالبحرين أبو هريرة بمال كثير . وروايته : « قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ، فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسياً ، فقلت : يا أمير المؤمنين : اقبض هذا المال ، قال : وكم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف درهم . قال : وتدرى كم خمسمائة ألف ؟ قلت : نعم : مئة ألف ومئة ألف - خمس مرات - قال : أنت ناعس ! اذهب الليلة فبت حتى تصبح ! فلما أصبحت أتيت ، فقلت : اقبض منى هذا المال . قال : وكم هو ، قلت : خمسمائة ألف درهم . قال : أمن طيب هو ؟ قلت : لا أعلم إلا ذاك ، فقال عمر رضى الله عنه : أيها الناس إنه قد جاءنا مال كثير . فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن نعدّ لكم عددنا ، وإن شئتم أن نزن لكم وزنا ، فقال رجل من القوم : يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها ، فاشتبهى عمر ذلك . ففرض للمهاجرين خمسة آلاف خمسة آلاف ، وللأنصار ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، ولأزواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً . . . » وقد أثبتنا هذه الرواية هنا لما تبين من رأى عمر في تفضيل بعض الناس على بعض ، ولما تصور من درجة الثراء حتى يحسب فيها نصف مليون درهم حلمًا من الأحلام يتحدث به النيام ! وقد تغير ذلك كله فيما بعد الفتوح العظام .

قال أبو يوسف في كتاب الخراج : « وحدثني شيخ من أهل المدينة عن إسماعيل بن محمد السائب عن زيد عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، ما أحد إلا وله فى هذا المال حق ، أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم . ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه - أى فى طلبه - . . . » .

« ثم إنه فرض لكل رجل شهد بدرًا خمسة آلاف درهم في كل سنة ؛ وفرض لكل من كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدًا أربعة آلاف درهم في كل سنة ؛ وفرض لأبناء البدرين ألفين ألفين إلا حسناً وحسيناً فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقربتهما من رسول الله ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم ؛ وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجل من مسلمة الفتح ألفين ، ولغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح . وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم . ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً . ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة ، وأقام بها ، خمسة وعشرين ديناراً ، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمئة إلى ثلاثمئة . ولم ينقص أحداً عن ثلاثمئة . وقال لأن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألف لسفره ، وألف لسلاحه ، وألف يخلفها لأهله ، وألف لفرسه وبغله » (١) .

« غير أن عمر خرج عن القاعدة التي وضعها لتنظيم العطاء في أمر رجال ونساء زاد في عطائهم على عطاء أمثالهم ممن في طبقتهم . فرض لعمر ابن أبي سلمة أربعة آلاف درهم . وعمر هذا هو ابن أم سلمة أم المؤمنين . وقد اعترض محمد ابن عبد الله ابن جحش ، وقال لأمر المؤمنين : « لم تفضل عمر علينا ، فقد هاجر آباؤنا وشهدوا » وأجابه ابن الخطاب بقوله : « أفضله لمكانه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فليأتني الذي يستعيب بأم مثل أم سلمة أعقبه » وفرض لأسامة ابن زيد أربعة آلاف درهم ، فقال عبد الله ابن عمر : « فرضت لي ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت مالم يشهد أسامة » وأجابه عمر : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب

(١) كتاب : الفاروق عمر جزء ٢ للدكتور هيك .



إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ! » وفرض لأسماء بنت عميس زوج أبي بكر ألف درهم ، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم ، ولأم عبد الله ابن مسعود ألف درهم ؛ فزادهن على أمثالهن لمكانتهن الخاصة إذ كن أزواجاً وأمهات لرجال لهم على غيرهم منزلة وفضل <sup>(١)</sup> .

ها رأيان إذن في تقسيم المال . رأى أبي بكر ورأى عمر . وقد كان لرأى عمر - رضى الله عنه - سنده : « لأجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » و ... « فالرجل وبلاؤه في الإسلام ... » ولهذا رأى أصل في الإسلام وهو التعادل بين الجهد والجزاء . وكان لرأى أبي بكر - رضى الله عنه - سنده كذلك : « إنما أسلموا لله وعليه أجركم ، يوفيههم ذلك يوم القيامة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . ولكننا لا نتردد في اختيار رأى أبي بكر إذ كان أقن أن يحقق المساواة بين المسلمين - وهى أصل كبير من أصول هذا الدين - وأخرى ألا ينتج النتائج الخطرة التى نشأت عن هذا التفاوت ، من تضخم ثروات فريق من الناس ، وتزايد هذا التضخم عاماً بعد عام بالاستثمار - والمعروف اقتصادياً أن زيادة الربح تتناسب إلى حد بعيد مع زيادة رأس المال - هذه النتائج التى رآها عمر فى آخر أيام حياته ، فآلى لئن جاء عليه العام ليسوين فى الأعطيات ، وقال قوله المشهورة : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » !

ولكن وأسفاه ! لقد فات الأوان ، وسبقت الأيام عمر ، ووقعت النتائج المؤلمة التى أودت بالتوازن فى المجتمع الإسلامى ، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة ، بما أضيف إليها من تصرف مروان وإقرار عثمان !

رجع عمر إذن عن رأيه فى التفرقة بين المسلمين فى العطاء ، حينما رأى نتائج الخطرة ،

---

(١) المصدر السابق .

إلى رأى أبي بكر . وكذلك جاء رأى عليّ مطابقاً لرأى الخليفة الأول - ونحن نميل إلى اعتبار خلافة عليّ - رضى الله عنه - امتداداً طبيعياً لخلافة الشيخين قبله ، وأن عهد عثمان الذى تحكم فيه مروان كان فجوة بينهما - لذلك نتابع الحديث عن عهد عليّ ، ثم نعود للحديث عن الحالة فى أيام عثمان .

اختار عليّ مبدأ المساواة فى العطاء ، وقد نص عليه فى خطبته الأولى حيث قال : «ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وأيّما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتناً ، ودخل ديننا ، واستقبل قباتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ؛ ولا فضل فيه لأحد على أحد ؛ وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

هذا هو المبدأ الإسلامى السليم الذى يتفق مع روح المساواة الإسلامية؛ ويكفل للمجتمع الإسلامى التوازن ، فلا يدع الثروات تتضخم إلا بقدر الجهد والعمل وحدهما ، لا بفضل إتاحة فرصة لانتاح للآخرين ، بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين . وقد كان عمر فى آخر أيامه على أن يفيء إلى هذا المبدأ ؛ ولكنه عوجل فاستشهد ولم ينفذ عزمته التى اعتزم ، بل عزمته : عزمته فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، إذ كانت هذه الفضول قد نشأت - فى الأغلب - من تفريقه فى العطاء؛ وعزمته فى أن يسوى بينهم فى العطاء فلا تعود هذه الفوارق إلى الظهور كما ظهرت؛ ولا يختل المجتمع الإسلامى كما بدأ يختل .

وجاء عثمان - رضى الله عنه - فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو إحداها .. ترك الفضول لأصحابها فلم يردها ؛ وترك الأعطيات كذلك على تفاوتها . ولكن هذا لم يكن كل ما كان . بل وسع أولاً على الناس فى العطاء فازداد الغنى غنى ، وربما تبجح الفقير قليلاً ، ثم جعل يمنح

المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة ؛ ثم أباح لقريش أن تضرب في الأرض تتاجر بأموالها المكدسة ، فتزيدها أضعافا مضاعفة ؛ ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور في السواد وغير السواد ؛ فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله .

كان أبو بكر وكان عمر من بعده يتشددان في إمساك الجماعة من رؤوس قريش بالمدينة ، لا يدعونهم يضربون في الأرض المفتوحة ، احتياطاً لأن تمتد أبصار هؤلاء الرؤوس إلى المال والسلطان ، حين تجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول الله ، أو بحكم بلائهم في الإسلام وسابقتهم في الجهاد . وما كان في هذا اقتيات على الحرية الشخصية كما يفهمها الإسلام ؛ فهذه الحرية محدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها . فلما جاء عثمان أباح لهم أن يضربوا في الأرض . ولم يبح لهم هذا وحده بل يسر لهم وحضهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم ، بعد ما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف .

لقد كان ذلك كله براً ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصة . ولكنه أنشأ خطراً عظيماً لم يكن خافياً على فطنة أبي بكر ، وفطنة عمر بعده . أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية ، كما أنشأ طبقة تأتيا أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب ؛ فكان الترف الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته ، كما حاربه الخليفان قبل عثمان ، وحرصا على ألا يتيحياه .

عندئذ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض المسلمين ، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة أبوذر . ذلك الصحابي الجليل الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلا أن تخطئه في اتجاهه ؛ وإلا أن تزعم لنفسها بصرا بالدين أكثر من بصره بدينه ! ثم عادت - في مناسبة

أخرى- فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه ، عندما تغيرت الظروف الأولى ! كأن دين الله سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات !

قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام ؛ وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر هذا الترف ، وتستزيد منه ، وتتمرغ فيه ؛ وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف ، فيزيد في ثراء المترفين وترف المترفين .

علم أن عثمان أعطى مروان ابن الحكم خمس خراج إفريقية، والحارث ابن الحكم مئتي ألف درهم، وزيد ابن ثابت مائة ألف... وما كان ضمير أبي ذر ليطبق شيئاً من هذا كله. فانطلق يخطب في الناس :

« لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إنى لأرى حقاً يطفأ ، وباطلاً يحيا ، وصادقاً مكذباً ، وأثرة بغير تقى . . يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . وبشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكافئ من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. يا كائز المال اعلم أن في المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ؛ والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ، وأنت الثالث ، إن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن . . إن الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

« اتخذتم ستور الحرير ، ونضائد الديباج ؛ وتألمتم الاضطجاع على الصوف الأذربي ، وكان رسول الله ينام على الحصير ؛ واختلف عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير » .

وروى مالك ابن عبد الله الزيادي عن أبي ذر : « أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان،

فأذن له وييده عصاه . فقال عثمان : يا كعب ، إن عبد الرحمن توفى وترك مالا ، فما ترى فيه ؟ فقال : إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه . فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً . وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني ، أذر خلفي منه ست أواق » أنشدك الله يا عثمان . أسمعته - ثلاث مرات - قال نعم<sup>(١)</sup> .

وما كانت مثل هذه الدعوة لطيفتها معاوية ، ولا لطيفتها مروان بن الحكم ؛ فما زال به عند عثمان يحرضانه عليه حتى كان مصيره إلى « الربرة » منفياً من الأرض في غير حرب لله ولرسوله ، وفي غير سعى في الأرض بالفساد . كما تقول شريعة الإسلام !

لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير مسلم لم تخدره الأطماع ، أمام تضخم فاحش في الثروات ، يفرق الجماعة الإسلامية طبقات ، ويحطم الأسس التي جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس . وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام أورده المسعودي ، قال :

« في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال : فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مئة ألف دينار ، وخلف إبلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مرتبط عبد الرحمن ابن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً . وخلف زيد ابن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر

---

(١) حديث رقم ٤٥٣ المسند جزء أول نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر .

بالقنوس غير ما خلف من الأموال والضياع ، وبنى الزير دارة بالبصرة ، وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية وكذلك بنى طلحة دارة بالكوفة ، وشيد دارة بالمدينة ، وبنها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد ابن أبي وقاص دارة بالعقيق ، ورفع سمكها وأوسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات . وبنى المقداد دارة بالمدينة ، وجعلها مخصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى ابن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً ، وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم<sup>(١)</sup> .

هذا هو الثراء الذي بدأ صغيراً بإيثار بعض المسلمين على بعض في العطاء في أيام عمر -  
ذلك الإيثار الذي كان معتزماً بإبطاله وتلافي آثاره لولا أن عاجلته الطعنة التي لم تصب  
قلب عمر وحده ، وإنما أصابت قلب الإسلام - ثم نما وازداد بإبقاء عثمان عليه ، فضلاً على العطايا  
والهبات والقطائع . ثم فشا فشو أذريعا بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال ، بما أباحه  
عثمان من شراء الأرضين في الأقاليم وتضخيم الملكيات في رقعة واسعة ؛ وبمقاومة الصيحة  
الخالصة العميقة التي انبعثت من قلب أبي ذر ؛ وكانت جديرة لو بلغت غايتها ، ولو وجدت  
من الإمام استماعاً لها ، أن تعدل الأوضاع ، وأن تحقق ما أراده عمر في أواخر أيامه من رد فضول  
الأغنياء على الفقراء ، بما يبيحه له سلطان الإمامة لدفع الضرر عن الأمة ، بل بما يحتمه عليه  
تحقيقاً لمصلحة الجماعة .

وبقدر ماتكدست الثروات وتضخمت في جانب ، كان الفقر والبؤس في الجانب الآخر حتما ، وكانت النعمة والسخط كذلك . ومالبث هذا كله أن تجمع وتضخم ، لينبعث فتنة هائلة ، يستغلها أعداء الإسلام ، فتودى في النهاية بعمان . وتودى معه بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها؛ وتسلمها إلى اضطراب وفوران لم يخب أواره حتى كان قد غشى بدخانه على روح الإسلام ، وأسلم الأمة إلى ملك عضوض .

(۱) عن کتاب عثمان للأستاذ صادق عرجون .

لذلك لم يكن غريباً أن يغضب أصحاب الأموال ، والمستنفعون من تفاوت الحظوظ في العطاء ، على سياسة المساواة والعدالة التي اعتزمها عليّ بعد عثمان ؛ وأن يتظاهروا بأنهم إنما ينصحون بالعدل عن هذه السياسة خوفاً عليه من الانتقاض ، فما كان جوابه إلا أن يستلهم روح الإسلام في ضميره القوي فيقول :

« أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ لو كان هذا المال لي لسويت بينهم ؛ فكيف وإنما المال مال الله ؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف ؛ وهو يرفع صاحبه في الدنيا ؛ ويضعه في الآخرة » .

\*\*\*

فأما بنو أمية فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرى . حتى كان عمر بن عبد العزيز ، فصنع الذي أسقلنا في رد المظالم ؛ وفي الكف عن بعثرة أموال المسلمين في غير حقها ؛ فلم يكن لبنى أمية إلا ما لساثر الناس ؛ ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب في هذا المال ، فقد انقطع عن الشعراء المداح ، ولم يجزهم بشيء من بيت المال .

وفي خبر له مع جرير أن جريراً مدحه فقال له عمر : « يا ابن الخطي : أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم ؟ أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ » فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بواحد من هؤلاء ، وإني لمن أكثر قومي مالا ، وأحسنهم حالاً ؛ ولكني أسألك ما عودتني الخلفاء : أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان . فقال له عمر : « كل امرئ يلتق فعله ، وأما أنا فما أرى لك في مال الله حقاً ؛ ولكن انتظر حتى يخرج عطائي ، فأنظر ما يكفي عيالي سنة منه فأدخره لهم ؛ ثم إن فضل فضل صرفناه إليك » فقال جرير : لا بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً ، قال : فذلك أحب إليّ . فخرج فلما ولي قال عمر : إن شر هذا ليتقى ؛ ردوه

إلى . فردوه فقال : « إن عندي أربعين ديناراً وخلصتين ، إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى وأنا مقاسمك ذلك ، على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك » فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين ، وأنا والله راض . قال : أما وقد حلفت فإن ما وفرتة علىّ ولم تضيق به معيشتنا آثر في نفسي من المدح ، فامض مصاحباً .

لا عجب إذن حين تحفظ أموال المسلمين فتد على المستحقين أن يروى الرواة أن الناس اكتفوا في عهد عمر بن عبد العزيز حتى لا تجرد الصدقات في بعض الأقطار من يأخذها لاغتناء عامة الأمة باستحقاقاتهم الأخرى عن أموال الصدقات . وفي ذلك يقول يحيى ابن سعد :

« بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ؛ فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم » .

إنما الفقر والحاجة ثمرة التضخم والزيادة . والفقراء في كل وقت هم ضحايا الأغنياء المفحشين . والأغنياء المفحشون في الغالب هم نتاج الأعطيات والإقطاعيات والحباة والظلم والاستغلال !

\*\*\*

وفي أيام بني أمية ثم في أيام بني العباس من بعدهم ، كان بيت المال مباحاً للملوك كأنه ملك لهم خاص ؛ وذلك على الرغم من وجود بيتين للمال : بيت المال العام ، وبيت المال الخاص . والأول مفروض أن موارده ومصارفه للجماعة ؛ والثاني مفروض أن موارده ومصارفه من خاصة السلطان . لكننا نجد أحياناً أن أموالاً عامة تحمل إلى بيت المال الخاص . وأن مصارف خاصة تؤخذ من بيت المال العام !

جاء في كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري تأليف آدم ميتز و ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة :



« أما العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة فكان يؤخذ من بيت المال العام .  
وعندنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التي تحمل إلى بيت  
مال الخاصة .

١ — الأموال المختلفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال . ويقال : إن الرشيد  
خلف أكبر مقدار من المال ، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ، وكان المعتضد ( ٢٧٩ -  
٢٨٩ هـ ) يستفضل من كل سنة من سني خلافته بعد النفقات ، مما كان يحصله بيت مال  
الخاصة ألف ألف دينار ، حتى اجتمع في بيت المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن  
يتممها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ، ونذر عند بلوغ ذلك أن  
يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج في تلك السنة . وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة  
ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغن عنها ، فاخترمته المنية  
قبل بلوغ الأمنية . ثم جاء المكتفي بعد المعتضد ( ٢٨٩ - ٢٩٥ ) فأبلغ المدخر إلى أربعة  
عشر ألف ألف دينار .

٢ — مال الخراج والضيايع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان ( بعد  
إسقاط النفقات ) وبلغ مقدار ذلك في كل سنة منذ عام ٢٩٩ إلى عام ٣٢٠ هـ  
( ٩١١ - ٩٣٢ م ) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم ، منها أربعة آلاف ألف درهم  
كانت تحمل إلى بيت مال العامة ، والباقي وهو تسعة عشر ألف ألف درهم إلى بيت  
مال الخاصة . ويجب أن نسقط من ذلك النفقات الحادثة التي تتطلبها هذه البلاد ،  
ففي عام ٣٠٣ هـ ( ٩١٥ م ) أنفق الخليفة لفتحها ما يزيد على سبعة آلاف ألف درهم .

٣ — أموال مصر والشام . وكانت جزية أهل الذمة مثلاً تحمل إلى بيت مال الخليفة  
باعتباره أمير المؤمنين لا إلى بيت مال العامة . وهذا ما يجب للخليفة نظرياً !

٤ — المال الذى يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعمال وما حصل من ارتفاع ضيعاتهم ، والمال الذى يؤخذ من التركات <sup>(١)</sup> .

٥ — ما كان يحمل إلى بيت مال الخلاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب .

٦ — ما كان يستفضله الخلفاء ، فكان كل من الخليفتين الأخيرين فى القرن الثالث الهجرى ( وهما المعتضد والمكتفى ) يستفضل فى السنة ألف ألف دينار ، وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلها ، فيكون مبلغه فى خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار ، أعنى نحواً من نصف ما خلفه الرشيد » .

ومن هذا النص يبدو كم عدا من يسمون خلفاء من الملوك على أموال المسلمين العامة ، وكم بعدت سياسة المال عن أصول الإسلام ، وكم ارتفع الثراء والترف فى جانب والبؤس والشقاء فى جانب ، وكم اختل المجتمع الإسلامى نتيجة بعده عن النهج الإسلامى ، وتنكره للمبادئ الإسلامية .

\*\*\*

ولكن الواقع التاريخى للإسلام — على الرغم من هذا كله — استطاع أن يقرر عدة مبادئ أساسية فى « سياسة المال » وأن يحقق الكثير من نظريات الإسلام ومبادئه على الرغم من النكسة التى أصابته فى مطلع عهده ، على أيدي بنى أمية .

استطاع الواقع التاريخى أن يقرر .

١ — أن الفقراء أولى من أولى السابقة فى الإسلام بالمساواة العام . وجاء فى مسند أحمد بن حنبل : « حدثنا بكر بن عيسى ، حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن الشعبي عن

---

(١) كان الخليفة يرث مال الخدم ومن لا ولد له من موالى أسرة الخلافة . ولما كان هؤلاء فى الغالب سادة ذوى مناصب تدر الرزق الكثير فإن مالا كثيراً كان يجرى إلى خزانة الخليفة .

عدى ابن حاتم قال : أتيت عمر ابن الخطاب فى أناس من قومى ، فجعل يفرض للرجل من طيبء فى ألفين ويعرض عنى . قال فاستقبلته فأعرض عنى ، ثم أتيت من حىال وجهه فأعرض عنى . قال : فقلت : يأمر المؤمنين . أتعرفنى ؟ قال : فضحك حتى استلقى لقفاه ، ثم قال : نعم والله إنى لأعرفك . آمنت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وإن أول صدقة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه أصحابه ، صدقه طيبء جئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ يعتذر ، ثم قال : إنما فرضت لقوم أجحفت بهم الفاقة ، وهم سادة عشائهم ، لما ينوبهم من الحقوق . » .

وهذه من عمر الذى آثر أولى السابقة فى تقدير العطاء ، لها قيمتها ، ولها دلالاتها . فالحاجة هى المبرر الأول للاستحقاق فى المجتمع الإسلامى . وهو مبدأ عميق الدلالة فى كراهة الإسلام للحاجة والفاقة ، وحته على إزالتها أولاً قبل كل رعاية لأى اعتبار آخر .

٢ — أن الإسلام يكره تكس الثراء فى جانب والحرمان فى جانب . وفى سبيل إزالة هذه الحالة يبيع لولى الأمر المسلم الذى ينفذ شريعة الله ، حرية التصرف . فى المال العام . وهذا المبدأ وعاه الواقع التاريخى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى توزيع فىء بنى النضير على المهاجرين الفقراء خاصة - عدا رجلين فقيرين من الأنصار - حتى يعيد بعض التوازن للمجتمع الإسلامى فى أول فرصة عرضت له . ثم جاء القرآن مصداقاً لهذه السابقة التاريخية : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وهذه السابقة لها دلالاتها ولها قوتها . فولى الأمر المسلم وهو الذى ينفذ شريعة الله يملك دائماً أن يخص الفقراء من المال العام ، بما يعيد التوازن إلى الجماعة الإسلامية ، وبما يحقق رغبة الإسلام فى ألا توجد فوارق بين الطبقات تخل بهذا التوازن العام .

مبدأ الضريبة المتفاوتة حسب المقدرة والعجز . . فحين فرضت الجزية على الذميين جعلت بالفئات الآتية :

( أ ) أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما عن كل رأس في العام .

( ب ) أوساط ويؤخذ منهم ٢٤ درهما :

( ح ) فقراء يتكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من عاجز عن العمل ، ولا من أعمى أو مقعد أو مجنون أو ذى عاهة على وجه العموم . ولا تجوز الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء . . فلا جزية على امرأة أو صبي .

وحين وقعت المجاعة في عام الرمادة بسبب القحط ، لم يرسل عمر جباته ليقبضوا الزكاة ، بل ترك الناس حتى يرتفع الجذب ، فلما اطمأن الناس وعاد الرخاء ، بعث عماله فتقاضوا من القادرين حصتين : حصّة عن عام الرمادة ، وحصّة عن العام الحاضر ، وأعفى غيرهم ، ثم أمر أن ترد على هؤلاء إحدى الحصتين ، ويقدم العمال عليه بالثانية .

٤ — مبدأ عدم الحجز على الضروريات وفاء للضريبة ، وعدم استيفائها كذلك بالقوة . . قال على بن أبي طالب لأحد عماله : « . . إذا قدمت عليهم ، فلا تبيعن لهم كسوة ، شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ؛ ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج . فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو . . » <sup>(١)</sup>

٥ — مبدأ « الرجل وحاجته » بجانب مبدأ « الرجل وبلاؤه » . . فقد فرض النبي صلى الله عليه وسلم للأعزب حظاً من الغنيمة والمتزوج حظين . ولهذا الفرض دلالة في أن الحاجة مبرر كالجهد للعطاء . فجهد المتزوج في الجهاد كجهد الأعزب . ولكن حاجته

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف .

مضاعفة . فضوعف له حظه . فالحاجة وحدها مبرر كاف للتملك في الإسلام . ولهذا قيمته في الضمان الاجتماعي .

٦ — مبدأ الضمان الاجتماعي العام لكل عاجز وكل محتاج . فقد فرض عمر للمولود مئة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مئتين ، فإذا بلغ زاده . وكان يفرض للقيط مئة ، ولوليه كل شهر رزقاً يعينه عليه ، ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال ، ثم يسويه عند كبره بسواه من الأطفال . وهذه سماحة من عمر توحىها سماحة الإسلام ، فالقيط برىء ، لا يحمل وزر أبويه الجارمين . وقد أثبتنا من قبل كيف فرض لليهودى الأعمى ، وللمجذومين من النصارى . وهى سماحة الإسلام فى نفس عمر للناس جميعاً لا للمسلمين وحدهم ، وتأمين للمجتمع من غوائل الحاجة والعجز والحرمان .

٧ — مبدأ من أين لك هذا ؟ فلا حصانة للحاكم تمنع الجماعة أن تحاسبه على ما كسبه من مال ، ليتبين لها إن كان ذلك ماله أو مالها . وتقرير هذا المبدأ كفىل بأن يتردد الحاكم مرتين قبل أن يقدم على اغتيال المال العام . وقد قرره عمر مع ولاته جميعاً ، وأقره على مع بعض الولاة .

٨ — مبدأ الزكاة العام الذى لم ينقض حتى فى أشد العهود ظلاماً وفسوقاً عن روح الدين . فما من أحد أنكره نظرياً أو عملياً ، منذ حروب الردة فى أوائل عهد أبى بكر . إلى أن غلبت المدنية الغربية فى عصرنا الحاضر ، فنقض آخر مبدأ حتى من مبادئ الإسلام !

٩ — مبدأ التكافل العام الذى يجعل كل أهل بلد مسؤولين مسؤولية مباشرة عن يتلقه الجوع ، مسؤولية جنائية يؤدون فيها الدية ، بوصفهم قتلة لذلك الذى أتلقه الجوع وهو بينهم مقيم . ومما يؤيد هذا المبدأ حق الجائع أو العطشان أن يقاتل من فى يده الطعام والماء حين يخشى على نفسه التلف ، فإذا قتله فلا دية عليه ولا عقاب .

( ١٦ - العدالة )

١٠ - مبدأ تحريم الربا ، والإنظار عند العسرة للمدين . ولقد ظل الربا محرماً حتى أبحاثه المدنية المادية ، يحملها إلينا القانون الفرنسى ، وجعلته أصلاً من أصول الحياة الاقتصادية العامة ، فى غير ما ضرورة ملجئة إلا انعدام العنصر الخلقى فى الحياة ، وانتفاء روح التعاون والبر من صدور الناس . تلك الروح التى يجعلها الإسلام أساس المجتمع وركن التعاون بين الناس . وذلك كله غير تقاليد البر والمواساة والتكافل فى المجتمع - عن غير طريق التشريع - والماضى القريب الذى شهده آباؤنا - لأجدادنا - فى الريف الإسلامى فى كل مكان ، والذى ماتزال بقية منه حتى بعد أن طفت الحضارة المادية الغربية على العالم الإسلامى ، يشهد بأثر الروح الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية ، حيث كان فيض ذلك الروح يغنى عن التشريع والإلزام . وهذه الأوقاف الكثيرة ، والحبوس المنوعة ، التى صرفت اليوم عن أهدافها ، وانتهبها الناهبون تحت مختلف العنوانات والتعللات ، شاهد بعوامل الرحمة والبر والتكافل والتأمين الاجتماعى فى نفوس أجيال المسلمين البعيدة والقريبة ، قبل أن تفسدها الحضارة المادية الجامدة ، القاسية القلب والشعور .

ولقد بلغت الرغبة فى الضمان الاجتماعى للضعفاء مبلغاً جعلها تتجاوز الإنسان إلى الحيوان . وقد حبست بعض الحبوس على ضعاف الحيوان لتتخذ لها المأوى ، وتنال الحماية من التشرد والجوع !

\*\*\*

هذا هو الإسلام على الرغم مما عترض خطواته العملية الأولى ، من انحراف فى تصور معنى الحكم وسياسة المال كانت له آثار ضخام . هذا هو الإسلام فى واقعه التاريخى الذى حققه فعلاً . فأما الإسلام فى مبادئه العامة ،

فهو على استعداد دائم للوفاء بالحاجات المتجددة في كل المجتمعات التي تقوم على أساسه ،  
وتتخذ شريعته شريعة . وهو يفي بهذه الحاجات في شمول وتوازن ، برىء من التخبطات  
التي تتأرجح فيها التجارب البشرية والمذاهب البشرية بين التفريط والإفراط . والتي تكلف  
البشرية ثمنا غاليا من الضحايا والتضحيات<sup>(١)</sup> .  
فأما حاضر الإسلام ومستقبله فسنحدث عنها في فصل آت .

---

(١) يراجع فصل « تخبط واضطراب » في كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » للمؤلف

## حاضر الإسلام و مستقبله

نحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية ، في مجتمع إسلامي ، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي ، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي .

ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية - على هذا النحو - قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض ؛ وأن « وجود » الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك !

ونحن نبهر بهذه الحقيقة الأخيرة - على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا « مسلمين » ! - ونبهر بها على هذا النحو في الوقت الذي ندعو فيه إلى استئناف حياة إسلامية ، في مجتمع إسلامي ، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي . ولا نرى أن في رؤية تلك الحقيقة والجهر بها كذلك ما يدعو إلى خيبة الأمل ؛ أو اليأس من هذه الدعوة ومن هذه المحاولة . على العكس نرى أن الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة - حقيقة أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض ، وأن « وجود » الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك - نرى أن الجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام ، ومحاولة استئناف حياة إسلامية .. ضرورة لا مفر منها .

إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير « عقيدة » . ولا في واقع الحياة « دينا » إلا أن يشهد الناس : أن لا إله إلا الله . أي لا « حاكمية » إلا الله .. حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعه وأمره - وهذه كلها سواء في كونها أساسا للعقيدة لا تقوم - ابتداء - في الضمير إلا به - كذلك هو لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة « دينا » إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة هو « الدين » ، فتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلا ؛ ويبرأ فيه الحاكم والمحكوم من ادعاء حق « الألوهية »



عن طريق ادعاء حق « الحاكمية » ومزاولة التشريع فعلا بمالم يأذن به الله ؛ مما يتخذ به البشر لأنفسهم من أنظمة وأوضاع وتشريعات وقوانين ؛ غير مستمدة من شريعة الله ، نصاً حين يوجد النص ، واجتهادا - في حدود المبادئ العامة - حين لا يوجد النص . طاعة لأمر الله سبحانه : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول - إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر - .. »

ونحن لانه نحدد مدلول « الدين » ولا مفهوم « الإسلام » على هذا النحو من عند أنفسنا.. ففي مثل هذا الأمر الخطير ، الذي يترتب عليه تقرير مفهوم لدين الله ؛ كما يترتب عليه الحكم بتوقف « وجود » الإسلام في الأرض اليوم ؛ وإعادة النظر في دعوى مئات الملايين من الناس أنهم « مسلمون » .. في مثل هذا الأمر لا يجوز أن يفتى الإنسان فيما يقسم الظهر في الدنيا والآخرة جميعا !

إنما الذي يحدد مدلول « الدين » على هذا النحو ، ومفهوم « الإسلام » هو الله سبحانه - إله هذا الدين ورب هذا الإسلام .. وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها ولا الاحتيال عليها :

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » ... ( يوسف : ٤٠ )

« وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَحَذَرَهُمْ أَنَّ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ » ... ( المائدة : ٤٩ )

« وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » ... ( المائدة : ٤٥ )  
« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ... ( النساء : ٦٥ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .  
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » ... ( النساء : ٥٩ )

وكلها تقرر حقيقة واحدة . أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده ؛  
والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع - بمالم يرد به نص - إذ لا رأى مع النص ولا نزاع -  
والحكم بما أنزل - دون سواه - في كل شئون الحياة ؛ والرضى بهذا الحكم رضى قلبيا بعد  
الاستسلام له عمليا ... وأن هذا هو « الدين القيم » .. وهذا هو « الإسلام » الذي أراده الله  
من الناس .

وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم - على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين  
والإسلام - لا نرى لهذا الدين « وجودا » .. إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر  
مجموعة من المسلمين عن أفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة البشر ؛ وذلك يوم أن تخلت  
عن الحكم بشريعته وحدها في كل شئون الحياة .

ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة ، وأن نجهر بها ، وأن نخشى خيبة الأمل التي تحدثها  
في قلوب الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا « مسلمين » .. فهؤلاء من حقهم أن يستيقنوا :  
كيف يكونون مسلمين !

إن أعداء هذا الدين بذلوا طوال قرون كثيرة وما يزالون يبذلون ، جهودا ضخمة ماكرة  
خبیثة ، ليستغلوا إشفاق الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا مسلمين ، من وقع هذه الحقيقة  
المريرة ، ومن مواجهتها في النور ! وتخرجهم كذلك من إعلان أن « وجود » هذا الدين  
قد توقف ، منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة في الأرض عن تحكيم شريعة الله في أمرها كله ؛  
فتخلت بذلك عن أفراد الله سبحانه بالحاكمية - [ أو بالألوهية ] - فهذه مرادفة لتلك ،  
أو لازمة لها لا تتخلف .

هؤلاء الأعداء الماكرون الخبيثاء يستغلون ذلك الإشفاق وهذا التخرج لتخدير مشاعر

الكثيرين في الأرض ، الذين يحبون أن يكونوا « مسلمين » وإيهامهم أنهم مايزالون « مسلمين » فعلا ! وأن « الإسلام بخير » ! وأن الناس يمكن أن يكونوا « مسلمين » دون أن تحكمهم شريعة هذا الدين ؛ بل دون أن يعتقدوا أن الحاكمية لله وحده، من ادعاهالنفسه فقد ادعى الألوهية ، وكفر ، وخرج من هذا الدين ! .

ولقد بلغ من تبجح هذا الخبث أن يكتب المستشرق « ولفرد كانتول سميث » كتابا كاملا تحت عنوان : « الإسلام في العصر الحديث » هدفه الأساسي هو إثبات أن « العلمانية » التركية ، التي قام بها «أتاتورك» ، هي « إسلامية ! » بل إنها هي « الحركة الإسلامية ! » الوحيدة الناجحة في تاريخ الفترة الحديثة ؛ وأن على « المسلمين » الذين يريدون استبقاء « وجود » الإسلام أن يحذوا حذوها ؛ بوصفها المحاولة الوحيدة الصحيحة !

كذلك بلغ الخبث من التبجح ! وكذلك ينبغي أن نجهر نحن بالحقيقة المقابلة ، التي قد يشفق منها الكثيرون ممن يحبون أن يكونوا مسلمين ؛ ومن يتخرجون أن يعلنوا أن وجود هذا الدين قد توقف .. لنبطل مفعول « الخدر » الخبيث ، الذي يخدر به أعداء هذا الدين محبي هذا الدين !!!

وينبغي كذلك ألا نخشى ما يحدثه إعلان هذه الحقيقة من خيبة أمل مريرة .. فنحن واثقون بعد ذلك أن « المستقبل لهذا الدين » ؛ وأن هذا التوقف عن الوجود لن يستمر . بل لن يطول ! وأن جميع الفقاعات التي ينفخ فيها الاستعمار الصليبي والصهيوني في هذه الأرض ستنفث كما تنفث الفقاعات دائما منها تكن ضخمة المظهر ، شديدة البريق !

إن هذا الدين الذي توقف - مؤقتا - عن الوجود ؛ عميق الجذور في هذه التربة ؛ وهو أعمق من هذا في تربة الفطرة .. إن اثني عشر قرنا من الوجود الواقعي لهذا الدين

في الأرض لن يمكن محوها من هذه الأرض .. وإن فطرة الله التي فطر الناس عليها لن تغلبها  
محاولات الاستعمار الصليبي والصهيوني !

إن « المستقبل لهذا الدين » في هذه الأرض التي تحقق فيها وجوده الفعلي أكثر من  
مئتين وألف عام ؛ وفي غيرها من الأرض أيضاً ، التي تصارع فيها الفطرة ما هو مفروض  
عليها من المذاهب والأنظمة والأحكام !

ذلك حاضر هذا الدين .. إن وجوده متوقف .. لأنه لا يوجد إلا بالمدلول الذي  
أرادَه الله له ؛ وهو أن يكون هو المهيمن وحده على حياة الناس كلها . وأن تتحقق به  
ألوهية الله - سبحانه - في الأرض تحقق هذه الألوهية في السماء . أى أن تتحقق عن  
طريق الإذعان لشريعته وأمره تحققها عن طريق قضائه وقدره .. تصديقاً لقول  
الله سبحانه :

« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ » ..

وهذا هو مستقبله .. أمل عريض واثق في عودة هذا الدين إلى الوجود .. أمل يسنده  
الوجود التاريخي الطويل ؛ ويؤكد كده الوجود « الفطري » الأصيل ..  
إلا أن هذا الأمل العريض والاثق لا يجوز أن يقعدنا عن استعراض الأسباب التاريخية  
لذلك التوقف - الوقتي - واستعراض العقبات القائمة في وجه الوجود الفعلي . واستعراض  
الجهود الأولية اللازمة أو الممهدة لهذا الوجود الفعلي ..

لقد أشرنا من قبل إلى الهزة التي أصابت المجتمع المسلم وهو حديث عهد بالوجود ، وذلك  
فيما وقع من بني أمية من انحراف عن القمة التي كان المجتمع مستويا عليها على عهد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وعهد الخلافة الراشدة .

فالآن نشير إشارات سريعة إلى أهم الصدمات التي واجهت هذا الدين بعد ذلك فثبت  
لها طوال هذه القرون .

ونحن واجدون أولاهها في قيام الدولة العباسية واعتمادها على عناصر حديثة العهد بالإسلام ، لم تخلص نيتها له بعد ، لما يعمل فيها من عصبية قومية لا تزال جذورها كامنة ؛ فلما تقدم العهد بالدولة العباسية تركت العناصر التي قامت عليها والتي أخذت تندمج في الإسلام ، إلى عناصر أخرى قلوبها غلف من الترك والشراكسة والديلم وسواها . وهكذا ظلت الدولة تعتمد على عناصر مضادة لروح الإسلام ؛ وتأثر بهذه العناصر بحكم اعتمادها عليها . فلم يكن إلا روح الإسلام مقاوماً لهذه العناصر ولسلطان الدولة معها ، بما يحمله من طاقة كامنة ، وحيوية عظيمة .

ثم كانت غزوات التتار المدمرة ، التي طغت على العالم الإسلامي ببربرية متوحشة ، لم يلبث الإسلام أن طواها في تياره ، وابتلعها فصارت بعض رواسبه ، ولكن بعد أن هزت هذا الروح الإسلامي هزة عنيفة ، وأثرت حتماً في أوضاعه وتقاليده . إلا أن الأمة الإسلامية ظلت - على الرغم من تضعف الدولة أمام طائفة التتار - قوية متمسكة بالأواصر ، قائمة على أصول الدين مهما نادت عنها في بعض الجوانب الرسمية الخاصة .

وينبغي أن نذكر هنا أن الإمبراطورية الرومانية التي استغرق بناؤها ونموها نحو ألف عام ، انقرضت وتفسخت في قرن واحد نتيجة لغزوات الهون والقوط ، فلم يبق منها سوى بضعة معالم وإمارات ، على حين بقيت الدولة الإسلامية قائمة في رقعة فسيحة ، وهي الدولة التي لم يستغرق بناؤها سوى نصف قرن ، على الرغم من جميع النزاعات الداخلية بين الأسر الحاكمة ، والضربات الخارجية من التتار وغير التتار ، مما يشهد بحيوية الإسلام العظيمة في مواجهته تلك الظروف .

فإذا مضينا في تتبع الصدمات وجدنا صدمة الأندلس في الغرب ، بعد صدمة الحروب الصليبية في الشرق . وقد هزم الإسلام في الأولى وانتصر في الثانية ، وظل يعاني العداء

الوحشى من الروح الصليبية منذ ذلك الحين ظاهراً ومستتراً حتى الآن .  
ولكن الكارثة التى أطبقت على الإسلام إنما كانت فى هذا العصر الحديث ،  
حين غلبت أوروبا على العالم ، وامتد ظل الاستعمار الصليبي ، وغشى العالم الإسلامى  
كله شرقاً وغرباً ، وأرصد لقتل الروح الإسلامية كل قواه ، مستمداً دفعته من العدا  
الصليبي الموروث ، ومن القوة المادية والثقافية التى يحملها ، مضافاً إليهما التضعف الداخلى فى  
قوة الأمة الإسلامية ، وابتعادها رويداً رويداً فى هذا المدى الطويل عن تعاليم دينها  
ووصاياها .

وفى الحديث عن العدا الصليبي الكامن فى النفس الأوربية للإسلام ينبغى ألا  
تخدعنا الظواهر ، وألا يستغلنا التظاهر باحترام الحريات الدينية ؛ والقول بأن أوروبا ليست  
متحمسة للمسيحية اليوم تحمسها لها إبان الحروب الصليبية ، فليس هناك ما يدفعها إلى  
التحمس ضد الإسلام كما كانت فى تلك الأيام !

إنها كلها خدع وأضاليل . وما كان اللورد ألنبي إلا مثلاً لضمير أوروبا كلها ، وهو  
يدخل بيت المقدس فى الحرب العظمى الماضية فيقول : « اليوم فقط انتهت الحروب  
الصليبية » ! وما كان الحاكم العام للسودان إلا ممثلاً لهذا الضمير ، وهو يضع كل قوى  
الحكومة تحت تصرف المبشرين فى جنوب السودان ، ويمنع أى تاجر مسلم أن يمر هناك  
مجرد مرور . وقد حدث أن موظفاً بقى فى الجنوب أمداً طويلاً وطلب نقله إلى الشمال فلم  
يجب ، فهدته الحيلة أن يرفع صوته بالأذان للصلاة فكان هذا إيذاناً بنقله فى الغداة !

وانجلترا هى أشد الدول الأوربية تسامحاً وإغضاء ولباقة فى معالجة مسائل الأديان .

وقد يعجب البعض لأن تظل هذه الروح التعصبية ضد الإسلام قوية إلى هذا الحد فى  
الشعور الأوربي ، بعد ما تنكرت أوروبا للمسيحية ، ولم تعد صيحات الحجاج والقديسين هى  
التي تملأ سمعها كما كانت أيام الحروب الصليبية ، ولكن هذا العجب يزول حين نلقى بالننا  
إلى حقيقتين واقعيتين .

الحقيقة الأولى : « أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شرًا ثقافيا . لقد نشأ تسميم العقل الأوربي عما شوّهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب . وفي ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوربيين ، من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيواني ، وأنه تمسك بفروض شكلية ، وليس تركية للقلوب وتطهير ألقاها ؛ ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفي ذلك الحين أيضاً نيز الرسول محمد بقولهم « كلبى »<sup>(١)</sup> .

« لقد بذرت بذور البغضاء . . إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيوها في أما كن كثيرة من أوربة ، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإيقاد بلادهم من « نير الوثنيين » ! وأما تدمير أسبانية المسلمة (الأندلس) فقد اقتضى قروناً كثيرة حتى تم . ولما تطاول أمد هذا القتال على وجه الحصر ، أخذ الشعور ضد الإسلام في أوربة ينشب جذوره ثم يثبت . ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الإسلامي في أسبانية بعد اضطهاد بالغ في الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط ؛ وإن كانت أصداء الفرح قد تجاوزت في أوربة على إثر ذلك ، مع العلم بأن النتائج التي تلتها كانت القضاء على العلوم والثقافة ، والتبديل بها جهل العصور الوسطى وخشونتها .

« ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يمحو في أسبانية حدث حدث ثالث عظيم الأهمية ، زاد في فساد الصلات بين العالم الغربي وبين الإسلام ، ذلك هو سقوط القسطنطينية في يد الأتراك . لقد كانت أوربا ترى بقية من الزهو اليوناني والروماني القديم على بيزنطيوم (القسطنطينية) وكانت تنظر إليها على أنها حصن أوربة ضد برايرة آسية .

---

(١) « وازن بين صورة Mahomed وصورة Mahound إن Ma : ضمير الملك للتعظيم ( ضمير جر ) و Hound هاوند — من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب : وقد كان أولئك النابزون يتلاعبون بظاهر اللفظين : ماهومد وماهوند .. كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف بيول فائس ( محمد أسد ) وترجمة الدكتور عمر فروخ .

وبسقوط القسطنطينية فتح باب أوربة على مصراعيه للسيل الإسلامى . وفى القرون التى تلت والتى امتلأت بالحروب ، لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب بل ذات أهمية سياسية أيضاً . وهذا زاد فى اشتداد تلك العداوة .

« ومع هذا كله فإن أوربة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع . إن « النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوربة أكثر مما استفاد العالم الإسلامى ، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل ، وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ، ثم استعالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم » . ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلاً كان أو امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى . ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربا شيعا ؛ ووقفت كل شعبة مدججة بسلاحها فى وجه كل شعبة أخرى ؛ ولكن العداة للإسلام كان عاماً فيها كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ، ولكن العداة للإسلام استمر . وإن من أبرز الحقائق على ذلك أن الفيلسوف والشاعر الفرنسى فولتير ، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها فى القرن الثامن عشر ، كان فى الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام . وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من العطف ؛ أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ؛ وبقي هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوربة والعالم الإسلامى غير معقود فوقه بجسر . ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً فى التفكير الأوربى . والواقع أن المستشرقين الأولين فى العصر



الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية ؛ وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربيين من « الوثنيين » . غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حية دينية جاهلية نسيء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثية ، وخاصة طبيعية ، تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية ، بكل ما لها من ذبول في عقول الأوربيين الأولين .

« ولقد ينساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفوراً قديماً مثل هذا - وقد كان دينياً في أساسه وممكناً في زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية - يستمر في أوربة في زمن ليس الشعور الديني فيه إلا قضية من قضايا الماضي ؟

« ليست مثل هذه المضلات موضع استغراب أبداً ، فإنه من المشهور في علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التي تلقنها في أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة - والتي كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة - في قوتها ، تتحدى كل تعليل عقلي في جميع أدوار ذلك الإنسان ، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام : فعلى الرغم من أن الشعور الديني الذي كان السبب في النفور من الإسلام قد أخلى مكانه في هذه الأثناء ، لاستشراف حياة أكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقي عنصراً من الوعي الباطني في عقول الأوربيين . وأما درجة هذا النفور من القوة ، فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه . إن روح الحروب الصليبية - في شكل مصغر على كل حال - ما زال يتسكع فوق أوربة ، ولا تزال مدينتها تقف من العالم الإسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال<sup>(١)</sup> . »

(١) عن كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف ليوبولد فايس ( محمد أسد ) وترجمة الدكتور عمر فروخ .

والحقيقة الثانية : أن الاستعمار الأوربي والأمريكي الصليبي لا يملك أن يغفل من حسابه أن الروح الإسلامي صخرة مقاومة لمد الاستعمار ؛ وأنه لا مفر من تحطيم هذه الصخرة أو زحزحتها على الأقل ؛ ولا عبرة بما يقوله بعض الخدوعين أو المأجورين من أن أوربا لا يهمها الدين ، ولا تراه مصدر قوة ، ولا تخشى من العالم الإسلامي إلا قوته المادية . فالدين في حقيقته قوة روحية لها حسابها في تجديد القوى المادية ؛ فوق أن الإسلام بالذات غير المسيحية ، فهو يأمر بإعداد القوى المادية ويحض على المقاومة والكفاح ، وينذر المستسلمين والمستضعفين بسوء المآل في الدنيا والآخرة : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ انْخِلِلْ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ <sup>(١)</sup> » .. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٢)</sup> » .. « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ <sup>(٣)</sup> » .. « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ <sup>(٤)</sup> » .

فالدين قوة روحية وتنظيمية ودعوة إلى قوة مادية ؛ والدين صخرة مقاومة ودعوة إلى شدة المقاومة . فلا مفر للاستعمار الأوربي والأمريكي أن يكون عدواً لهذا الدين . . كل ما هنالك أن مظاهر العداء تختلف بحسب أساليب كل أمة في الاستعمار ؛ ثم بحسب الظروف والأحوال . ففرنسا مثلاً تعلنها حرباً صريحة سافرة في المغرب العربي كله على الإسلام باسم « الظهير البربري » أو بأى اسم آخر . ويعلن ممثلوها في دمشق أنهم أحفاد الصليبيين جهاراً نهاراً . وانجلترا تراوغ فتسلك طريقها خلسة إلى معاهد التعليم في مصر لتنشئ عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية ؛ فإذا تم لها تكوين

(٣) سورة النساء [ ١٤٤ ] .

(٤) سورة آل عمران : [ ١٣٩ ، ١٤٠ ] .

(١) سورة الأنفال [ ٦٠ ] .

(٣) سورة النساء [ ٧٤ ] .

جيل من المعلمين بهذه العقلية ، أطلقهم في المدارس وفي دواوين المعارف يصبغون عقلية الأجيال هذه الصبغة ، ويضعون المناهج والخطط مؤدية إلى تكوين هذه العقلية ، مع المحافظة التامة على إبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه في الوزارة . وبذلك تستغنى عن مواجهة الشعور الديني بالعداوة السافرة ، إذ تدع هذه المهمة لفريق كبير ذي أثر بعيد في تكوين العقلية المصرية العامة . . أما في السودان الجنوبي فلا تجد حاجة إلى هذه الموارد ، فتقف موقفها الذي وصفناه من المبشرين المسيحيين والتجار المسلمين ! وأمريكا تقيم الأوضاع والأنظمة التي تسحق الإسلام سحقاً بكل مقوماته العقيدية والخلقية والحركية في جميع أنحاء العالم الإسلامي . .

وهكذا سارت كل دولة مستعمرة على طريقة في مقاومة هذا الدين وخنقه منذ قرون مضت ؛ وما تزال تسير على خطة متعاونة في صميمها تبدو في موقف الأمم الغربية من كل قضية تواجه فيها الإسلام من قريب أو من بعيد !

والذين يحسبون أن نفوذ اليهود المسالي في الولايات المتحدة وسواها هو الذي يوجه الغربيين هذا التوجيه ؛ والذين يحسبون أن المطامع الإنجليزية والمكر الأنجلوسكسوني هو الذي يوجه الموقف ؛ والذين يحسبون أن الصراع بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية هو الذي يؤثر . . كل أولئك يغفلون عنصراً حقيقياً في المسألة يضاف إلى هذه العناصر جميعاً ، هو الروح الصليبية التي تحملها دماء الغربيين ، والتي تنفد في عقولهم الباطن ، مضافاً إليها الخوف الاستعماري من الروح الإسلامي ، والعمل على تحطيم قوة الإسلام ، حيث يربط الغربيين جميعاً شعور موحد ومصالحة موحدة في تحطيمها ، تجمع بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية ! ولا ننسى دور الصهيونية العالمية في الكيد للإسلام وتجميع القوى ضده في العالم الاستعماري الصليبي والعالم المادي الشيوعي على

السواء . وهو الدور المستمر الذى قام به اليهود دائماً منذ هجرة الرسول إلى المدينة وقيام دولة الإسلام !

والعجيب أن روح الإسلام على الرغم من جميع هذه الصدمات التى واجهته منذ الفترة الأولى فى حياته إلى اليوم ، وعلى الرغم من معالجة الصدمات له وأثر ذلك فى كيانه الوليد ؛ ثم على الرغم من غلبة الحضارة الغربية اليوم بقوتها المادية والثقافية ، مما أhal بعض من يحملون أسماء المسلمين أدوات هدم وتخطيط للإسلام فى أيدي المستعمرين وهم مستريحون !

على الرغم من هذا كله ظلت روح الإسلام فى ذاتها سليمة ، وظلت طاقته الكامنة تؤثر فى مجرى الحياة الإنسانية بصفة عامة ؛ وتؤثر فى صوغ السياسات العالمية وتوجيهها منذ أربعة عشر قرناً إلى اليوم ؛ فما من حركة سياسية أو حرية فى العالم لم يحسب فيها للإسلام حساب ؛ حتى فى عصور الضعف والفرقة وتخلخل الحياة الروحية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الإسلامى .

ولقد انقضت فترة الخمول والاضمحلال ؛ وأخذ المد الإسلامى فى الظهور فى كل مكان على الرغم من الضربات الساحقة التى توجه إلى طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان ! وهى مظاهر لا يمكن إغفالها ، على الحيوية الكامنة فى الإسلام ، وعلى أن رصيده المدخر يكفى لاستئناف حياة إسلامية جديدة ، لاتقوم على مجرد الرغبة والتفاؤل ، بل على أسس عملية وواقعية كذلك ظاهرة للعيان ، هى اليوم فى دور التجمع والاستعداد على الرغم مما يبدو أحياناً من عوامل المقاومة والانتكاس . فما هى إلفاعات تنفقع ، أو سحابة صيف تنقشع !

ولكننى على الرغم من إيمانى إيماناً مطلقاً بحتمية استئناف الحياة الإسلامية فى العالم الإسلامى ، وباستعداد الإسلام لأن يكون نظاماً عالمياً - لا محلياً - فى المستقبل . فإننى

لأحب أن أندفع وراء خيال جامع ، فأقرر أن هذا سهل ميسور !  
كلا فهناك عراقيل شتى وضخمة ، كأن هناك أعمالاً عظيمة يجب أن تتم قبل أن يصبح  
استئناف الحياة الإسلامية الصحيحة ميسوراً في المجتمع الإسلامي ذاته . وتقدير تلك العوائق  
الضخمة ، والتنبيه إلى هذه الأعمال الواجبة أمر يوجب الشعور الحقيقي بعظمة الغاية التي تهدف  
إليها ، وبثقل التبعة التي تنتظر من ينهض لهذه الغاية .

وليس يكفي أن يبعث المرء بالصيحة المدوية في حماسة فوارة ، ليصبح الأمل واقعاً  
والرجاء حقيقة ، إن لم يقدر كل العقبات وكل التبعات ، وينبه من يبعث إليهم بصيحته إلى  
الجهد الضخم الذي يطلب إليهم أن يبذلوه .

وطبيعي أن انفراج المسافة بين سياسة الحكم وروح الإسلام فترة طويلة من الزمان ،  
يجعل العودة إلى السياسة المستمدة من هذا الروح أصعب ؛ لأن جهاز الدولة والمجتمع ،  
وقواعد الحياة بكل مقوماتها ، والاتجاه النفسي والعقلي . . كلها تقوم على أسس معينة  
يصعب تغييرها قبل بذل جهود ضخمة طويلة . وكلما امتد الزمن زادت هذه الصعوبة ،  
واحتاجت إلى جهود أضخم وأطول .

ثم يضاف إلى عامل الزمن الطويل عامل آخر حاصر ؛ وهو أننا لانعيش في هذا  
العالم وحدنا ، ولانعيش كذلك في عزلة عنه . وتشابك مصالحنا وقضايانا مع هذا العالم الذي  
تسيطر عليه حضارة معينة ، ذات عقلية مناقضة تماماً لعقلية الإسلام - كما سنبين فيما بعد -  
يجعل خطواتنا في سبيل استئناف حياة إسلامية صحيحة ، خطوات بطيئة من جهة ، وذات  
تكاليف علينا من جهة أخرى .

ومما يزيد هذا العامل الأخير أهمية ، أن هذا العالم الغربي الذي تتشابك مصالحنا معه  
أقوى منافي الوقت الحاضر ، وليست لنا السيطرة عليه أو القوة المكافئة لقوته كما كنا في أول  
عهد الإسلام ؛ ثم هو في الوقت ذاته عدو لنا ، وعدو لديننا بوجه خاص . لذلك لن يدعنا

ننشى نظاماً إسلامياً من جديد ، ونستأنف حياة إسلامية صحيحة ، مالم نبذل جهوداً مضاعفة ،  
كان يمكن الاقتصاد فيها لو كانت لنا السيطرة على العالم الغربى أو القوة المكافئة لقوته ، أو لو  
كان هو صديقاً لنا ، ولديننا الذى نريد العودة إليه .

إلا أن هذا كله لا يعنى أن العودة إلى النظام الإسلامى مستحيلة . وكل ما يعنيه أنها عمل  
عسير ضخم ، فى حاجة إلى جهود غير عادية ؛ وقبل كل شىء فى حاجة إلى حماسة فى الإيمان  
به ؛ وجراحة فى اقتحام العقبات المرصودة فى طريقه ؛ وصبر على الجهد الشاق الواجب له ، وثقة  
فى ضرورته للعالم الإسلامى وللعالم الإنسانى كله ، وعقلية إنشائية مبتكرة ، ليست وظيفتها  
مجرد ترقيع الواقع ، بل إنشاء واقع جديد كامل غير مرقع !

ولعله من الحقائق ذات القيمة فى هذا المجال ، أن نشير إلى أن الحضارة الغربية الراهنة  
قد قادت العالم إلى حربين شاملتين خلال ربع قرن ؛ كما قادت بعد الحرب الثانية إلى انقسام  
بين الكتلتين الشرقية والغربية ، وإلى تهديد دائم بحرب ثالثة ؛ وإلى اضطرابات فى كل  
مكان ، وإلى جوع وعرى وبؤس فى ثلاثة أرباع المعمورة . وأن النظام العالمى كله اليوم فى  
حالة تخلخل واضطراب وبحث عن أسس جديدة ، وتنقيب عن زاد روحى يرد إلى الإنسانية  
ثقتها بالمبادئ الإنسانية .

ولا ينبغى - مع هذا - أن نتفائل أكثر مما يجب باستعداد العالم الغربى لقبول أسس  
حضارتنا الإسلامية ، فهذا موضوع آخر .. نعم إن رجلاً كبرنارد شو يقول : إن العالم  
الغربى قد أخذ يتجه هذا الاتجاه ، ويتنبأ بأنه فى الطريق إليه فيقول :

« لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولا  
لديها اليوم .. لقد عمد رجال الإكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك  
الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذمى . والواقع أنهم كانوا يسرفون فى  
كراهية محمد وكراهية دينه وبعدهونه خصماً للمسيح . أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ

الإنسانية ، وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته ، وأحل في العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم إليهما !

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا في القرن التاسع عشر ، مالدن محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء : كارليل ، وجوته ، وجييون . . . بذلك حدث تحول صالح في موقف أوروبا من الإسلام . وقد تقدمت أوروبا تقدماً كبيراً في هذا القرن المتعم العشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب في القرن التالي إلى أبعد من ذلك فتعترف بمجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها . . وقد دان كثيرون من قومي ومن أهل أوروبا بدين محمد في الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول : إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ »<sup>(١)</sup>.

ولكننا نرى أن نبوءة برنارد شو لا تزال مجرد نبوءة - إن لم تكن مخدراً لشعور المسلمين ليطمئنوا وينتظروا اعتناق الأوروبيين لدينهم ! - وعلى كل حال فإن انتظار تحققها سابق على الأقل لأوانه لسببين رئيسيين :

أولهما : هو هذا العداء الموروث للإسلام في أعماق الطبيعة الأوروبية والأمريكية ؛ والذي يغذيه في العصر الحديث تعارض مصلحة الاستعمار الغربي والشرقي مع وجود هذه العقبة في طريقه .

وثانيهما : أن العقلية الأوروبية تأصلت على أسس مادية ، أثر الفكرة الروحية فيها ضئيل ، منذ الحضارة الرومانية إلى العصر الحديث . وهذا القول يحتاج إلى تفصيل لا تقتصر فائدته على دلالة في هذا الموضع ، بل تمتد إلى الإجابة على هذا السؤال الهام : هل يمكن أن تتعاون الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ؟ وما حدود هذا التعاون ؟

لقد قلنا في أوائل هذا الكتاب : إن أوروبا لم تكن مسيحية في يوم من الأيام .

---

(١) عن كتاب حياة محمد لهيكل نقلنا عن مجلة نور الإسلام عدد ٤٠ ص ٥٧٢٠ سنة ١٣٥٣ هـ

وذلك بسبب أن طبيعة الصراع فيها على رقعة من الأرض صغيرة ضئيلة ، جعلت مبادئ المسيحية السمحة لا تمتد جذورها في تلك التربة العسيرة ؛ وذلك فوق ما في طبيعة المسيحية من تزهد وعدم احتفال بالحياة الدنيا . فالآن نضيف إلى هذين العاملين عاملاً ثالثاً أشرنا إليه هناك إشارة عابرة ؛ وهو وجود الإمبراطورية الرومانية العريقة في طريق المسيحية ، وبقاء تعاليم الإمبراطورية أساساً للحضارة الأوروبية الحديثة ، على الرغم من انتقال المسيحية إليها ، إذ ظلت هذه على هامش الحياة .

ونقتطف هنا فقرات من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » نجد فيها الكفاية والفناء .

« كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية . . الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ، ولا في ظلمهم انحطاطاً . وإن « العدل الروماني » الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم . ومن البين أن اتجاهها كهذا كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادي خالص للحياة والحضارة ، إدراك مادي هذب على التأكيد ذوق فكري ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية . إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين ؛ وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحا سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ؛ ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية ؛ بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك ، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية !

« تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . ولقد عملت بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة في أثناء تطورها ؛ ثم إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت في ذلك



الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومية في أكثر من ناحية واحدة . ولكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع للمدينة الرومانية . وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعياً بحتاً ولا دينياً - لا على الافتراض بل الحقيقة - فكذلك هو الجوفى الغرب الحديث . ومن غير أن يكون لدى الأوربى برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة لمثل هذا البرهان .. ترى التفكير الأوربى الحديث - بينما هو يتسامح بالدين وأحياناً يؤكد أنه عرف اجتماعى - يترك ، على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبار العملية . إن المدينة الغربية لا تجحد الله ألبته ، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى . لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكرى فى الإنسان ، أى من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة . وهكذا يميل الأوربى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية و تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك ، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبار العملية !

« وهنا يعرض سؤال : كيف يمكن لهذا الاتجاه أن يتفق وطريقة التفكير المسيحى ؟ أليست النصرانية - المفروض فيها أن تكون الهيكل الروحى للمدينة الغربية - عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة كما هى الحال فى الإسلام ؟ لا شك فى أنها كذلك . ولكن حينئذ لا يمكن أن يكون ثمة خطأ أفدح من أن نعتبر أن المدينة الغربية الحديثة نتاج النصرانية . إن الأسس الفكرية الحقيقية فى الغرب يجب أن تطلب فى فهم الرومانين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ؛ ويمكن التعبير عنها كما يلي : بما أننا لا نعرف شيئاً معيناً - من طرق الاختبار العلمى والتقدير فى الحساب -

لا عن أصل الحياة الإنسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد... فإن من الخير لنا أن نحصر قوائنا في وجوه إمكاننا المادى والفكرى ، من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية . فلا ريب إذن في أن هذا الاتجاه الذى تتميز به المدنية الغربية الحديثة ، لا يجد قبولاً في التفكير الدينى المسيحى كما لا يجد قبولاً فى الإسلام أو فى كل دين آخر ، وذلك لأنه لا دينى فى جوهره . وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخياً عظيماً . إن النصرانية ساهمت فى جزء يسير جداً من الرقى العلمى المادى الذى فاق به الغرب ، فى مدنيته الحاضرة ، كل ماسواه . وفى الحق أن ذلك النتاج قد برز من كفاح أوزبا المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة . . ثم إن للنصرانية اليوم فى نظر السواد الأعظم معنى شكلياً فقط كما كانت حال آلهة رومية ، تلك الآلهة التى لم يكن يسمح لها ، ولا ينتظر منها ، أن يكون لها نفوذ حقيقى ما على المجتمع . ولا ريب فى أنه لا يزال فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبدلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم ؛ ولكن هؤلاء شواذ فقط ، إن الأوربى العادى - سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً أم بلشفياء ، صانعاً أم مفكراً - يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج : « طليقة من ظلم الطبيعة » . إن هياكل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأما كن توليد الكهرباء ؛ وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكوأكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ؛ وذلك يخلق جماعات متخصصة مدججة بالسلاح ، ومصممة على أن يفنى بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة . أما على الجانب الثقافى فنتيجة

ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العملية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادى « . . انتهى .

والخلاصة لهذا كله أن الضمير الأوروبى الحالى ليس على استعداد لاستشعار روح الإسلام والاستعانة به فى حل مشكلات الإنسانية . وإن يكن ذلك ليس مستحيلا بعد عدة انقلابات وتطورات أخرى ؛ وبعد أن يبدأ العالم الإسلامى ذاته فى استئناف حياة إسلامية واضحة المعالم ، مستقلة الأسس ، يجد فيها الغرب الواقعى التفكير ، حقائق عملية قائمة تجذب حسه ؛ وتعديل تفكيره . وإن كان اعتقادى الخاص أن أجيالا متطاولة ستنتفضى قبل أن يستطيع الغرب استشعار روح الإسلام على نحو من الأنحاء .

والخلاصة لهذا كله كذلك أن أسلوب التفكير الإسلامى القائم على الغايات الخلقية للأعمال ، لا يستطيع الالتقاء بأسلوب التفكير الغربى الحاضر القائم على الغايات النفعية للأخلاق ؛ وهذا ما يجب علينا أن نحسب حسابه ، ونحن نعمل لتحقيق حياة إسلامية سليمة ، فلا نحاول ترقيع هذه الحياة باستعارات نستوردها من الخارج ، لأن هذه الرقع لن تستقيم مع نسيج تفكيرنا الأصيل .

والذين يريدون من أصحاب الدعوة إلى الإسلام أن يستعيدوا مناهج الفكر الغربية يسلمون بالهزيمة منذ الجولة الأولى حين يحاولون تجديد حياتهم باستعارة الطرق الغربية فى التفكير والحياة والسلوك ؛ وينتهون إلى وأد الحياة التى يعملون لإحيائها ، لأنهم منذ الخطوة الأولى يعدلون عن طريقها الطبيعى الوحيد ، وهو أن يفكروا على أسس إسلامية تجعل العنصر الأخلاقى أصيلاً فى بناء الحياة ؛ وتنظر للغايات الخلقية للعمل ، ولا تجعل المنفعة هى الغاية العليا للأخلاق .

ولقد رأينا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب ، أن الإسلام يحقق غايات الحياة الصالحة كلها ، وهو يحافظ على العنصر الأخلاقى فيها ؛ وأن قيمته الحركية الكبرى كامنة

في أنه لا يجرى الحياة؛ ولا يفصل بين الوسائل والغايات؛ ولا يفترض التعارض بين المادى والروحى فى كيان الحياة وفى طبيعة الكون والناس ، بل يفترض أن الحياة وحدة كلية ، تسير بمجملتها نحو هذه الأهداف فى توافق واتساق .

يقدم الإسلام إذن للبشرية فكرة كاملة عن الحياة . . هذه الفكرة قابلة دائماً للنمو فى التفريع والتطبيق ؛ ولكنها غير قابلة للتعديل أو المزج فى الأصل أو الاتجاه .  
ويجب لكى تؤتى هذه الفكرة الكاملة نتائجها الطبيعية كاملة ، أن تطبق تطبيقاً كاملاً ، وإلا فإن أقل تعديل فى أساسها واتجاهها يحدث فيها اختلالاً ، لا تتحقق معه صورة الحياة التى يرسمها الإسلام .

أما النمو الدائم فى التفريع والتطبيق على أساس الفكرة الكلية فهو أمر طبيعى تفره طبيعة الإسلام ، وتدعو إليه ، وتهبى له وسائله، وتعترف بها . فالاجتهاد المفتوح دائماً، والسلطات الواسعة المتركزة للإمام الذى يحكم بشريعة الله ... كل هذه وسائل حية لاستمرار النمو فى التفريع والتطبيق لمسايرة حركة الحياة ، وتلبية حاجاتها المتجددة ... أمر واحد هو الذى يجب التزامه : ألا تخرج هذه التفريعات والتطبيقات على الأصول الأساسية للإسلام ؛ وألا تسلك اتجاهًا غير اتجاهه ؛ أو تحتال على روح الإسلام وتلبس بروح أخرى غير روحه القوية المستقيمة .

وعندما يقوم المجتمع المسلم بالفعل ، فسيكون المجال مفتوحاً للاجتهاد ولتطبيق شرائع هذا الدين على هذا المجتمع . وسيكون مدار قبولنا لأى تفريع أو رده ، أن نعرضه على فكرة الإسلام الأساسية وروحه العامة ، فما وافق فكرته وروحه قبلناه ، وما خالفها رفضناه ، على أن يكون مقررًا فى نفوسنا إلى درجة الإيمان والحماسة : أننا نملك تصوراً عن الحياة أكبر مما يملك أتباع أى دين أو فلسفة أو حضارة ، لأنه من صنع الله خالق الحياة .

ولكن هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل الوسائل العملية لبلوغ هذا الهدف العظيم . فعلى بركة الله إذن نأخذ في هذا التفصيل .

\*\*\*

إن استئناف حياة إسلامية لا يتم بمجرد وضع تشريعات وقوانين ونظم مستمدة من الشريعة الإسلامية ؛ فهذا ركن واحد من ركنين يعتمد عليهما الإسلام دائماً في إقامة الحياة ، وهو الركن الثانى لا الأول . أما الركن الأول ، فهو العقيدة الصحيحة التى تفرد الله سبحانه بالألوهية . ومن ثم تفرده بالحاكية . وتنكر على غير الله أن يدعى حقّ الألوهية ، بادّعاء حق الحاكية ومزاولته فعلاً !

أما العدالة الاجتماعية فهى جزء من تلك الحياة الإسلامية لا يتحقق كاملاً إلا بتحقيق تلك الحياة ، ولا يكفل له البقاء إلا بإقامتها على أسسها الوطيدة ، شأنها فى ذلك . شأن كل نظام آخر ، لا بد أن يعتمد على الإيمان به والثقة بصلاحيته ؛ وإلا فقد أسسه المعنوية ، وقام على القهر التشريعى والنظامى وحده ؛ وهو قهر عمره مرهون بالقدرة على التملص منه . لذلك كان التشريع الإسلامى أدنى إلى الاتباع والطاعة لأنه يعتمد على عقيدة دينية . ولذلك أيضاً يجب أن تكون نقطة البدء هى استحياء هذه العقيدة ، ونفى ما علق بها من تحريفات وتأويلات وشبهات ، لتكون سنداً للنظام التشريعى الذى نشير به لتحقيق حياة إسلامية صحيحة . وبذلك تقوم هذه الحياة - حين تقوم - على التشريع والتوجيه ، وسيلتى الإسلام الأساسيتين فى تحقيق أهدافه جميعاً .

يجب إذن أن نعيد بناء العقيدة الإسلامية على الأسس التى بينها فى مطلع هذا الفصل فى نفوس الأفراد والجماعات قبل أن نفكر فى موضوع التشريع الإسلامى الذى ينظم الحياة . ولكن كيف يتسنى لنا أن نكون عقيدة إسلامية بثقافة ، ووسائل تربية ، وطرق تفكير ، هى فى صميمها غربية ، وهى فى صميمها معادية للفكرة الإسلامية .

أولاً : لأنها تقوم على أساس مادي مناهض لفكرة الإسلام عن الحياة . وثانياً : لأن محاربة الإسلام جزء أصيل في تكوينها ؛ سواء ظهر هذا القصد واضحاً أو توارى في الثنايا والشعاب ؟

إننا كما قلت : نعلن هزيمتنا منذ الجولة الأولى إذا نحن اتخذنا الفكرة الغربية وسيلتنا لإحياء الفكرة الإسلامية . فلا بد أولاً من التخلص من طريقة التفكير الغربية ؛ ولابد من اتخاذ طريقة تفكير إسلامية ذاتية ؛ لنضمن أن يحىء الناتج خالصاً غير هجين !

إن مدلول « الحاكمية » في التصور الإسلامي لا ينحصر في قضية تلقي شريعة الحكم والتحاكم إليها . ومن ثم لا تتمثل العبودية لله وحده في مجرد تلقي الشريعة منه وحده ، والتحاكم إلى هذه الشريعة وحدها . . متى قصرنا الشريعة على معنى أصول الحكم وقوانينه . . فإن هذا بدوره لا يمثل مدلول « الشريعة » في التصور الإسلامي !

إن شريعة الله تعنى كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية . . وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وأصول الحكم ؛ وأصول السلوك ، وأصول المعرفة . . يتمثل في العقيدة والتصور . . وكل مقدمات هذا التصور . . ويتمثل في الأحكام التشريعية . ويتمثل في قواعد الأخلاق والسلوك . ويتمثل في القيم والموازن التي تسود المجتمع ، وتقوّم بها الأشخاص والأشياء والأحداث . . ثم يتمثل في المعرفة بكل جوانبها وفي أصول النشاط الفكرى والفنى جملة . .

وفي هذا كله لابد من التلقى عن الله ؛ كالتلقى في الأحكام التشريعية سواء بسواء . . والأمر في الحاكمية - في جانبها المختص بالحكم والقانون - قد يكون الآن مفهوماً بعد الذى سقناه بشأنه من قرارات . والأمر في قواعد الأخلاق والسلوك قد يكون مفهوماً أن يرجع فيها إلى أصول التصور الإسلامى جملة ، وإلى ماورد عنها في كتاب الله وسنة

رسوله مفصلاً . والأمر في القيم والموازن التي تسود المجتمع ، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث ، قد يكون كذلك مفهوماً إلى حد ما . إذ أن القيم السائدة في مجتمع ما ، ترجع مباشرة إلى التصور السائد فيه للوجود ، والعلاقات القائمة بين الوجود وخالقه ، والعلاقات القائمة بين أطراف هذا الوجود ؛ وإلى الأهداف والغايات التي يقرر ذلك التصور أنها أهداف هذا المجتمع ، أو أنها الغاية من الوجود الإنساني جملة . .

وعلى سبيل المثال . . فإن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي هي عبادة الله - أي العبودية له وحده والتخبر من عبادة العباد - ووظيفته هي الخلافة في الأرض عن الله ، واستغلال طاقاتها ومدخراتها وأقواتها ، والتركيب فيها والتحليل ، وتنمية الحياة وترقيتها بالإبداع المادي ، في ظل منهج الله وفي حدوده ؛ ليرتفع الإنسان في الحياة المادية إلى الاستمتاع بزيينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؛ وليرتفع في حياته الروحية المنطلقة من الضغوط المادية . ومقياس التفاضل في الحياة في التصور الإسلامي هو التقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وعلى أساس التقوى تقوم كل الأخلاق الإسلامية وكل قواعد السلوك . فالتقوى تنشأ عن تمثل ألوهية الله وعبودية الإنسان . وتنشئ الشاعر التي يقوم عليها بناء الأخلاق كله . . . وقد تحدثنا من قبل عن هذه المقدمات . ولكننا نذكرها لندل على أن للإسلام قيمة الخاصة . وهي تتلقى من ذات المصدر الذي تتلقى منه العقيدة ، ولاتتلقى من مصدر آخر لأنها من مقتضى العبودية لألوهية الله وحده . . وهي بعض معاني « شريعة الله » في مدلولها الحقيقي ، الذي لا ينحصر في المدلول المتداول لكلمة الشريعة .

ومن ثم فإن أصول الاعتقاد والتصور ، وأصول الأخلاق والسلوك ، وأصول القيم والموازن التي تسود حياة المجتمع - بجملة - لا يتلقاها المسلم من أي مصدر آخر إلا

المصدر الرباني . . . والأمر في هذا التلقى هو أمر العقيدة . فالتلقى من غير الله فيها مناف لأصل الاعتراف بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . . شأنه شأن التلقى في الشرائع القانونية ، الذي أسلفنا حكم الله فيه .

ليست هناك أخلاق زراعية ، وأخلاق صناعية ؛ وليست هناك قيم خاصة بالمجتمع الزراعي ، وقيم خاصة بالمجتمع الصناعي .. ليست هناك أخلاق للمجتمع البرجوازي ، وأخلاق للمجتمع الصعاليك ( البروليتاريا ) . وليست هناك قيم للمجتمع البرجوازي وقيم للمجتمع الصعاليك ... ليست هناك أخلاق رأسمالية وأخلاق اشتراكية . ولا قيم رأسمالية وقيم اشتراكية ... إنما هنالك فقط أخلاق إسلامية وأخلاق جاهلية . وقيم إسلامية وقيم جاهلية .. هنالك قيم وأخلاق تنبثق من تصور : أن هناك ألوهية واحدة ، وعبودية شاملة لكل شيء وكل حي . . . وأخلاق وقيم تنبثق من تعدد الأرباب - في شتى صور الربوبية - وتمزق الضمير البشري وتمزق الحياة البشرية بين الأرباب المتفرقة ! .. هنالك أخلاق وقيم تنبثق من التصور الإسلامي للوجود ، ولعلاقته بخالقه ، ولتركز الإنسان في هذا الوجود ، ولغاية وجوده ووظيفته ، ونوع ارتباطاته وعلاقاته بالكون المادي وبالأحياء وبنى جنسه كذلك ، وعلاقة هؤلاء جميعا بالله . وأخلاق وقيم تنبثق من التصورات الجاهلية في شتى أشكالها وصورها .. والتصورات الجاهلية هي كل ماعد التصور الإسلامي .. وهي السبل المتفرقة التي لا تلتقي بصراط الله الواحد - كما بينه هو في كتابه لا كما يصوره الناس بأهوائهم - ومن ثم لاتصل إلى الله أبدا !

والأوضاع الاجتماعية بجملتها ، والأوضاع السياسية بجملتها ، والأوضاع الاقتصادية بجملتها . . هي فروع عن التصور الاعتقادي ؛ وتطبيق واقعي للقيم المنبثقة من هذا التصور . . ومن ثم فالتلقى فيها كلها لا يجوز أن يكون له مصدر آخر غير مصدر التصور الإسلامي . أو غير مصدر الشريعة الإسلامية - بمذلولها الحقيقي الذي لا ينحصر في



المدلول المتداول لكلمة الشريعة . . والتلقى فيها عن المصدر الرباني وحده ، هو مقتضى الإقرار بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . والشأن فيه شأن التلقى في الأحكام القانونية التي ينحصر فيها مدلول « الشريعة » المتداول ! ويدور حولها معنى « الحاكمة » المتداول كذلك . . والشريعة أشمل نطاقا . والحاكمة أوسع مدى من هذا المدلول المتداول !

على أن هذا كله قد يكون مفهوما - شيئا ما - ولا يكون الحديث فيه هنا مبتدأ ، ولا غريبا على قراء مثل هذه البحوث . وإن كان ينبغي التأكيد على أن الأمر في هذه الشؤون كلها هو أمر العقيدة . فهو يتعلق مباشرة بالإقرار أو عدم الإقرار بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . .

أما الأمر الذي قد يكون غريبا بعض الشيء فهو الرجوع في شأن النشاط الفني ، والنشاط الفكري ، والنشاط العلمي إلى التصور الإسلامي ، وإلى مصدره الرباني . باعتبار أن هذا الشأن متعلق بالعقيدة . ومن مقتضيات الاعتراف بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة !

وفي النشاط الفني صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية . باعتبار أن النشاط الفني كله ، هو تعبير إنساني عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته وتوجهاته . . وهذه كلها يحكمها - بل ينشأها - في النفس المسلمة تصورها الإسلامية بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة ؛ وعلاقتها ببارئ الكون والنفس والحياة . وبصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان . ومركزه في الكون . وغاية وجوده . ووظيفته . وقيم حياته . . وكلها متضمنة في التصور الإسلامي الذي ليس هو مجرد تصور فكري . إنما هو تصور اعتقادي موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث في الكيان الإنساني<sup>(١)</sup> . . وسنتحدث عن هذه المسألة هنا باختصار في الفقرات التالية في هذا الفصل .

---

(١) كتاب « منهج الفن الإسلامي » لمحمد قطب .

فأما قضية النشاط الفكرى والعلمى ، وضرورة هذا النشاط إلى التصور الإسلامى ومصدره الربانى . تحقيقاً للإقرار بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . أى تحقيقاً لإسلام المسلم من ناحية العقيدة . . فهذه هى القضية التى قد تقتضى منا بياناً كاملاً . لأنها قد تكون - بالقياس إلى قراء هذا العصر حتى المسلمين منهم ، الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله لتتحقق صفة الإسلام والإيمان - غريبة أو غير مطروقة !

إن المسلم لا يملك أن يتلقى فى أمر يختص بالعقيدة والتصور العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق ، أو يختص بالقيم والموازن التى تحكم فى المجتمع ، أو يختص بالمبادئ والأصول فى النظام السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة تاريخه إلا من ذلك المصدر الربانى . . ولا يتلقى فى هذا إلا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه ، ومزاولته لعقيدته فى الحياة . .

ولكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة ، كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والصناعة والزراعة وطرق الإدارة - من الناحية الفنية الإدارية البحتة - وطرق العمل من هذه الناحية كذلك ، وطرق الحرب والقتال من هذا الجانب أيضاً ... إلى آخر ما يشبه هذا النشاط . . يملك أن يتلقى فى هذا كله عن المسلم وغير المسلم . . وإن كان الأصل فى المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير الكفايات فى هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية ، يجب أن يتخصص فيها أفراد فتسقط عن الباقين ، وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفاية ولم يوفر لها الجو الذى تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج . . ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى فى هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم ، وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم ، وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم . . لأنها من الشؤون الداخلة فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وهى لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان وغاية وجوده؛

وحقيقة وظيفته ، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله ، وبخالق الوجود كله . ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم حياته أفرادا وجماعات . . ومن ثم فلا خطر فيها على زيغ عقيدته ، وارتداده إلى الجاهلية !

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفرادا ومجتمعات - وهو المتعلق بالنظرة إلى « نفس » الإنسان ، « وحركة تاريخه » ، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ، ونشأة هذه الحياة ، ونشأة هذا الإنسان ، من ناحية ما وراء الطبيعة ( وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وأحياء وطب . . . إلخ ) فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصول التي تنظم حياته ونشاطه . . مرتبطة بالعقيدة . فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم ، يثق في دينه وتقواه ، ويعلم أنه يتلقى في هذا كله عن الله . . والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بأمر عقيدته . وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده . . أى مقتضى إسلامه !

إنه قد يقرأ كل آثار النشاط الجاهلي، ولكن لا يكون منه تصوُّره في هذه الشؤون . إنما يعرف كيف تنحرف الجاهلية ! ويعرف كيف يصحح هذه الانحرافات البشرية بردها إلى مقومات التصور الإسلامي .

إن اتجاهات الفلسفة بجملتها . واتجاهات تفسير التاريخ الإنساني بجملتها . واتجاهات علم النفس بجملتها . ( فيما عدا بعض الملاحظات والملاحظات دون تفسيراتها العامة ) ومباحث الأخلاق بجملتها . واتجاهات دراسة الأديان المقارنة بجملتها . واتجاهات التفسيرات الاجتماعية بجملتها ( فيما عدا الإحصاءات والمعلومات المباشرة . . لا النتائج العامة المستخلصة منها . . ) . .

إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي - غير الإسلامي - قديما وحديثا متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات جاهلية . وقائمة على هذه التصورات . ومعظمها - إن لم تكن

كلها - تتضمن في أصولها المنهجية عداء ظاهرا أو خفيا للتصور الديني جملة ، وللتصور الإسلامي على وجه الخصوص !

والأمر في هذه الألوان من النشاط الفكرى والعلمى ليس كالأمر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب وما إليها . . مادامت في حدود التجربة الواقعية ، وتسجيل النتائج الواقعية . دون مجاوزتها إلى التفسير الفلسفى فى صورة من صورهِ . وذلك كتجاوز « الدارونية » مثلا لجال إثبات المشاهدات وترتيبها فى علم الأحياء إلى مجال القول - بدون دليل وبدون حاجة للقول كذلك إلا الرغبة والهوى - إنه لاضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعى لتفسير نشأة الحياة وتطورها !

إن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون كلها فى المستوى الذى تبدو فيه محاولات البشر فى هذه المجالات هزيلة مضحكة . فضلا على أن الأمر كله يتعلق تعلقا مباشرا بالعقيدة : عقيدة الألوهية الواحدة والعبودية الشاملة . قاعدة هذا التصور وحقيقته الكبرى ..

إن حكاية أن الثقافة تراث « إنسانى » لاوطن له ولا جنس ولا دين . . . هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - دون تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية لنتائج هذه العلوم - ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه ، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعا . ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصائد اليهودية العالمية التى يهملها جميع الحواجز كلها - بما فى ذلك بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور - لكى ينفذ منها اليهود إلى جنس العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، ثم تزاوّل اليهودية فيه نشاطها الشيطانى . وفى أوله نشاطها الربوى . الذى ينتهى إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود !!!

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك نوعين اثنين من الثقافة - فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - الثقافة الإسلامية ، القائمة على قاعدة التصور الإسلامى . والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى كلها ترجع إلى قاعدة واحدة . قاعدة إقامة الفكر البشرى إلهاً ، لا يرجع إلى الله فى ميزانه . . والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكرى والواقعى الإنسانى ؛ وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائماً .

ويكفى أن نعلم أن الاتجاه التجريبي ، الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة ، قد نشأ ابتداءً فى الجامعات الإسلامية ، مستمداً أصوله من التصور الإسلامى وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ومدخراته وأقواته . ثم استقلت النهضة فى أوروبا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه ؛ بينما ركذ وترك نهائياً فى العالم الإسلامى . . بسبب بعد هذا العالم تدريجياً - بفعل عوامل كامنة فى محيطه وبفعل الكيد والهجوم الصهيونى والصليبي عليه من خارجه - عن عقيدته وتصوره ومنهجه الأساسى . . ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية ، وشردت به نهائياً بعيداً عن الله ؛ فى أثناء شرودها عن الكنيسة التى تستطيل على الناس - بغيا وعدوا - باسم الله !

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوروبى بمجملته - شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلى فى جميع الأزمان فى جميع البقاع - شيئاً آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامى . ووجب أن يرجع المسلم إلى مقومات تصوره وحدها . وألا يأخذ إلا من المصدر الربانى إن استطاع بنفسه ، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقى ، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه .

إن حكاية فصل « العلم » عن صاحبه ، لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم

المتعلقة بمقومات التصور ، المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنساني والأوضاع والقيم والموازن والتقاليد والعادات ، وسائر ما يتعلق بحياة الكائن الإنساني من هذه النواحي . .

إن الإسلام يتسامح أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقى من المسلمين في علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك . أو الطب أو الصناعة أو الزراعة . أو الأعمال الإدارية أو الكتابية . . وذلك في الحالات التي لا يجد فيها مسلماً تقياً يأخذ عنه في هذا كله - كما هو واقعنا اليوم الناشئ من بعدنا عن ديننا ونهجنا وتصورنا لمقتضيات الخلافة في الأرض - بإذن الله - وما يلزم لهذه الخلافة من هذه العلوم والمهارات المختلفة !

ولكنه لا يتسامح أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره . ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه . ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه . ولا مذهب مجتمعه . ولا نظام حكمه ولا منهج سياسته . ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره . . . من مصادر غير إسلامية . ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه .

إن الذي يقول هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع ، في معظم حقول المعرفة الإنسانية . ما هو من تخصصه وما هو من هواياته الثقافية . . ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره ، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك - وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . وإنما عرف الجاهلية على حقيقتها . وعلى انحرافها وعلى ضآلتها وعلى قزامتها . . وعلى جمعيتها وانتفاشها . وعلى غرورها وادعائها كذلك ! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقى !!!

ومع ذلك فليس الذى سبق فى هذه الفقرة رأياً الى أبديته .. فالأمر أكبر من أن يُفتى فيه بالرأى، وأثقل فى ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأى .. إنما هو قول الله - سبحانه - وقول نبيه - صلى الله عليه وسلم - نحكمه فى هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله وإلى الرسول فيما اختلفوا فيه . إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر :

يقول الله سبحانه عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة :

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .. ( البقرة : ١٠٩ )

« وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى . وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .. ( البقرة : ١٢٠ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » .. ( آل عمران : ١٠٠ )

وحين يتحدد الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين على هذا النحو القاطع، يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون فى أى مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية أو التاريخ الإسلامى، أو التوجيه فى نظام المجتمع المسلم أو فى سياسته أو اقتصاده إلى خير أو إلى هدى أو إلى نور ... والذين يظنون ذلك فيما عندهؤلاء الناس بعد بيان الله سبحانه إنما هم الغافلون !

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى » المصدر

الوحيد الذى يجب على المسلم الرجوع إليه فى هذه الشئون . فليس وراء هدى الله إلا الضلال . وليس فى غيره هدى ، كما تفيد صيغة القصر الواردة فى النص : « قل : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى » . . . ولا سبيل إلى الشك فى مدلول هذا النص ولا إلى تأويله كذلك !

كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عن يتولى عن ذكر الله ، ويقصر اهتمامه على شئون الحياة الدنيا ؛ وينص كذلك على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظنا ، والمسلم منهى عن اتباع الظن . وأنه لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فهو لا يعلم علما صحيحا :

« فَأَعْرِضْ عَنْ مَّا تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى » . . . ( النجم : ١٩ - ٢٠ )

« . . . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » . . . ( الروم : ٧ )

والذى يغفل عن هدى الله ولا يريد إلا الحياة الدنيا - وهو شأن جميع « العلماء » اليوم ! - لا يعلم إلا هذا الظاهر . وليس هذا هو العلم الذى يثق المسلم فى صاحبه فيتلقى عنه فى كل شأنه . إنما يجوز أن يتلقى عنه فى حدود علمه للمادى البحت . ولا يتلقى منه تفسيراً ولا تأويلاً عاماً للحياة أو متعلقاتها التصورية .. كما أنه ليس هو العلم الذى تشير إليه الآيات القرآنية ، وتثنى على أهله . فأى علم لا يودى إلى الاهتداء إلى الله ؛ ولا يقوم على إدراك فضل الله فى تعليم الإنسان ما لم يعلم ؛ وفى منحه ابتداء القدرة على الإدراك ؛ وفى تسخير النوااميس الطبيعية له .. أى علم لا يقوم على هذه الأسس هو علم ضال مضل ؛ وليس هو العلم الذى تقصده الآيات القرآنية وتثنى عليه .. كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها فى غير مواضعها !



إن العلم - بطبيعة الحال - ليس مقصوراً على علم العقيدة ، وعلم الفرائض الدينية .. فالعلم يشمل كل شيء ، ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض على السواء .. ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ويثني على أهله .. إن هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك ، وعلم الأحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الطب ، وسائر هذه العلوم المتعلقة بالنواميس الطبيعية والقوانين الحيوية .. إنها كلها تؤدي إلى الله ؛ حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله .. كما اتجه المنهج الأوربي في النهضة العلمية - مع الأسف - بسبب الملبسات النكدة التي قامت في التاريخ الأوربي خاصة ، بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الفاشمة ؛ ثم ترك آثاره العميقة في مناهج الفكر الأوربي كلها ، وفي طبيعة التفكير الأوربي . وترك الرواسب السامة بالعداء لأصل التصور الديني جملة - لأصل التصور الكنسي وحده ولالكنيسة وحدها - في كل ما أنتجه الفكر الأوربي في كل حقل من حقول المعرفة . سواء كانت فلسفية ميتافيزيقية ، أو كانت بحوثاً علمية بحتة لا علاقة لها - في الظاهر - بالموضوع الديني !

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي وتنتج هذا الفكر في كل حقول المعرفة ، يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب السامة بالعداء لأصل التصور الديني جملة .. فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداءاً للتصور الإسلامي خاصة ؛ لأنه يعتمد هذا بصفة خاصة ؛ ويتحرى - في حالات كثيرة - وفي خطة متعمدة ، تجميع العقيدة والتصور والمفاهيم الإسلامية ؛ ثم تحطيم الأسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته .. ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي وعلى نتاجه كذلك في الدراسات الإسلامية .. ومن ثم تجب الحيلة كذلك في دراسة العلوم البحتة - التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقيها من المصادر الغربية - من أية ظلال فلسفية تتعلق بها . لأن هذه الظلال

معادية في أساسها للتصور الديني جملة ، وللتصور الإسلامي بصفة خاصة . وأى قدر منها يكفى لتسميم ينبوع الإسلامى الصافى ..

وسنحاول فيما يلى أن نقول كلمة مفصلة عن الأدب والتاريخ بوجه خاص ، وكيف تدرس هذه الجوانب دراسة مأمونة لتنشئة « المسلم » وتنقية ضميره من شوائب الجاهلية التى تغمر وجه الأرض جميعا .

إن الأدب هو التفسير الشعورى للحياة . وهو منبعث من المنبع الذى تصب فيه جميع الفلسفات والديانات والتجارب والمؤثرات فى بيئة من البيئات .

ولقد يكون الأدب أشد المؤثرات فى تكوين فكرة وجدانية عن الحياة ، وفى طبع النفس البشرية بطابع خاص . ومن هنا يجب أن يكون لنا أدب نابع من التصور الإسلامى . ولعله يحسن أن نقول هنا كلمة مفصلة عن منهج الأدب الإسلامى :

الأدب - كسائر الفنون - تعبير موح عن قيم حية يفعل بها ضمير الفنان . هذه القيم قد تختلف من نفس إلى نفس ، ومن بيئة إلى بيئة . ومن عصر إلى عصر ، ولكنها فى كل حال تنبثق من تصور معين للحياة ، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون ، وبين بعض الإنسان وبعض .

ومن العبث أن نحاول تجريد الأدب أو الفنون عامة من القيم التى يحاول التعبير عنها مباشرة ، أو التعبير عن وقعها فى الحس الإنسانى . فإننا لو أفلقنا - وهذا متعذر - فى تجريدها من هذه القيم ، لن نجد بين أيدينا سوى عبارات خاوية ، أو خطوط جوفاء ، أو أصوات غفل ، أو كتل صماء .

كذلك من العبث محاولة فصل تلك القيم عن التصور الكلى للوجود والحياة ، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون والأحياء والأحداث ، وبين بعض الإنسان وبعض . ويستوى أن يشعر الإنسان بأن له تصورا خاصا للحياة أو لا يشعر ، لأن هذا قائم فى نفسه على كل

حال ، وهو الذى يحدد قيم الحياة فى نظره ، ويلون تأثيراته بهذه القيم . . . .  
والإسلام تصور معين للحياة ، تنبثق منه قيم خاصة لها . فمن الطبيعى إذن أن يكون  
التعبير عن هذه القيم ، أو عن وقعها فى نفس الفنان ، ذا لون خاص .  
وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة ، تملأ فراغ النفس  
والحياة ، وتستنفد الطاقة البشرية فى الشعور والعمل ، وفى الوجدان والحركة ، فلا تبقى فيها  
فراغا للقلق والحيرة ، ولا للتأمل الضائع الذى لا ينشئ سوى الصور والتأملات .  
وأبرز ما فيه هو الواقعية العملية حتى فى مجال التأملات والأشواق . فكل تأمل هو  
إدراك أو محاولة لإدراك طبيعة العلاقات الكونية أو الإنسانية ، وتوكيد للصلة بين الخالق  
والخلق ، أو بين مفردات هذا الوجود . وكل شوق هو دفعة لإنشاء هدف ، أو لتحقيق  
هدف ، مهما علا واستطال .  
وقد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها ، لا للرضى بواقعها فى زمان ما أو فى مكان  
ما . ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكوابح ، ومن نزعات وقيود ، سواء فى فترة خاصة ،  
أو فى المدى الطويل .  
مهمة الإسلام دائما أن يدفع بالحياة إلى التجدد والنمو والترقى ، وأن يدفع بالطاقات  
البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع .  
ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة ، قد لا يحفل كثيرا  
بتصوير لحظات الضعف البشرى ، ولا يتوسع فى عرضها ، وبطبيعة الحال لا يحاول أن  
يبررها ، فضلا على أن يزيناها بحجة أن هذا الضعف واقع ، فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه .  
إن الإسلام لا ينكر أن فى البشرية ضعفا ، ولكنه يدرك كذلك أن فى البشرية قوة .  
ويدرك أن مهمته هى تغليب القوة على الضعف ، ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها ،  
لا تبرير ضعفها أو تزيينه .

والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة قد يلم أحيانا بلحظات الضعف البشرى ، ولكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من وهدة هذه اللحظات ، وإطلاقها من عقال الضرورة وضغطها . وهو لا يصنع هذا متأثراً بالمعنى الضيق لمفهوم «الأخلاق» . إنما يصنعه متأثراً بطبيعة التصور الإسلامى للحياة ، وبطبيعة الإسلام ذاته فى تجديد الحياة وترقيتها ، وعدم الاكتفاء بواقعها فى لحظة أو فترة .

والنظرة الإسلامية لا تؤمن بسلبية الإنسان فى هذه الأرض ، ولا بضالة الدور الذى يؤديه فى تجديد الحياة وترقيتها . ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى لا يهتف للكائن البشرى بضعفه ونقصه وهبوطه ؛ ولا يملأ فراغ مشاعره وحياته بأطياف اللذائذ الحسية ، أو بالتشهى الذى لا يخلق إلا القلق والحيرة والحسد والسلبية . إنما يهتف لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء والطلاقة ، ويملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التى تجدد الحياة وترقيها . سواء فى ضمير الفرد أو فى واقع الجماعة .

وليست الخطب الوعظية هى سبيل الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى ، فهذه وسيلة بدائية وليست عملاً فنياً بطبيعة الحال .

كذلك ليست وظيفة هذا الأدب أو الفن هى تزوير الشخصية الإنسانية أو الواقع الحيوى ، وإبراز الحياة البشرية فى صورة مثالية لا وجود لها . إنما هو الصدق فى تصوير المقدرات الكامنة أو الظاهرة فى الإنسان . والصدق كذلك فى تصوير أهداف الحياة اللائقة بعالم من البشر ، لا بقطيع من الذئاب !

الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى أدب أو فن موجه ، بحكم أن الإسلام حركة تجديد وترقية مستمرة للحياة ، فهو لا يرضى بالواقع فى لحظة أو جيل ، ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع . فمهمته الرئيسية هى تغيير هذا الواقع وتحسينه ، والإيحاء الدائم بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة .

وقد يلتقى في هذا مع الأدب أو الفن الموجه بالتفسير المادى للتاريخ . يلتقى معه لحظة واحدة ثم يفترقان . .

فالصراع الطبقي هو محور الحركة التطويرية في ذلك الفن . أما الإسلام فلا يعطى الصراع الطبقي كل هذه الأهمية، لأن نظرتة إلى أهداف البشرية أوسع وأرقى . إنه لا يرضى بالظلم الاجتماعى ولا يقره ، ولا يهتف للناس بالرضى به أو التذاذه! وهو يعمل - فيما يعمل - لمكافحته وتبديله . ولكنه لا يقيم حركته على الحق الطبقي ، بل على الرغبة في تكريم الإنسان ورفع عن درك الخضوع للحاجة والضرورة ، وإطلاق إنسانيته المبدعة من الانحصار في الطعام والشراب وجوعات الجسد على كل حال .

فال محور الذى تدور عليه حركة النمو والتجدد في المنهج الإسلامى هو ترقية البشرية كلها، ودفعها إلى الانطلاق والارتفاع ، وإلى الخلق والإبداع . وفي الطريق يلم بآلام الطبقات وقيودها ، ليحطم هذه القيود ، ويزيل تلك الآلام .

إنه لا يحقر آلام البشر ، ولكنه لا يستخدم الحق الطبقي لإزالتها ، لاعتباره أن الحق ذاته قيد يحول دون انطلاق البشرية إلى آفاق أعلى !

أما كيف يعالج هذه الآلام علاجاً واقعياً عملياً ، لا وعظياً ولا خيالياً ، فقد تحدثنا عنه في غير هذا الموضع . إنما المهم أن نقرر هنا أن الأدب أو الفن الإسلامى أدب أو فن موجه . موجه بطبيعة التصور الإسلامى للحياة وارتباطات الكائن البشرى فيها ، وموجه بطبيعة المنهج الإسلامى ذاته ، وهى طبيعة حركية دافعة للإشياء والإبداع ، وللترقى والارتفاع . ولست أعنى التوجيه الإجبارى على نحو ما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادى للتاريخ ، إنما أعنى أن تكيف النفس البشرية بالتصور الإسلامى للحياة ، هو وحده سيلهمها صورا من الفنون غير التى يلهمها إياها التصور المادى ، أو أى تصور آخر ، لأن التعبير الفنى لا يخرج عن كونه تعبيراً عن النفس كتعبيرها بالسلوك في واقع الحياة .

وأخيراً فإن الإسلام لا يحارب الفنون ذاتها ، ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التي تعبر عنها هذه الفنون . ويقيم مكانها - في عالم النفس - تصورات وقيم أخرى ، قادرة على الإيجاء بتصورات جمالية إبداعية ، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالا وطلاقة ، تنبثق انبثاقا ذاتيا من طبيعة التصور الإسلامى ، وتتكيف بخصائصه المميزة .

ولا ينبغي أن يفهم من هذا تحريم الآداب الأوربية على الناشئة المسلمة . فالذى نعنيه هو مجرد الاختيار والانتقاء . ففي هذه الآداب ما تلتم روحه من بعض الجوانب مع الروح الإسلامية . لأنه حث على الفضائل وتقبيح للرذائل ؛ فالأدب ليس منبرا خطايا للوعظ والإرشاد . ولكن لأنه ينظر إلى الحياة نظرة روحية أرفع من المادة ؛ ولأنه يعترف بالقيم المعنوية للحياة . فهذا اللون من الأدب يتفق في روحه مع المنهج الإسلامى فى عمومته . وتمكن دراسته مع حسن الاختيار .

\*\*\*

والتاريخ فرع من الأدب ، ولكنه ذو طبيعة خاصة ، وذو خطورة كذلك . فالتاريخ تفسير لوقائع الحياة ، ولا بد أن يتأثر بالفلسفة والتصور العام للحياة . وستؤدى تفسيراته على هذا النحو إلى تكوين صورة عن الحياة تختلف اختلافا رئيسيا عن التصور الإسلامى لاتجاه الحياة والتاريخ .

وفوق ذلك فإن المؤرخين - لأنهم أوروبيون فى الغالب - جعلوا محور التاريخ العالمى هو تاريخ أوربا . وهم فى هذا معذورون بحكم الفطرة البشرية . وذلك إذا أغضينا عن الأثرة الغربية والغرور الأوروبى . فدراسة ناشئتنا لتاريخ ، تلك روحه وهذه طريقته ، يجعلهم يخرجون بفكرتين باطلتين :

الأولى : أنه لا أثر للعوامل الروحية فى سير خط الزمن ، وأن هذا الأثر ضعيف ضئيل .

والثانية : أن أوربا هي محرك خط الزمن ، وأن الإسلام بالذات ليس له إلا أثر ضئيل ضعيف .

وأثر كل من هاتين الفكرتين مؤذ وخطير ، سواء في تكوين فكرة عامة عن الحياة والخلق والسلوك ، أو في الشعور بالعزة الإسلامية أمام التيار الأوربي الجارف .

يجب أن نأخذ في وضع تاريخ عالمي عام ، من وجهة النظر الإسلامية ، في تفسير الحوادث والوقائع ، فلا تنفرد طريقة النظر الأوربية بهذا العمل الخطير . على أن نضع أوربا في هذا التاريخ في موضعها الحقيقي لا تتجاوز به ، وعلى أن نبرز دور البشرية بصفة عامة ، ودور الإسلام بصفة خاصة في خط سير التاريخ .

إن التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجرثيمات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسر ها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : معنوية ومادية . وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقعها في مداركه ، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تخرج وتمحيص ونقد .

وعلى ذلك فإن التاريخ الإسلامي يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر . يجب أن ينظر إلى الحياة الإسلامية من زاوية جديدة ، وتحت أضواء جديدة ، لكي تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها ، وتنكشف بكل عناصرها ومقوماتها .

وفي هذه الدراسة الجديدة يجب أن تكون المصادر الإسلامية هي المرجع الأول ،

بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه في جو الإسلام كعقيدة وحركة وفكرة ونظام . وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية . وهذه الحياة في هذا الجو ضرورية جداً لتفتح نوافذ إدراكه جميعاً ، لالفهم تلك الحياة فحسب ، بل لإدراكها ككائن حي ، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع في جسم هذا الكائن الحي .

ولأنه ليعز على الباحث في أية فترة من حياة الإنسانية أن يدركها إدراكاً حقيقياً داخلها إلا أن يتجاوب معها بكل ذاتيته ، وأن يعيش في جوها بكامل مؤثراتها وإيحائها . فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية ؛ وإن كانت أكثر وضوحاً بالقياس إلى الحياة الإسلامية ، لأن مقومات هذه الحياة تختلف في كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات الفترة الحاضرة .

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل للعقيدة الإسلامية ، وللتصور الإسلامي عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك العقيدة . وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب إلا عند باحث مسلم ، يعيش في حركة إسلامية ؛ وهي الخصائص التي لا بد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامي .

إنه لا بد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس في خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية ، وعلاقة هذه البواعث بالحوادث ، والتطورات ، والانقلابات . ولا بد من ربط هذا كله بطبيعة العقيدة الإسلامية وما فيها من روح ثورية - لاني شكلها الخارجي وخطواتها العملية فحسب - ولكن في تفسيرها للعلاقات الكونية ، والعلاقات الإنسانية ، والعلاقات الاجتماعية . وفي تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع ووسائل التنفيذ . . الخ . وهي كلها من مقومات الحياة ، وبالتالي من مقومات التاريخ لهذه الحياة .



إن الممارك الحربية ، والمعاهدات السياسية ، والاحتكاكات الدولية .. وما إليها مما  
يعنى به التاريخ غالباً أكثر من سواه .. إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هي التي يجب  
أن تبرز عند كتابة التاريخ .. هذه العوامل هي التي يختلف الباحثون في إدراكها وتقديرها :  
كل يخضع للفلسفة التي تسيطر على تفكيره وتقديره ، أي لطريقة إدراكه للحياة في  
عصرها . وللباحث المسلم الذي يعيش في حركة إسلامية ، المزية هنا في دراسة الحياة  
الإسلامية ، لأن طريقة إدراكه للحياة تمت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة في سير  
التاريخ . ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها ، والاستجابة لها استجابة  
كاملة صحيحة .

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها ، يستطيع  
أن يزن دوافع الحياة الإسلامية في تلك الفترة التاريخية ، والقيم الإنسانية الكامنة فيها ،  
وأسباب النصر والهزيمة في كل خطوة . وأن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات  
الإنسانية في مهد الإسلام الأول وفي البلاد التي انساح فيها ، فيضم إلى الجوانب الظاهرة  
التي لا يدرك الغريبيون سواها في الغالب ، كل الجوانب الروحية الخفية التي يعدها الإسلام  
واقعا من الواقع ، ويحسب لها حسابها في سير الزمان وتشكل الحياة في كل زمان ومكان .

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية ، والمسلمون جماعة من بني  
الإنسان في حيز من الزمان والمكان ، والإسلام رسالة كونية بشرية غير محدودة بالزمان  
والمكان .. فإن التاريخ الإسلامي لا يمكن فصله من التاريخ الإنساني .

وقد تأثرت تلك الفترة - من غير شك - بمواجهة الإسلام فيها للجاهلية ، والتعامل  
مع تلك العوامل التي كانت واقعة عند مولد الإسلام . ثم أثرت بدورها في تجارب البشرية  
من بعد ، وبخاصة تلك الجهات التي امتدت إليها أو جاورتها . فلا بد إذن عند كتابة

التاريخ الإسلامى من الإمام بالصورة التى انتهت إليها الإنسانية قبل مولد الإسلام ،  
والحالة التى صارت إليها المجتمعات البشرية فى الأرض ، وبخاصة من ناحية العقائد الدينية  
وسائر ما يتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات ، ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية  
وما يتعلق بها من نظم الحكم وسياسة المال وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار ،  
كى تتبين على ضوءها حقيقة دور الإسلام وطبيعته ، ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا  
النظام الجديد قبولاً أو رفضاً ، وتصور أسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ،  
وعناصر التفاعل والتدافع والتلاقى والانعكاس على مر الأيام .

وإذا كان الإمام بوضع العالم إذ ذاك ضرورياً ، فإن الإمام بوضع الجزيرة العربية  
وتصور الحياة فيها من كافة نواحيها أكثر ضرورة بوصفها مهد الإسلام الأول من جهة ،  
ومركز التجمع والانسحاق من جهة أخرى .

فهل كانت مصادفة عابرة أن يظهر هذا الرسول بهذا الدين فى هذا الموضع من الأرض  
فى هذا الزمان ؟ أم أن هنالك نظاماً مقدوراً ، وقصداً مقصوداً ، وتديراً معيناً ، وترتيباً  
موضوعاً ، لتلتقى هذه الظواهر كلها حيث التقت ، كى تؤدى دوراً معيناً ، ليس أقل نتائجه  
تخطيط خريطة العالم فى عالم الظاهر وفى عالم الشعور على هذا الوضع الذى صارت إليه  
الأمر ، منذ ذلك التاريخ البعيد ؟ !

ولعل هذا الخاطر أن يسوق إلى دراسة « محمد الرسول » فى هذا السياق الكونى  
للتاريخ . فلعل فى شخصه ، وفى نسبه ، وفى بيئة حياته ، وفى تقاليد بيئته . . وفى سائر  
ما يحيط بالفرد الإنسانى من مقومات ، عوامل مقصودة ، ومواقفات مدبرة ؛ وأنما لم  
تكن مصادفة عابرة أن يشار إليه من بين الجموع البشرية الحاشدة ، وأن يقال له : أنت .  
فانتدب لهذا الحدث الكونى الذى لم يسبق ولم يلحق بنظير .

ولعله كذلك أن يسوق إلى دراسة طبيعة هذا الحدث ، والفكرة الكلية التي يتضمنها ، قبل البدء في دراسة الأحداث والانقلابات العالمية التي تمت على أساسها . .

وبذلك تهيأ لمثل هذا التاريخ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التي نشأت عنها الاستجابات التي وقعت بالفعل في تاريخ الإسلام في الفترة التي تلت ظهوره ، كما يتهيأ له تفسير هذه الاستجابات تفسيراً صحيحاً ، مستكملاً لكل عناصر الحكم والتقدير .

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجارب في ضمائر الأشياء والأشخاص ، والأزمان والأحداث . ويتصل بناموس الكون ، ومدارج البشرية ، ويصبح كائناً حياً ، ومادة حياة .

ومتى استقام البحث على ذلك المنهج الذي أسلفنا ، وبرزت تلك المقومات الأساسية لطبيعة الدعوة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة البيئة التي استقبلت الدعوة واستقبلت الرسول ، وطبيعة المجتمع الإنساني الذي كان يعاصر مولد الإسلام ؛ وطبيعة العقائد والأفكار التي كانت تسوده يومذاك . .

متى برزت تلك المقومات الأساسية ، سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصورتها ، وأمكن تصوير وتصوير خطوات الدعوة على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الخطوات التي تسير متأثرة بتلك المقومات كلها ؛ وتفاعل بعضها مع بعض ، وتيسر لنا وللناس في هذا الجيل أن نعرف كيف اختار الرسول رجاله ، ومن أية طينة كان هؤلاء الرجال ؛ وكيف صاغ الرسول رجاله ، وكيف أعدهم للمهمة العظمى ؛ وكيف بنى الرسول نظامه ، وعلى أي الأسس قام هذا النظام ؛ وكيف تحولت الجزيرة العربية مهداً لهذا الدين الجديد ، أو لهذا النظام الجديد ؛ وماذا كان في طبيعتها وفي ظروفها وفي رجالها وبيوتها وعشائرها ،

وفي علاقاتها الاجتماعية ، وملابسها الاقتصادية والجغرافية والحيوية . . من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته . . إلى آخر هذه المباحث التي تصور المرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، أو من تاريخ الإسلام ، والتي تصح تسميتها باسم : « الإسلام على عهد الرسول » . .

ثم تجيء المرحلة الثانية : مرحلة « المد الإسلامي » . ذلك عندما انساح الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . عندما فاض ذلك الفيض الانفجاري العجيب الذي لم يعرف له العالم نظيراً في سرعته وقوته . لا من ناحية الفتح العسكري وحده ، ولكن من ناحية التأثير الروحي والفكري والاجتماعي أيضاً . أى من الناحية الإنسانية الشاملة ، التي شهدت تحولاً كاملاً في خط سير التاريخ على مولد هذا الدين الجديد ، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب !

وهنا تبدو قيمة المنهج الذي أشرنا إليه ، ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء ، التي قام بها الإسلام في تلك الرقعة الفسيحة التي امتد إليها ، وتفاعله مع الأفكار والعقائد التي كانت سائدة فيها ، ومع النظم الاجتماعية التي كانت تظللها ، ومع الظروف الاقتصادية ، والمخلفات التاريخية ، والملابس الإنسانية ، في أخصب بقاع الأرض ، وأكثرها حضارة في ذلك الزمان .

والمد الإسلامي لم يقف عند الحدود التي وصلت إليها فتوحاته العسكرية . فلقد امتدت الموجة الفكرية ، والحضارة التي كونها إلى ما وراء حدود العالم الإسلامي قطعاً . ولابد من دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود . دراستها طرداً وعكساً في حياة العالم الإسلامي ذاته ، وفي حياة العالم غير الإسلامي كله . فقد أخذ هذا العالم من الإسلام وأعطى ، وقد تأثر به وأثر فيه . ودراسة هذه التفاعلات في ضوء المنهج الذي صورنا خصائصه ، كفيلة بأن تنشئ صورة من التاريخ غير مسبقة ، ذات حيوية خاصة ، وذات طابع خاص ؛ بل كفيلة بأن

تتشى صورة للعالم الإنسانى وخطواته الحية مختلفة قليلا أو كثيرا عن الصورة التى اعتاد الغربيون أن يرسموها ، والتى اعتدنا نحن أن نراها !

ثم يحىء دور « انحسار المد الإسلامى » . وعلى ضوء المنهج وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الداخلية والخارجية جميعاً : إن كانت هذه العوامل من طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى كما يزعم من يلقون الشبهات على الإسلام ، أو أنها من صنع المسلمين أنفسهم ، ومن صنع أعداء هذا الدين فى العالم غير الإسلامى ؟ ثم هل كان هذا الانحسار شاملاً أم جزئياً ؟ وسطحياً أم عميقاً ؟ وما أثر هذا الانحسار فى خط سير التاريخ ، وفى تكييفه أحوال البشر ، وفى قواعد التفكير والسلوك ، وفى العلاقات الدولية والإنسانية ؟ وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها فى الإسلام ؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامى وظهور هذا المد الأوربى الذى ما تزال تظللنا ببقاياه ؟ ومن ثم يصبح الحديث عن « حاضر الإسلام » طبيعياً وفى أوانه ، قائماً على أسسه الواضحة الصريحة ؛ وليس حديثاً تمليه العاطفة أو التعصب من هذا الجانب أو ذاك ، ويصبح التاريخ الإنسانى فى ضوء منهجنا الخاص - مسلسل الحلقات ، متشابك الأواصر ، ويتحدد دور الإسلام فى هذا التاريخ فى الماضى وفى الحاضر ، وتبين خطوطه فى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر .

\*\*\*

هذه إشارات مجملة للعمل فى الدائرة الفكرية للتمهيد للوجود الفعلى للإسلام . ولكن شيئاً من هذا كله لن يكون ذا قيمة قبل أن تدرك العصبية المؤمنة فى الأرض أن هذا الدين عقيدة تتمثل فى أفراد الله سبحانه بالألوهية ، ومن ثم أفرادها بالحاكية . و « دين » يتمثل فى نظام يترجم هذه العقيدة .. وأن تدرك كذلك أن هناك توقفاً فى « وجود » الإسلام . وأن الخطوة الأولى هى إعادة وجود الإسلام عقيدة ، ليكن بعد ذلك وجوده نظاماً . وأن يستيقنوا أن المستقبل لهذا الدين ؛ على الرغم من هذا التوقف الموقوت . والله المستعان .

## في مفترق الطرق

والآن فإلى أين نحن نسير ؟

يجب أن نقف لحظة لنسأل أنفسنا هذا السؤال ؛ ولنوجه حياتنا في الاتجاه الذي نريد .  
إن العالم بعد حربين متواليتين ينقسم اليوم إلى كتلتين كبيرتين : كتلة الشيوعية في الشرق ، وكتلة الرأسمالية في الغرب . . هذا ما يبدو في ظاهر الأمر ، وما تلوكه الألسن ، ويقر في الأذهان . . فأما نحن فنعتقد أنه انقسام ظاهري لا حقيقي ؛ وأنه انقسام على المصالح لا على المبادئ ؛ وأنه صراع على السلع والأسواق لا على العقائد والأفكار .  
فطبيعة التفكير الأوربي الأمريكي لا تفترق في حقيقتها عن طبيعة التفكير الروسي .  
كلتاها تقوم على تحكيم الفكرة المادية في الحياة ، وإذا كانت روسيا والصين وما إليها قد صارت شيوعية مادية فإن أوروبا وأمريكا لا تفترقان عنها في التصور المادي للحياة والتاريخ !  
فليس وراء التفكير المادي الذي يسود الغرب ، ويرد الأخلاق إلى المفعة ، ويدعو إلى التناحر على الأسواق والمصالح . . ليس وراء هذا التفكير الذي ينفي العنصر الروحي من الحياة ؛ وينفي الإيمان بغير العمل والتجربة ؛ ويحتقر المثل العليا المجردة ؛ وينكر وجود حقائق للأشياء إلا وظيفتها - على نحو ما تصنع فلسفة البراجما تزم - ليس وراء هذا التفكير إلا المادية الماركسية في صورة أخرى !

إنه لا يوجد اختلاف في طبيعة التفكير الأمريكي والروسي ، ولكن توجد اختلافات في الظروف الاقتصادية والاجتماعية . والذي يمسك الأمريكي العادي أن يكون شيوعياً ليس فكرة عن الحياة ترفض التفسير المادي للكون والحياة والتاريخ ، بل لأن الفرصة مهيأة أمامه ليصبح ثرياً ، ولأن أجر العامل مرتفع كذلك .

فلا يخدعنا أن نرى الصراع قوياً وعنيفاً بين كتلتى الشرق والغرب : فكلتاها لا تملك إلا فكرة مادية عن الحياة ، وكلتاها قريبة فى طبيعة تفكيرها من الأخرى ، وكلتاها لا تتنازعان على مبدأ أو فكرة ، إنماتنازعان النفوذ فى العالم ، والربح فى الأسواق ! ونحن هذه الأسواق !

أما الصراع الحقيقى العميق ، فهو بين الإسلام وبين الكتلتين الغربية والشرقية جميعاً . فالإسلام هو القوة الحقيقية التى تقف لقوة الفكرة المادية التى تدين بها أوربا وأمريكا وروسيا والصين على السواء . الإسلام هو الذى يتضمن التصور الكلى الشامل المتناسق عن الوجود والحياة ؛ ويقيم التكافل الاجتماعى فى المحيط الإنسانى مقام الصراع والتطاحن ؛ ويجعل للحياة قاعدة روحية تصلها بالخالق فى السماء ؛ وتسيطر على اتجاهها فى الأرض ؛ ولا تنتهى بالحياة إلى تحقيق أغراض مادية بحتة ، وإن كان النشاط المادى المثمر عبادة من عبادات الإسلام .

وحقيقة إن الأديان الروحية - وفى مقدمتها المسيحية - تنكر المادية الأوربية الأمريكية ، كما تنكر المادية الشيوعية ، لأنهما من طبيعة واحدة تتعارض مع الفكرة الروحية فى الحياة . ولكن المسيحية - فيما أرى - لا تحسب قوة إيجابية فى مواجهة الأفكار المادية الجديدة ؛ فقد انتهت إلى أن تكون ديانة فردية انعزالية سلبية ؛ لا تملك الحياة أن تنمو فى ظلها النمو الدائم الفعال . ولقد عجزت عن مسيرة الحياة العملية فى الأجيال المتلاحقة ، ولم تسيطر على الحياة الواقعة ، لأنها - كما صنعتها الكنيسة والمجامع المقدسة - بعيدة عن واقعيات الحياة .

والمسيحية كما انتهت إليه لا تستطيع أن تجارى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية الدائمة التغير ؛ لأنه ليس فى صميمها أية فكرة عن الحياة الواقعة العملية . فأما الإسلام فهو نظام كونى كامل ؛ فيه العقيدة ، وفيه التشريع ، وفيه التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الخاضع للوجدان والتشريع ، القابل للنمو فى الفروع والتطبيقات .

وهو يقدم للبشرية تصورا كاملا شاملا عن الوجود والحياة، ونظاما عمليا واقعيا للمجتمع،  
وشريعة مفصلة وقابلة للنمو التفرعي الذي يقابل حاجات المجتمع المتجددة .  
وهو يقيم نظامه على أساس تصور شامل عن الحياة يرفض التفكير المادى ، و يقيم  
السلوك على أساس العنصر الروحى الأخلاقى ، فيرفض فكرة المنفعة القربية . وبذلك  
يصطدم اصطداما مباشرا بالعقلية المادية السائدة فى الكتلتين الشرقية والغربية ؛ ويرفع  
الحياة إلى أفق أعلى من تلك الآفاق القربية ؛ التى تستشرفها أوربا وأمريكا وروسيا  
على السواء .

\*\*\*

من ذلك الاستعراض السريع يبدو جليا أن الصراع الحقيقى فى المستقبل لن يكون  
بين الرأسمالية والشيوعية، ولا بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى . . . ولكنه سيكون  
بين المادية المتمثلة فى الأرض كلها وبين الإسلام . . أو بتعبير أصح وأدق ستكون بين  
النظام الذى يجعل العبودية لله وحده ، ويخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده،  
وبين سائر الأنظمة الأرضية التى تقوم على أساس من عبودية العباد للعباد . .  
والمعسكران الشرقى والغربى على السواء يدركان هذه الحقيقة . ويعملان معا - على  
كل ما بينهما من منافسات ومن متناقضات - على سحق حركات البعث الإسلامى فى كل  
مكان . وعلى حرب الإسلام بكل صور الحرب فى كل مكان .  
وهذا ما ينبغى أن يدركه الداعون إلى الله ، فلا يتخذوا بهذا النزاع الظاهرى بين  
المعسكرات المختلفة ، وبين الأنظمة المختلفة .  
إن الإسلام هو القوة الحقيقية التى يحسب لها المعسكران كل حساب . وبقي أن يعرف  
أصحاب الإسلام هذه الحقيقة وأن يقيموا خطتهم على هذا الأساس .  
وحركات البعث الإسلامى اليوم فى مفترق الطرق . ونقطة البدء الصحيحة فى الطريق



الصحيح ، هي أن تتبين الشرط الأساسي « وجود » الإسلام ، أو عدم وجوده ؛ وأن تستيقن أن « وجود » الإسلام اليوم قد توقف ؛ وألا تنزع لهذا التقرير الخطير ، ولا يتعاضدها الأمر ، فتعجم عن رؤيته والجهر به . وأن تعلم أنها تستهدف إعادة إنشاء الإسلام من جديد ؛ أو بتعبير أدق مرة أخرى إلى حالة « الوجود » بعد أن توقف هذا الوجود فترة ..

هذا طريق .. والطريق الآخر أن تظن هذه الحركات - لحظة واحدة - أن الإسلام قائم ، وأن هؤلاء الذين يدعون الإسلام ويتسمون بأسماء المسلمين هم فعلا « مسلمون ! » وأن الأوضاع « العلمانية » السائدة في الأرض هي أوضاع « إسلامية » كالوضع الذي أقامه أتاتورك ، والأوضاع التي سارت على نسقه .. كما يريد « ولفرد كانتول سميث » وأمثاله والمخدوعون به والمخادعون ، أن يلقوا في روع الناس !

هذا طريق .. وذلك طريق . وحركات البعث الإسلامي اليوم على مفرق الطريق ! فإن سارت في الطريق الأول سارت على صراط الله وهداه ؛ وعلمت أنها تواجه توقفا في « وجود » الإسلام ذاته . وأنها تستهدف ما تستهدفه محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والجماعة المسلمة الأولى ؛ وأنها ستلقى مثلما لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، من الاضطهاد والتعذيب ، ومن الصبر والمصابرة ، ثم من النصر والتأييد ، والتمكين في الأرض في نهاية المطاف .

وإن سارت في الطريق الثاني الذي يدلها عليه مستر « ولفرد كانتول سميث » وضرباؤه والمخدوعون به والمخادعون ، فستسير وراء سراب كاذب . تلوح لها فيه من بعيد « عمائم » .. تحرف الكلم عن مواضعه ، وتشترى بآيات الله ثمنا قليلا ؛ وترفع راية الإسلام على مساجد الضرار ؛ وتضع لافتات إسلامية على معسكرات الفجور والانحلال !

إن حركات البعث الإسلامى تتناثر اليوم على وجه الارض كلها ؛ وتقتحم على الصليبية عرينها فى قلب أمريكا وأوربا ؛ وتنتفض فى آسيا وإفريقية - على الرغم من كل ما رصدته لها الصليبية والصهيونية من الأجهزة والأوضاع التى تحاول سحقها .

ولكن هذه الحركات يمكن أن تذهب وراء السراب الخادع ؛ ويمكن أن تسلك الطريق القاصد ..

ورجاؤنا فى الله كبير أن يفتح البصائر على الحق ، وأن يفتح العيون على الواقع .  
والله الهادى والموفق والمعين . .

# الفهرس

الموضوع	صفحة
الدين والمجتمع بين المسيحية والإسلام	٧
طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام	٢٤
أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام	٣٨
التحرر الوجداني	٤٠
المساواة الإنسانية	٥٥
التكافل الاجتماعي	٦٦
وسائل العدالة الاجتماعية في الإسلام	٨١
سياسة الحكم في الإسلام	٩٧
سياسة المال في الإسلام	١١٣
الملكية الفردية	١١٥
حق الملكية الفردية	١١٥
طبيعة الملكية الفردية	١١٨
وسائل التملك الفردي	١٢٣
طرق تنمية الملكية	١٣١
طرق الإنفاق	١٤٢
فريضة الزكاة	١٥٠
فرائض غير الزكاة	١٥٧
من الواقع التاريخي في الإسلام	١٦٧
حاضر الإسلام ومستقبله	٢٤٨
في مفترق الطرق	٢٩٥

# بصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

## مكتبة الاستاذ سيد قطب

- \* في ظلال القرآن ..
- \* دراسات إسلامية
- \* مشاهد القيامة في القرآن
- \* نحو مجتمع إسلامي
- \* التصوير الفني في القرآن
- \* في التاريخ فكرة ومنهاج
- \* الإسلام ومشكلات الحضارة
- \* تفسير آيات الربا
- \* تفسير سورة الشورى
- \* نقد الأدبي أصوله ومناهجه
- \* كتب وشخصيات
- \* مهمة الشاعر في الحياة
- \* المستقبل لهذا الدين
- \* هذا الدين
- \* معركتنا مع اليهود
- \* السلام العالمي والإسلام
- \* معركة الإسلام والرأسمالية
- \* طفل في القرية
- \* العدالة الاجتماعية في الإسلام
- \* معالم في الطريق

## مكتبة الاستاذ محمد قطب

- \* الإنسان بين المادية والإسلام
- \* شبهات حول الإسلام
- \* منهج الفن الإسلامي
- \* جاهلية القرن العشرين
- \* منهج التربية الإسلامية
- \* دراسات قرآنية
- \* معركة التقاليد
- \* تحت الطبع
- \* في النفس والمجتمع
- \* التطور والثبات في حياة البشر
- \* دراسات في النفس الإنسانية
- \* منهج التربية الإسلامية ( الجزء الثاني )
- \* كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- \* هل نحن مسلمون
- \* دراسات في النفس الإنسانية
- \* المستشرقون والإسلام
- \* قيسات من الرسول
- \* مفاهيم ينبغي أن تصحح

## من كتب دار الشروق الإسلامية

الدعوة الوهابية	مصحف الشروق المفسر الميسر
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	مختصر تفسير الإمام الطبري
مسلمون وكفى	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الإمام الأكبر محمود شلتوت
المسلم في عالم الاقتصاد	الإسلام عقيدة وشريعة
الأستاذ مالك بن نبي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أنبياء الله	الفتاوى
الأستاذ أحمد بهجت	الإمام الأكبر محمود شلتوت
التعبير الفني في القرآن	من توجيهات الإسلام
الدكتور بكري الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أدب الحديث النبوي	إلى القرآن الكريم
الدكتور بكري الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
دفاع عن أبي هريرة	الوصايا العشر
الأستاذ عبد المنعم صالح العلي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الحجة في القراءات السبع	الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الإسلام وتوزيع الثروات	اليهود في القرآن
الأستاذ إبراهيم البرابري	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي	أيام الله
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ عبد الكريم الخطيب

## الإسراء والمعراج

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل

الأستاذ جميل بيهم

الإسلام في مفترق الطرق

الدكتور أحمد عروة

رحلتي من الشك للإيمان

( باللغة الفرنسية )

الدكتور مصطفى محمود

كيف أرى الله

الدكتور عبد الودود شلبي

ذو النون المصري

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قال الأولون

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

حياة محمد في عشرين قصة

الأستاذ عبد التواب يوسف

## الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

الجائز والممنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء

المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم المطعني

ونزل القرآن

الأستاذ أحمد فراج

أيها الولد المحب

الإمام الغزالي

الأدب في الدين

الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

خفايا الإسراء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكيك

حقوق الإنسان بين الإسلام والمذاهب المعاصرة

الأستاذ عبد الله المحمود

الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام

الدكتور عبد الجليل شلبي



## مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسي - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيًا: شروق القاهرة - تلي: 93091 SHROK UN  
بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيًا: دالشرق - تلي: SHOROK 20175 LE









Bibliotheca Alexandrina



0546850

مطابع الشروق